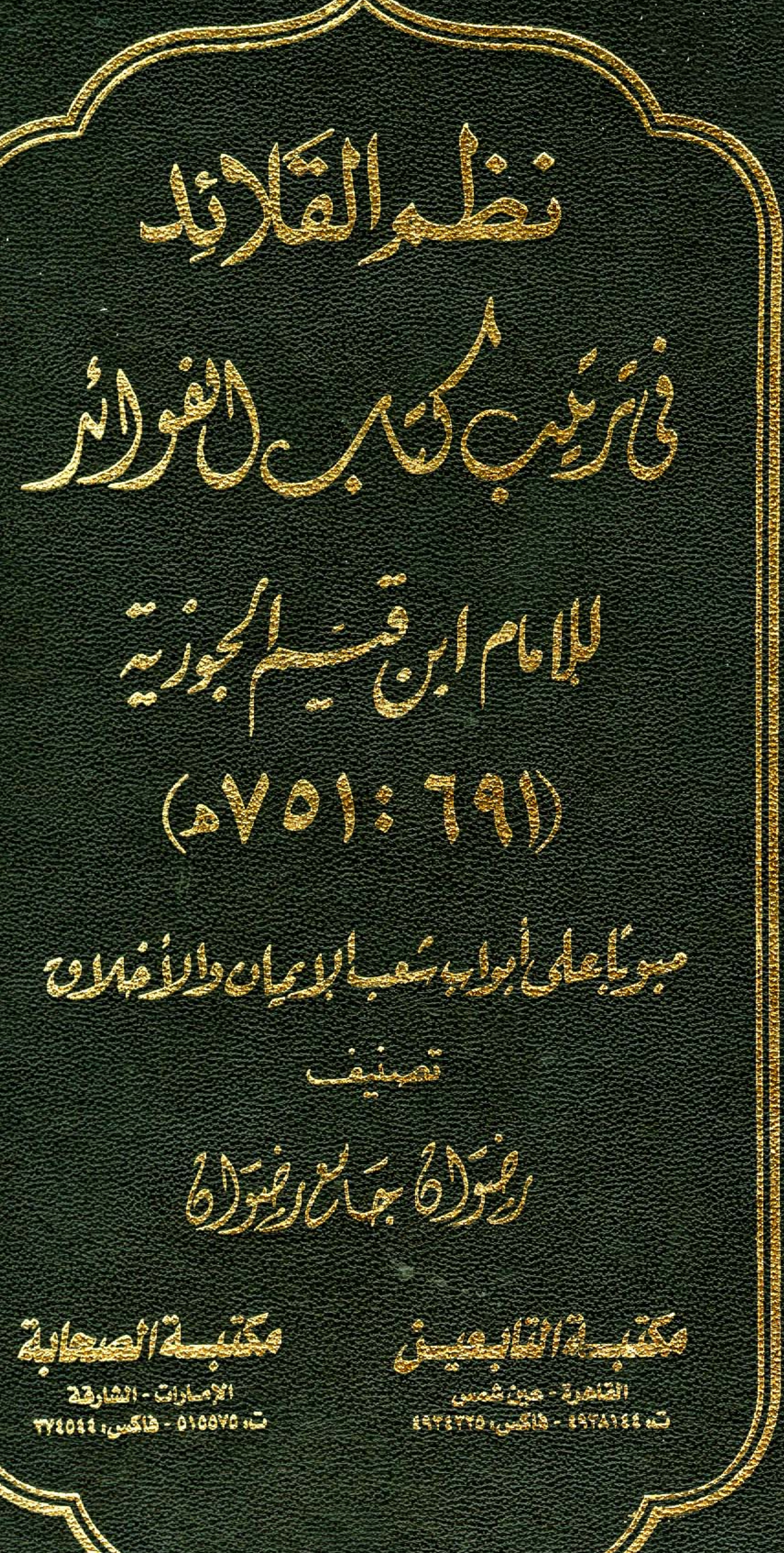

نظم القلائد
في ترتيب كتاب الفوائد
للإمام ابن قيم الجوزية
(٦٩١ : ٧٥١هـ)
مبوبا على أبواب شعب الإيمان والأخلاق
تصنيف
رضوان جامع رضوان
مكتبة التابعين
القاهرة - عين شمس
ت: ٤٩٢٨١٤٤ - فاكس: ٤٩٢٤٢٢٥
مكتبة الصحابة
الإمارات - الشارقة
ت: ٥١٥٥٧٥ - فاكس: ٣٧٤٥٤٤

نظم القلائد

في ترتيب كتاب الفوائد

للإمام ابن قيم الجوزية

(٦٩١ : ٧٥١ هـ)

مبوباً على أبواب شعب الإيمان والأخلاق

تصنيف

رضوان جامع رضوان



الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

مكتبة الصحابة

الإمارات – الشارقة .

ت : ٥١٥٥٧٥ – فاكس : ٣٧٤٥٤٤

مكتبة التابعين

القاهرة – عين شمس .

ت : ٤٩٣٨١٤٤ – فاكس : ٤٩٣٤٣٢٥

نظم القلائد
في ترتيب كتاب الفوائد

مقدمة المصنف

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدًا.

واشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، إقرارًا بوحدانيته ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، اعترافًا بنبوته، صَلِّ اللهم عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد . . . فيحتل كتاب «الفوائد» للإمام ابن القيم مكانة سامية فى قلوب المسلمين، ويقع فى موقع متميز بين الكتب التى صنفت فى الرقائق وشعب الإيمان، إذإن هذه الفوائد تخرج من قلب وفكر رجل طبيب للقلوب ، ومداوٍ لجراح الروح ، فارس الكلمة وصاحب التصانيف القيمة ، هو الإمام المرشد أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب، الغنى عن التعريف ، والشهير بابن قيم الجوزية[1].

ولا غرو فى ذلك ، إذ إن كل فائدة فى الكتاب تمد الجسم بما يحتاجه من غذاء روحى ليتجدد نشاطه للاجتهاد فى العبادة، وتمد العقل بما ينير بصيرته فيرى الحق حقاً ويرى الباطل باطلا ، ويرى المعروف معروفًا ، ويرى المنكر منكرًا ، وتمد القلب بما يقويه ويبعث فيه الحياة بما يجعله نشطًا للطاعة ، يقظًا من رقدة الغفلة ، وبما يزيل الغشاوة عن عيون أعمتها سحب الأمل الخادعة، المتبددة تحت شمس المواعظ المستمدة من كلام رب العالمين ، ومن حجة وبلاغة سيد المرسلين صلِّ اللهم عليه وآله وسلَّم.

فكل فائدة تبعث النور فى قلب قد تاه فى ظلمات المعاصى ورينها ، وانخدع بسراب الدنيا الكاذبة ، أو تبعث رجاءً فى نفسٍ قد حطمها اليأس من قبول التوبة ، وحاك الشيطان عليها خيوطًا من كل جانب فأسرها وأقعدها عن ركب الصالحين.

---

(١) انظر ترجمته فى : «البداية والنهاية» (١٤/ ٢٣٤ ، ٢٣٥) لابن كثير، و «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٤٤٧ - ٤٥٢) لابن رجب الحنبلى، و «الدرر الكامنة» (٤/ ٢١ - ٢٣) لابن حجر العسقلانى، و «النجوم الزاهرة» (١٠/ ٢٤٩) لابن تغرى بردى، وغيرهما.

ولما كانت الفوائد فى كتاب «الفوائد» بهذه القيمة العظيمة ، وينصح بقراءتها بفهم وتدبر كان ينقص الكتاب أمر - ما نظن أن المصنف قد غفل عنه : وهو وضع كل فائدة فى الباب المناسب لها - ولكن نظن أن الشيخ سجل شوارد أفكاره أشبه بصيد للخاطر ، وتقييد للحكمة التى تتبادر إلى ذهنه الوقاد ، فسجلها فى كتاب ليستفيد بها المؤمنون ، ويشم عبيرها العارفون ، والله أعلم بالمراد ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرًا كثيرًا﴾ .

ومما هو معلوم لمن اطلع على كتاب «الفوائد» ، أن الورقة الواحدة منه تشتمل على عشر فوائد قد تقل أو تزيد، وكل فائدة تهدف لإيضاح أمر معين، من إخلاص للعبادة ، أو ذكر لله ، أو شكر لنعمة ، أو تفسير لآية، أو ذم للرياء والعجب . . . إلى آخره من أعمال القلوب وشعب الإيمان.

وهكذا أغلب صفحات الكتاب من غير تنويه ، أو وضع عنوان لكل فائدة تدل على مراد المؤلف - رحمه الله - فاستعنت بالله سبحانه على جمع شوارد الفوائد التى بثها الشيخ الإمام فى ثنايا الكتاب ، فتم بفضله وتوفيقه ما يأتى :

١ - اجتهدت فى فهم كل فائدة على حدة ، ووضعها فى باب مناسب لها ، حتى يتم الاستفادة التامة منها ، ويسهل تدارسها تحت أبواب من شعب الإيمان ، أو علوم القرآن. . وغيرها ، خاصة وأن أغلب كلام الشيخ فى فوائده يرمز إلى مراده بالتلميح ، وليس بالتصريح.

٢ - قمت بتقسيم الكتاب إلى أربعة أبواب ، وتحت كل باب عدة فصول:

الباب الأول - وأسميته : «منازل العبودية»، ويشتمل على خمسة عشر فصلا .

الباب الثانى - وأسميته : «الفضائل والمذمومات» ، ويشتمل على سبعة فصول.

الباب الثالث - وأسميته : «فقه العبودية وفقه الدعوة»، ويشتمل على تسعة فصول.

الباب الرابع - وأسميته : «روضة القرآن» ، ويشتمل على ثلاثة عشر فصلا .

وإتمامًا للفائدة ألحقنا بهذا الباب فهرست بالآيات التى وردت فى الكتاب وتعرض لها الشيخ بالبحث أو التفسير.

- وأسميت الكتاب ككل : « **نظم القلائد فى ترتيب الفوائد** » .

٣ - رقمت كل فائـدة برقم مسلسل لكل بـاب ، وبجواره رقم مسلسل عـام للفوائد جميعـها بالكتاب ، حـتى يسهل العـزو إليها عند الإحـالة من فائدة إلى فـائدة، أو في فهرست الآيات القرآنية الملحق بآخر الكتاب ، فنعزو للفائدة بذلك الرقم العام.

٤ - من الفوائد ما يـكون مشتملا على أكثر مـن فقرة متداخلة المعانى ، كـأن يتكلم الشيخ فى أمر الإيمان مثلا ، ثم يتطرق إلـى الصبر أو اليقين أو التقوى. . . أو غيرها ، فوضعت رقمًا أساسيًا لتلك الفائدة، ثم وضعت رقمًا لكل فقرة تطرق إليها، وأشرت إلى ذلك الرقم فى بابه لتتم الاستفادة بالفائدة من جميع الوجوه.

(مثال) : انظر فـى ذلك مثلا الفوائـد رقم : ٢٥ ، ٥٦ وما يليـها ، ورقم : ٥٦٠، والفائدة رقم : ٥٧٣ وما بعدها وغيرها من الفوائد المتناثرة بالكتاب.

٥ - بعض الفوائد وضع أمامها رقم واحد فقط وهو الرقم المسلسل بدون رقم للباب، وذلك لأن هذه الفائدة تابعة للتى قبلها لا تنفصل عنها، إلا أن الشيخ ابن القيم يفيد فيها أمرًا آخر ، مما حدا بنا أن نفـرد هذه الجزئية وجعلنا لها رقمًا خاصاً ليـستفاد به فى فصل يكون خاصًا فى موضوعـها ، فيسهل العزو إليها برقمها حيـنئذ ، وذلك ما تجده واضحًا بعد كل فصل بجملة : **«وانظر الفقرَات والفوائد برقم : كذا وكذا»** كما سيتبين لك.

٦ - أضفت بعض الألـفاظ التى تزيد توضيـحًا للمعنى المراد ، أو لمظنة سقط ، أو لتغيـير فى سياق الأصل ، ووضعـت هذه الزيادة بين قوسـين هكذا : (   ) ، وهذا قليل جداً ، وقد اعتمدت على عدة نسخ مطبوعة للكتاب منها طبعة المكتبة القيمة وهى من الطبعات الجيدة للكتاب ، والجهد المبـذول فيها ظاهر وواضح للعيان على بعض سقط فيها للأسف.

هذا وإن بقيت كلمة . فهـي كلمة شكر نوجهها لفضيلة الأستـاذ الشيخ/ عبد الغفار أحمد علي . صاحب مكـتبة الصحابة بالإمارات ، والتابعين بالقاهـرة الذي تكفل بطبع هذا الكتاب ، وإخـراجه بهذه الصورة الفنية الـرائعة ، والشكر له لما يبذلـه من جهد في نشر الكلمة الطـيبة وخدمة التراث الإسلامي . وقد جاء في الحديث الـصحيح «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» ؛ فجزاه الله خير الجزاء.

والله أسأل أن يتقبل هذا الـعمل القليل ، وأن يصلحه ويبـارك فيه ، وأن يجزى خيرًا

كل من ساهم فى نشره وكل من قرأه وعمل بما فيه وأن يشملنا معهم بعظيم عفوه ومغفرته إنه هو الغفور الرحيم.

وكتبه :
رضوان جامع رضوان
القاهرة فى غرة رمضان المبارك ١٤١٢ هـ

الباب الأول
منازل العبودية

١ - الإخلاص ، وذم الرياء والعجب .

٢ - آثار المعاصي.

٣ - الغفلة والتسويف.

٤ - اليقظة وترك الذنوب.

٥ - تجديد التوبة.

٦ - العزيمة والمجاهدة.

٧ - الخوف والرجاء.

٨ - الإيمان والتوحيد.

٩ - الصبر.

١٠ - زاد التقوى.

١١ - التفويض والتوكل.

١٢ - القلب السليم والنفس المطمئنة.

١٣ - الحمد والشكر.

١٤ - التواضع والخشوع وعدم الكبر.

١٥ - الأنس بالله ومحبته سبحانه والشوق إليه.



الفصل الأول
الإخلاص وذم الرياء والعُجب

١/١ - لو نفع العلم بلا عمل ، لما ذم الله سبحانه أحبار أهل الكتاب، ولو نفع العمل بلا إخلاص ، لما ذم المنافقين.

٢/٢ - العمل بغير إخلاص ولا اقتداء ، كالمسافر يملأ جرابه رملا ، يثقله ولا ينفعه.

٣/٣ - بين العبد وبين الله والجنة قنطرة تقطع بخطوتين : خطوة عن نفسه، وخطوة عن الخلق:

فيسقط نفسه ويلغيها ، فيما بينه وبين الناس ، ويسقط الناس ويلغيهم، فيما بينه وبين الله.

فلا يلتفت إلا إلى من دله على الله، وعلى الطريق الموصلة إليه (سبحانه).

٤/٤ - من عرف نفسه ، اشتغل بإصلاحها عن عيوب الناس.

٥/٥ - من عرف ربه اشتغل به عن هوى نفسه.

٦/٦ - أنفع العمل أن تغيب فيه عن الناس بالإخلاص ، وعن نفسك بشهود المنة ، فلا ترى فيه نفسك[1] ، ولا ترى الخلق.

٧/٧ - أخسر الناس صفقة ، من اشتغل عن الله بنفسه ، بل أخسر منه من اشتغل عن نفسه بالناس.

٨/٨ - قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، «العنكبوت: آية ٦٩» علق سبحانه الهداية بالجهاد فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً، وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا، فمن جاهد هذه الأربعة في الله

(١) أي لا ترى لنفسك فضلا في العمل الصالح ، بل ترد ذلك كله لفضل الله، ومنته عليك وأنه لو خلاك لنفسك ، لسارعت بك إلى التقاعس عن العمل الصالح، والمسارعة في السيئات.

هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته ، ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد.

٩/٩ - قال الجنيد : والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة، لنهدينهم سبل الإخلاص، ولا يتمكن من جهاد عدوه فى الظاهر ، إلا من جاهد هذه الأعداء باطنًا، فمن نُصر عليها نُصر على عدوه، ومن نُصرت عليه نصر عليه عدوه.

١٠/١٠ - إطلاق البصر ينقش فى القلب صورة المنظور ، والقلب كعبة، والمعبود (سبحانه) لا يرضى بمزاحمة الأصنام.

١١/١١ - سبحان الله، ظاهرك متجمل بلباس التقوى، وباطنك باطية[١] لخمر الهوى، فكلما طيبت الثوب فاحت رائحة المُسكِر من تحته، فتباعد منك الصادقون، وانحاز إليك الفاسقون.

١٢/١٢ - متى رمت طلبى فاطلبنى عندك ، اطلبنى منك تجدنى قريبًا، ولا تطلبنى من غيرك فأنا أقرب إليك منه.

١٣/١٣ - الإخلاص هو : ما لا يعلمه ملك فيكتبه ، ولا عدو فيفسده[٢] ، ولا يعجب به صاحبه فيبطله.

١٤/١٤ - لا يشم عبد رائحة الصدق ويداهن نفسه، أو يداهن غيره.

١٥/١٥ - أقرب الوسائل إلى الله : ملازمة السنة والوقوف معها فى الظاهر والباطن، ودوام الافتقار إلى الله، وإرادة وجهه وحده بالأقوال والأفعال ، وما وصل أحد إلى الله إلا من هذه الثلاثة، وما انقطع عنه أحد إلا بانقطاعه عنها أو عن أحدها.

١٦/١٦- قال بعض الزهاد: ما علمت أن أحدًا سمع بالجنة والنار تأتى عليه ساعة لا يطيع الله فيها بذكر أو صلاة أو قراءة أو إحسان، فقال له رجل : إنى أكثر البكاء! فقال: إنك إن تضحك وأنت مقر بخطيئتك خير من أن تبكي وأنت مدلٌّ[٣] بعملك وإن المُدِلَّ لا يصعد عمله فوق رأسه.

---

(١) الباطية : إناء يوضع فيه الخمر وغيره ، وأظنه مُعَرَّبًا. (مختار الصحاح : بطا).

(٢) العدو هنا يقصد به الشيطان الوسواس ، والله أعلم.

(٣) الدل : والأدل : المنان بعمله. (الوسيط).

١٧/١٧ - قال يحيى بن معاذ : عجبت من ثلاث : رجل يـرائى بعمله مخلوقًا مثله ويترك أن يعمله لله ، ورجل يبخل بماله وربه يستقرضه منه فلا يقرضه منه شيئًا ، ورجل يرغب فى صحبة المخلوقين ومودتهم، والله يدعوه إلى صحبته ومودته.

١٨/١٨ - خرج ابن مسـعود رضي الله عنه ذات يوم فاتبعـه ناس، فقال لهم: ألـكم حاجة؟ قالوا: لا ، ولكن أردنا أن نمشى معك، فقال: ارجعوا ، فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع.

١٩/١٩ - المطلب الأعلـى موقوف حصوله على هـمة عالية، ونية صحـيحة ، فمن فقدهما تعذر عليه الوصول إليه، فإن الهـمة إذا كانت عالية تعلقت به وحده دون غيره، وإذا كانت النية صحيحة سلك العبد الطريق الموصلة إليه، فالنية تفرد له الطريق ، والهمة تفرد له المـطلوب ، فإذا توحد مطـلوبه والطريق المـوصلة إليه كان الوصـول غايته، وإذا كانت همته سافلة تعـلقت بالسفليات ولم تتعلق بالمطلب الأعـلى ، وإذا كانت النية غير صحيحة كانت طريقه غير موصله إليه .

فمدار الشأن على همة العبد ونيته وهما مطلوبه وطريقه ولا يتم إلاّ بترك ثلاثة أشياء:

(الأول): العوائد والرسوم والأوضاع التي أحدثها الناس .

الثاني: هجر العوائد التي تعوقه عن إفراد مطلوبه وطريقه وقطعها .

الثالث: قطع علائق القلب التي تحول بينه وبين تجريد التعليق بالمطلوب .

والفرق بيـنهما أن العوائق هـي الحوادث الخارجية ، والعلائق هـي التعلقات القـلبية بالمبـاحات ونحوها، وأصـل ذلك : ترك الفضول الـتى تشغل عـن المقصود من الـطعام والشراب والمنام والخلطة ، فـيأخذ من ذلك ما يعينه على طلبه ، ويرفـض منه ما يقطعه عنه، أو يضعف طلبه ، والله المستعان.

٢٠/ ٢٠ - عن ابن مسعـود رضي الله عنه قال: إن الناس قد أحسنوا القول، فـمن وافق قوله فعله فذاك الذى أصاب حظه ، ومن خالف قوله فعله فذاك إنما يوبخ نفسه[1].

٢١/٢١ - لا يجتمـع الإخلاص فى القلب ومـحبة المدح والثنـاء والطمع فيمـا عند الناس إلا كـما يجتـمع الماء والنـار ، والضب والحوت ، فـإذا حدثتك نـفسك بطـلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولا فاذبحه بسكـين اليأس، وأقبل على المدح والثناء فازهد

---

(١) قد أفردنا لمواعظ وآثار ابن مسعود رضي الله عنه فصلا مستقلا فى باب «فضائل الصحابة».

فيهما زهد عشاق الدنيا فى الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد فى الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص.

فإن قلت: وما الذي يسهل عليَّ ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح؟ قلت: أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقينًا أنه ليس من شيء يطمع فيه إلا وبيد الله وحده خزائنه لا يملكها غيره، ولا يؤتى العبد منها شيئًا سواه، وأمَّا الزهد فى الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين، ويضر ذمه ويشين إلا الله وحده، كما قال ذلك الأعرابى للنبى ﷺ: إن مدحي زين وذمي شين، فقال ﷺ: «ذلك الله عز وجل»[1]، فازهد في مدح من لا يزينك مدحه، وفى ذم مالا يشينك ذمه، وارغب فى مدح من كل الزين فى مدحه، وكل الشين فى ذمه، ولن يقدر على ذلك إلا بالصبر واليقين، فمتى فقدت الصبر واليقين كنت كمن أراد السفر فى البحر فى غير مركب. قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ «الروم: آية ٦٠»، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ «السجدة: آية ٢٤».

٢٢/ ٢٢ - ذكر ابن سعد فى «الطبقات»، عن عمر بن عبد العزيز أنه كان إذا خطب على المنبر فخاف على نفسه العجب قطعه، وإذا كتب كتابًا فخاف فيه العجب مزقه، ويقول: «اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى»[2].

اعلم أن العبد إذا شرع فى قول أو عمل يبتغى به مرضاة الله، مطالعا فيه منة الله

---

(١) (حسن) أخرجه الإمام أحمد (٣/٤٨٨، ٦/٣٩٣، ٣٩٤)، من حديث الأقرع بن حابس، والترمذي (٣٢٦٧) عن البراء بن عازب فى قوله تعالى: **﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾** قال: فقام رجل فقال: يا رسول الله إن حمدى زين وإن ذمي شين، فقال النبى ﷺ: «ذاك الله». قال الترمذي: حديث حسن غريب. ا هـ. والحديث أورده الحافظ فى «الفتح» وسكت عنه(٤٨٤٥)، وذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (٦/ ٨٦) وقال: رواه أحمد وابن جرير وأبو القاسم البغوي وابن مردويه والطبرانى بسند صحيح. ثم ساق سنده ومتنه ثم قال: وأخرجه الترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن البراء بن عازب... فذكره. ا.هـ. والحديث صححه الألبانى فى «صحيح الترمذى».

(٢) إلى هنا انتهى كلام عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وما يأتي كلام الشيخ ابن القيم.

عليه بـه وتوفيقه له فيـه، وأنه بالله لا بنفسه ولا بمعـرفته وفكره وحوله وقـوته، بل هو بالذي أنشأ له اللسـان والقلب والعين والأذن، فالذى مَنَّ عليه بذلـك هو الذى مَنَّ عليه بالقول والـفعل، فإذا لم يغب ذلـك عن ملاحظته ونظر قـلبه لم يحضره الـعجب الذى أصله: رؤيـة نفسه وغيبـته عن شهود مـنة ربه وتوفـيقه وإعانـته ، فإذا غاب عـن تلك الملاحظـة وَثَبَت النفـس وقامت فى مـقام الدعوى فوقـع العجب ؛ ففـسد عليـه القول والعمل، فتارة يُحال بينه وبين تمامه ويقطع عليه ويكون ذلك رحمة به حتى لا يغيب عن مشاهدة المنة والتوفـيق ،وتارة يتم له ولكن لا يكون له ثمرة وإن أثمر ثـمرة ضعيفة غير محصلة للمقصود،وتارة ويكون ضرره عليه أعظـم من انتفاعه ويتولد له منه مفاسد شتى بحسب غيبته عن ملاحظة التوفيق والمنة، ورؤية نفسه وأن القول والفعل به.

ومن هذا الموضع يُصلح الله سبحانه أقوال عبده وأعـماله ويُعظم له ثمرتها أو يُفسدها عليه ويمنعه ثمرتها، فلا شيء أفسد للأعمال من العجب ورؤية النفس.

فإذا أراد الله بعبده خيـراً أشهده منته وتوفيقه وإعـانته له فى كل ما يقوله ويـفعله فلا يعجب به ، ثم أشهده تـقصيره فيه وأنه لا يرضى لربه به، فيتوب إليـه منه ويستغفره ، ويستحى أن يطلب عليه أجراً.

وإذا لم يشهده ذلك وغيبه عنه فرأى نفسه فى العمل ورآه بعين الكمال والرضاء ، لم يقع ذلك العمل منه موقع القبول والرضا والمحبة.

فالعارف يعمل العمل لوجهه (سبحانه)، مشاهداً فيه منته وفضله وتوفيقه، معتذراً منه إليه، مستحييًـا منه إذ لم يوفه حقه، والجاهل يعمل العمل لحـظِّه وهواه ، ناظراً فيه إلى نفسه، يمن به على ربه ، راضيًا بعمله، فهذا لون وذاك لون آخر.

٢٣/٢٣ - لما صاد الكلب لربه[١] أبيح صيده ، ولما أمسك على نفسه حرم ما صاده.

٢٤/٢٤ - كون الرجل يـعمل بعمل أهـل الجنة حتى ما يـكون بينه وبيـنها إلا ذراع فيسبق عليه الكـتاب، فإن هذا عمل أهل الجنة فيما يظهر للـناس، ولو كان عملا صالحًا مقبولاً للجنة قد أحبه الله ورضيه لم يبطلـه عليه . وقوله ﷺ : «لم يَبْقَ بينه وبينها إلا

(١) أى مالكه وسيده.

ذراع»(١) يشكل على هذا التأويل - فيقال : لما كان العمل بآخره وخاتمته لم يصبر هذا العامل على عمله حتى يتم له ، بل كان فيه آفة كامنة، ونكتة خذل بها فى آخر عمره فخانته تلك الآفة ، والداهية الباطنة فى وقت الحاجة، فرجع إلى موجبها ، وعملت عملها ، ولو لم يكن هناك غش وآفة لم يقلب الله إيمانه، لقد أورده مع صدقه فيه وإخلاصه بغير سبب منه يقتضي إفساده عليه ، والله يعلم من سائر العباد ما لا يعلمه بعضهم من بعض.

٢٥/ ٢٥ - السنة شجرة ، والشهور فروعها ، والأيام أغصانها ، والساعات أوراقها، والأنفاس ثمرها، فمن كانت أنفاسه فى طاعة ؛ فثمرة شجرته طيبة، ومن كانت فى معصية ؛ فثمرته حنظل ، وإنما يكون الجداد(٢) يوم المعاد، فعند الجداد يتبين حلو الثمار من مرها.

والإخلاص والتوحيد شجرة فى القلب : فروعها الأعمال ، وثمرها طيب الحياة فى الدنيا ، والنعيم المقيم فى الآخرة ، وكما أن ثمار الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة فثمرة التوحيد والإخلاص فى الدنيا كذلك.

والشرك والكذب والرياء شجرة فى القلب - ثمرها فى الدنيا : الخوف والهم والغم وضيق الصدر، وظلمة القلب، وثمرها فى الآخرة : الزقوم والعذاب المقيم ، وقد ذكر الله هاتين الشجرتين فى سورة إبراهيم(٣).

---

(١) أخرجه البخارى فى «صحيحه» من حديث عبد الله بن مسعود (٣٢٠٨ - ٣٣٣٢ - ٦٥٩٤ - ٧٤٥٤) وأوله : «إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يومًا. . .» الحديث ، وفيه : «فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع فيسبق عليه كتابه فيعمل بعمل أهل النار، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع. . . الحديث» ، وأخرجه مسلم (كتاب القدر: ١)، والإمام أحمد (١/ ٣٨٢ - ٤٣٠) وغيرهم. وانظر للأهمية شرحه في تعليقنا على «كتاب الأحاديث الكلية» لابن الصلاح.

(٢) جد النخل : قطع ثمره.

(٣) يشير إلى قوله تعالى : ﴿ألم تركيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة...﴾ الآيات «إبراهيم: ٢٤ - وما بعدها».

٢٦/٢٦ - الشهقة التى تعرض عند سماع القرآن أو غيره لها أسباب:

أحدها : أن يلوح له عند السماع درجة ليست له فيرتاح إليها فتحدث له الشهقة : فهذه شهقة شوق.

وثانيها : أن يلوح له ذنب ارتكبه فيشهق خوفًا وحزنًا على نفسه ، وهذه شهقة خشية.

وثالثها : أن يلوح له نقص فيه لا يقدر على دفعه عنه ، فيحدث له ذلك حزنًا فيشهق شهقة حزن.

ورابعها : أن يلوح له كمال محبوبه ويرى الطريق إليه مسدودة عنه، فيحدث ذلك شهقة أسف وحزن.

وخامسها : أن يكون قد توارى عنه محبوبه واشتغل بغيره، فذكره السماع محبوبه ، فلاح له جماله ورأى الباب مفتوحًا ، والطريق ظاهرة ، فشهق فرحًا وسرورًا بما لاح له.

وبكل حال- فسبب الشهقة: قوة الوارد، وضعف المحل عن الاحتمال، والقوة : أن يعمل ذلك الوارد عمله داخلا ولا يظهر عليه ، وذلك أقوى له وأدوم ، فإنه إذا أظهره ضعف أثره وأوشك انقطاعه.

هذا حكم الشهقة من الصادق ، فإن الشاهق: إما صادقًا، وإما سارقًا، وإما منافقًا.

وانظر الفقرات رقم :

(٩٣ - ١٨٥ - ٢٣٣ - ٢٣٦ - ٣٤٩ - ٤٨٩ - ٤٩٨ - ٥١٥ - ٥٢٨ - ٥٣٠ - ٥٧٧ - ٥٨١ - ٥٨٨ - ٥٩٥ - ٦٣٠).



الفصل الثاني

آثار المعاصي

١/ ٢٧ - دافع الخطرة ، فإن لم تفعل صارت فكرة ، فدافع الفكرة ، فإن لم تفعل صارت شهوة ، فحاربها ، فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمة، فإن لم تدافعها صارت فعلاً، فإن لم تتداركه بضده صار عادة فيصعب عليك الانتقال عنها.

٢/ ٢٨ - قلة التوفيق ، وفساد الرأى ، وخفاء الحق ، وفساد القلب، وخمول الذكر، وإضاعة الوقت ، ونفرة الخلق ، والوحشة بين العبد وبين ربه ، ومنع إجابة الدعاء ، وقسوة القلب ، ومحق البركة فى الرزق والعمر ، وحرمان العلم ، ولباس الذل ، وإهانة العدو ، وضيق الصدر ، والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت ، وطول الهم والغم ، وضنك المعيشة ، وكسف البال : تتولد من المعصية والغفلة عن ذكر الله كما يتولد الزرع عن الماء ، والإحراق عن النار ، وأضداد هذه تتولد عن الطاعة.

٣/ ٢٩ - مثال تولد الطاعة ونموها وتزايدها ، كمثل نواة غرستها فصارت شجرة ، ثم أثمرت ، فأكلت ثمرها وغرست نواها، فكلما أثمر منها شيء جنيت ثمره وغرست نواه، وكذلك تداعى المعاصى.

فليتدبر اللبيب هذا المثال ، فمن ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها.

٤/ ٣٠ - إياك والمعاصي ، فإنها أذلت عِزَّ ﴿اسْجُدُوا﴾[١]، وأخرجت إقطاع ﴿اسْكُنْ﴾[٢].

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ «البقرة : ٣٤» وفى عدة مواطن فى القرآن ، وهو شرف عظيم لآدم ولذريته ، ولكن لما عصى الله ضاع هذا العز ، بل وأهبط إلى الأرض.

(٢) يشير إلى قوله تعالى : ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما﴾ «البقرة : ٣٥» وفى مواطن أخرى.

٥/ ٣١ - يا لها لحظة أثـمرت حرارة القلق ألف سنة ، مازال يكتـب بدم الندم سطور الحزن فى القصص ، ويرسلها مع أنفاس الأسف، حتى جاءه توقيع ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾.

٦/ ٣٢ - يا آدم : لا تجـزع من قولـي لك : اخْرُجْ مِـنْهَـا ، فلك ولـصالح ذريـتك خلقتها.

يا آدم : كنت تدخل عليَّ دخول الملوك على الملوك ، واليوم تدخل عليَّ دخول العبيد على الملوك.

يا آدم : لا تجزع من كأس زلل كانت سبب كَيْسك[1]، فقد استخرج منك داء العجب وألبست خلعة العبودية ، ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا﴾ «البقرة: ٢١٦».

يا آدم : لـم أخرج إقطاعـك إلى غيرك ، إنمـا نحيـتك عنه؛ لأكـمل عمارتـه لك، وليبعث إليَّ العمال نفقة : ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ﴾.

٧/ ٣٣ - تالله ما نفعه[2] عند معصيته عز : ﴿اسْجُدُوا﴾، ولا شرف: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ﴾ «البـقرة : ٣١» ، ولا خصيـصة : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ «ص: ٧٥» ، ولا فـخـر : ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ «ص : ٧٢» ، إنمـا انتـفع بـذل : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ «الأعراف : ٢٣».

لما لبس درع التوحيد على بدن الشكر وقع سـهم العدو منه فى غير مقتل، فجرحه ، فوضع عليه جبار الانكسار ، فعاد كما كان ، فقام الجريح كأن لم يكن به قلبة.

٨/ ٣٤ - الذنوب جراحات ، ورب جرح وقع فى مقتل.

٩/ ٣٥ - لو خرج عقلك من سلطان هواك عادت الدولة له.

١٠/ ٣٦ - دخلت دار الهوى فقامرت بعمرك.

١١/ ٣٧ - إذا عرضت نظرة لا تحل فاعلم أنها مسعر حرب ، فاستتر منها بحجاب : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فقد سلِمت من الأثر، وكفى الله المؤمنين القتال.

---

(١) الكَيْسُ بِوَزْنِ الكَيْل : ضد الحمق (مختار الصحاح).

(٢) الضمير لآدم ، والحكمة والخطاب موجه للجميع من ذريته.

١٢/ ٣٨ - بحر الهوى إذا مد أغرق ، وأخوف المنافذ على السابح فتح بصره في الماء.

١٣/ ٣٩ -

ما أحدٌ أكرم من مفرد	في قبره أعماله تؤنسه
مُنعَّمًا في القبر في روضةٍ	ليس كعبد قبره محبسه

١٤/ ٤٠ - اقشعرت الأرض ، وأظلمت السماء، وظهر الفساد في البر والبحر من ظلم الفجرة، وذهبت البركات ، وقلت الخيرات ، وهزلت الوحوش ، وتكدرت الحياة من فسق الظلمة، وبكى ضوء النهار وظلمة الليل من الأعمال الخبيثة والأفعال الفظيعة ، وشكا الكرام الكاتبون والمعقبات إلى ربهم من كثرة الفواحش وغلبة المنكرات والقبائح.

وهذا والله منذر بسيل عذاب قد انعقد غمامه ، ومؤذن بليل بلاء قد ادلهم ظلامه ، فاعزلوا عن طريق هذا السبيل بتوبة نصوح ما دامت التوبة ممكنة ، وبابها مفتوح ، وكأنكم بالباب وقد أغلق، وبالرهن وقد غلق[١]، وبالجناح وقد علق:

﴿وَسَيَعلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوْا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ «الشعراء : ٢٢٧»

١٥/ ٤١ - في الطبع شره ، والحمية أوفق.

١٦/ ٤٢ - لص الحرص لا يمشي إلا في ظلام الهوى.

١٧/ ٤٣ - حبة المشتهى تحت فخ التلف فتفكر الذبح، وقد هان الصبر.

١٨/ ٤٤ - يا مستفتحًا باب المعاش بغير إقليد[٢] التقوى ، كيف توسع طريق الخطايا وتشكو ضيق الرزق؟!

---

(١) غلق الرهن : انتهى موعده المشروط فلزمه ، وأغلق الباب : أحكم إغلاقه فهو مغلق (الوجيز - بتصرف) والمراد بالباب : باب التوبة ، وبالرهن : أي النفس كقوله تعالى: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ والله أعلم.

(٢) الإقليد : المفتاح.

١٩/ ٤٥ - المعاصي سد فى باب الكسب ، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه[1].

٢٠/ ٤٦ -

تـــالله مـــا جـــئـــتـــكـــم زائـــراً إلا وجـدت الأرض تـطـــوى لـــى

ولا انـثـنـى عـزمى عـن بـابـكـم إلا تـــعـــثـــرت بـــأذيـــالـــى

٢١/ ٤٧ - دخل الناس النار من ثلاثة أبواب :

- باب شبهة أورثت شكاً فى دين الله.

- وباب شهوة أورثت تقديم الهوى على طاعته ومرضاته.

- وباب غضب أورث العدوان على خلقه.

٢٢/ ٤٨ - أصول الخطايا كلها ثلاثة:

- الكبر : وهو الذي أصار إبليس إلى ما أصاره.

- والحرص : وهو الذى أخرج آدم من الجنة.

(١) (حسن): روي مرفوعًا أخرجه الإمام أحمد فى «مسنده» (٥/ ٢٧٧ ، ٢٨٠، ٢٨٢)، وابن ماجه (٩٠، ٤٠٢٢)، والحاكم (١/ ٤٩٣) من حديث ثوبان يرفعه وفيه.. «وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه». وفى إسناده عبد الله بن أبى الجعد الأشجعي، قال عنه الذهبي فى «الميزان»: وعبد الله هذا وإن كان وثق ففيه جهالة. ا. هـ. وقال البوصيرى فى «الزوائد» (٣/ ٢٤٧): هذا إسناد حسن ورواه النسائى فى «الرقائق» وسألت شيخنا أبا الفضل العراقي - رحمه الله - عن هذا الحديث فقال : هذا حديث حسن. ا. هـ. وقال الزبيدي : قال المنذري: رجال النسائي رجال الصحيح، ثم قال الزبيدي: لا يقدح فيه ما يرى من أن الكفرة والفسقة أعظم مالا وصحة من العلماء لأن الكلام فى مسلم يريد الله رفع درجته فى الآخرة فيصيبه من ذنوبه فى الدنيا ، وبه عرف أنه لا تناقض بينه وبين خبر «إن الرزق لا تنقصه المعصية»؛ ولهذا وجه بعضهم الخبر بأن لله لطائف يحدثها للمؤمن ليصرف وجهه إليه عن اتباع شهوته والانهماك فى نهمته، فإذا اشتغل بذلك عن ربه حرم رزقه فيكون زاجراً له إليه عما أقبل عليه، وتأديبًا له لئلا يعود لمثله . ا هـ. (الإتحاف : ٨/ ٦١٧) .

- والحسد : وهو الذى جرأ أحد ابني آدم على أخيه.

فمن وقي شر هذه الثلاثة فقد وقي الشر.

فالكفر من الكبر ، والمعاصي من الحرص ، والبغي والظلم من الحسد.

٤٩/٢٣ - جمع النبي ﷺ بين المأثم والمغرم[1]، فإن المأثم يوجب خسارة الآخرة ، والمغرم يوجب خسارة الدنيا.

٥٠/٢٤ - يدخل عليك لص الهوى ، وأنت فى زاوية التعبد ، فلا يرى منك طردًا له، فلا يزال بك حتى يخرجك من المسجد.

٥١/٢٥ - علمت كلبك فهو يترك شهوته فى تناول ما صاده احترامًا لنعمتك، وخوفًا من سطوتك ، وكم علمك معلم الشرع وأنت لا تقبل! .

٥٢/٢٦ - حرم صيد الجاهل والممسك لنفسه ، فما ظن الجاهل الذي أعماله لهوى نفسه؟!

٥٣/٢٧ - جمع فيك عقل الملك ، وشهوة البهيمة ، وهوى الشيطان، وأنت للغالب عليك من الثلاثة ، إن غلبت شهوتك وهواك زدت على مرتبة ملك، وإن غلبك هواك وشهوتك نقصت عن مرتبة كلب.

٥٤/٢٨ - أصول المعاصي كلها ، كبارها وصغارها ثلاثة :

- تعلق القلب بغير الله.
- طاعة القوة الغضبية.
- طاعة القوة الشهوانية.
- وهى الشرك ، والظلم ، والفواحش.

---

(١) يشير إلى ما رواه البخاري (٢٣٩٧) عن عائشة رضي الله عنها قالت : إن رسول الله ﷺ كان يدعو فى الصلاة ويقول : «اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم ، فقال له قائل: ما أكثر ما تستعيذ يا رسول الله من المغرم؟ قال: إن الرجل إذا غرم حَدَّثَ فكذب، ووعد فأخلف» ، وأخرجه الإمام أحمد (٦/ ٨٩) والبيهقي (٥/٣٥٦) وفي «المعجم» : المغرم : غرم غُرما وغرامة : لزمه شيء ما يجب عليه ، ويقال : غرم الدية والدين ، وفي التجارة : خسر.

فغاية التعلق بغير الله شرك ، وأن يدعى مع الله إله آخر.

وغاية طاعة القوة الغضبية القتل ، وغاية طاعة القوة الشهوانية الزنا.

ولهذا جمع الله سبحانه بين الثلاثة في قوله : ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ﴾ «الفرقان: آيه ٦٨» .

وهذه الثلاثة يدعو بعضها إلى بعض، فالشرك يدعو إلى الظلم والفواحش، كما أن الإخلاص والتوحيد يصرفهما عن صاحبه، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ «يوسف : ٢٤»، فالسوء : العشق ، والفحشاء : الزنا ، وكذلك الظلم يدعو إلى الشرك والفاحشة ، فإن الشرك أظلم الظلم ، كما أن أعدل العدل هو التوحيد ، فالعدل قرين التوحيد ، والظلم قرين الشرك؛ ولهذا يجمع سبحانه بينهما ، أما الأول ففي قوله : ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ «آل عمران : ١٨». وأما الثاني فكقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ «لقمان : ١٣» والفاحشة تدعو إلى الشرك والظلم ، ولا سيما إذا قويت إرادتها ولم تحصل إلا بنوع من الظلم والاستعانة بالسحر والشيطان ، وقد جمع سبحانه بين الزنا والشرك في قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ، وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ «النور : ٣».

فهذه الثلاثة يجر بعضها إلى بعض ، ويأمر بعضها ببعض ، ولهذا كلما كان القلب أضعف توحيدًا وأعظم شركًا كان أكثر فاحشة وأعظم تعلقًا بالصور وعشقًا لها، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ «الشورى : ٣٦ ، ٣٧» فأخبر سبحانه أن ما عنده خير لمن آمن به وتوكل عليه، وهذا هو التوحيد ، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ «الشورى: ٣٧» ، فهذا اجتناب داعي القوة الشهوانية ثم قال: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ «الشورى : ٣٧»، فهذا مخالفة القوة الغضبية ، فجمع بين التوحيد والعفة والعدل التي هي جماع الخير كله.

٢٩/ ٥٥ - اتِّباع الهوى وطول الأمل ، مادة كل فساد ، فإنَّ اتِّباع الهوى يُعمي عن الحق - معرفةً وقصدًا - وطول الأمل يُنسي الآخرة ، ويصدُّ عن الاستعداد لها.

٣٠/ ٥٦ - قال سهل بن عبد الله : ترك الأمر عند الله أعظم من ارتكاب النهي ، لأن آدم نُهي عن أكل الشجرة فأكل منها فَتِيبَ عليه، وإبليس أُمِر أن يسجد لآدم فلم يسجد فلم يُتَبْ عليه.

قلت : هذه مسألة عظيمة لها شأن ، وهي أن ترك الأوامر أعظم عند الله من ارتكاب المناهي ، وذلك من وجوه عديدة:

أحدها : ما ذكره سهل من شأن آدم، وعدو الله إبليس.

٣١/ ٥٧ - الثاني : أن ذنب ارتكاب النهي مصدره في الغالب الشهوة والحاجة ، وذنب ترك الأمر مصدره في الغالب الكبر والعزة ، ولا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ، ويدخلها من مات على التوحيد وإن زنى وسرق.

الثالث : أن فعل المأمور أحب إلى الله من ترك المنهي ، كما دل على ذلك النصوص كقوله ﷺ : «أحب الأعمال إلى الله الصلاة على وقتها»[1]، وقوله: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟، قالوا : بلى يا رسول الله! قال ﷺ :ذكر الله»[2] وقوله ﷺ : «واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة»[3]. وغير ذلك من النصوص.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٢٧) ، ومسلم (الإيمان / ١٣٩-٨٥) ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ : أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال : الصلاة على وقتها ، قلت: ثم أي ؟! قال : بر الوالدين . . . الحديث».

(٢) (صحيح) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٥) ، والترمذي (٣٣٧٧) ، وابن ماجه (٣٧٩٠) ، والنسائي في «الإيمان» وزاد عقبة : قال معاذ بن جبل رضي الله عنه : «ما شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله». ا هـ. ، والحديث صححه الألباني في «صحيح الكلم الطيب» الحديث الأول.

(٢) (صحيح لغيره) جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٢٧٧ - ٢٨٢) ، والحاكم (١/ ١٣٠)، والدارمي (٦٦١) ، وابن ماجه (٢٧٧) ، من حديث ثوبان رضي الله عنه يرفعه بلفظ : «استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»، قال البوصيري في «الزوائد» : هذا حديث رجاله ثقات أثبات إلا أنه منقطع بين سالم وثوبان فإنه لم يسمع منه بلا خلاف ولكن له طريق أخرى متصلة أخرجها أبو داود الطيالسي في «مسنده»، وأبو يعلى الموصلي، والدارمي في «مسنده»، وابن حبان في «صحيحه» ا هـ. والحديث ذكره الألباني في «الإرواء» (٤١٢) وعدد طرقه وصححه بها.

٥٨/٣٢ - (أما) ترك المناهى عمل : فإنه كف النفس عن الفعل ولهذا علق -سبحانه- المحبة بفعل الأوامر ، كقوله : ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ «الصف: ٤» وقال تعالى : ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وقال: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ «الحجرات: ٩»، ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ «آل عمران : ١٤٦».

وأما فى جانب المناهى فأكثر ما جاء (فيه) النفى للمحبة كقوله : ﴿وَاللهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ «البقرة : ٢٠٥» وقوله : ﴿وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ «الحديد : ٢٣». وقوله : ﴿وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ «البقرة: ١٩٠» وقوله : ﴿لا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلا مَن ظُلِمَ﴾ «النساء : ١٤٨» . وقوله ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾ «النساء : ٣٦». ونظائره.. وأخبر فى موضع آخر أنه يكرهها ويسخطها ، كقوله : ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ «الإسراء : ٣٨»، وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ﴾ «محمد : ٢٨».

٥٩/٣٣ - إذا عرف هذا ففعل ما يحبه - سبحانه - مقصود بالذات ، ولهذا يقدر ما يكرهه ويسخطه لإفضائه إلى ما يحب ، كما قدر المعاصي والكفر والفسوق ، لما ترتب على تقديرها مما يحبه من لوزامها : من الجهاد واتخاذ الشهداء ، وحصول التوبة من العبد ، والتضرع إليه والاستكانة ، وإظهار عدله وعفوه وانتقامه وعزه ، وحصول الموالاة والمعاداة لأجله ، وغير ذلك من الآثار التي وجودها بسبب تقديره ما يكره أحب إليه من ارتفاعها بارتفاع أسبابها ، وهو سبحانه لا يقدر ما يحب لإفضائه إلى حصول ما يكرهه ويسخطه ، كما يقدر ما يكرهه لإفضائه إلى ما يحبه ، فعُلِم أن ما يحبه أحب إليه مما يكرهه.

- يوضحه الوجه الرابع : أن فعل المأمور مقصود لذاته، وترك المنهى مقصود لتكميل فعل المأمور فهو منهي عنه لأجل كونه يخل بفعل المأمور أو يضعفه وينقصه ، كما نبه سبحانه على ذلك فى النهي عن الخمر والميسر بكونهما يصدان عن ذكر الله وعن الصلاة، فالمنهيات قواطع وموانع صادة عن فعل المأمورات أو عن كمالها ، فالنهي عنها من باب المقصود لغيره ، والأمر بالواجبات من باب المقصود لنفسه.

٣٤/ ٦٠ - يوضحه الوجه الخامس : أن فعل المأمورات من باب حفظ قوة الإيمان وبقائها ، وترك المنهيات من باب الحمية عما يشوش قوة الإيمان ويخرجها عن الاعتدال.

وحفظ القوة مقدم على الحمية ، فإن القوة كلما قويت دفعت المواد الفاسدة، وإذا ضعفت غلبت المواد الفاسدة ، فالحمية مرادة لغيرها، وهو حفظ القوة وزيادتها وبقاؤها ، ولهذا كلما قويت قوة الإيمان دفعت المواد الرديئة ، ومنعت من غلبتها وكثرتها بحسب القوة وضعفها ، وإذا ضعفت غلبت المواد الفاسدة.

فتأمل هذا الوجه!.

٣٥/ ٦١- الوجه السادس: أن فعل المأمورات حياة القلب وغذاؤه وزينته وسروره وقرة عينه ولذته ونعيمه، وترك المنهيات بدون ذلك لا يحصل له شيئًا من ذلك، فإنه لو ترك جميع المنهيات ولم يأت بالإيمان والأعمال المأمور بها لم ينفعه ذلك الترك شيئًا وكان خالدًا مخلدًا فى النار.

٣٦/ ٦٢ - وهذا يتبين بالوجه السابع : أن من فعل المأمورات والمنهيات فهو إما ناجٍ مطلقًا - إن غلبت حسناته سيئاته - وإمَّا ناجٍ بعد أن يؤخذ منه الحق ويعاقب على سيئاته ؛ فمآله إلى النجاة وذلك بفعل المأمور.

ومن ترك المأمورات والمنهيات فهو هالك غير ناجٍ ، ولا ينجو إلا بفعل المأمور وهو التوحيد.

فإن قيل : فهو إنما هالك بارتكاب المحظور ، وهو الشرك.

قيل : يكفى فى الهلاك ترك نفس التوحيد المأمور به ، وإن لم يأت بضد وجودى من الشرك ، بل متى خلا قلبه من التوحيد رأسًا فلم يوحد الله فهو هالك، وإن لم يعبد معه غيره ، فإذا انضاف إليه عبادة غيره عذب على ترك التوحيد المأمور به ، وفعل الشرك المنهى عنه.

٣٧/ ٦٣ - يوضحه الوجه الثامن : أن المدعو إلى الإيمان إذا قال : لا أصدق ولا أكذب ، ولا أحب ولا أبغض ، ولا أعبده ولا أعبد غيره ، كان كافرًا بمجرد الترك والإعراض بخلاف ما إذا قال : أنا أصدق الرسول وأحبه وأؤمن به وأفعل ما

أمرنى ولكن شهوتى وإرادتى وطبعى حاكمة عليَّ ، لا تدعنى أترك ما نهاني عنه ، وأنا أعلم أنه قد نهانى وكره لى فعل المنهي ، ولكن لا صبر لي عنه!.

فهذا لا يعد كافرًا بذلك ، ولا حكمه حكم الأول ، فإن هذا مطيع من وجه وتارك المأمور جملة لا يعد مطيعًا بوجه.

٣٨/ ٦٤ - يوضحه الوجه التاسع : أن الطاعة والمعصية إنما تتعلق بالأمر أصلا وبالنهي تبعًا، فالمطيع ممتثل المأمور ، والعاصى تارك المأمور، قال تعالى : ﴿لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ «التحريم : ٦» ، وقال موسى لأخيه: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ «طه: ٩٢، ٩٣». وقال عمرو بن العاص عند موته : «أنا الذى أمرتنى فعصيت، ولكن لا إله إلا أنت» ، وقال الشاعر : أمرتك أمرًا جازمًا فعصيتني.

والمقصود من إرسال الرسل : طاعة المُرسِل ، ولا تحصل إلا بامتثال أوامره، واجتناب المناهي من تمام امتثال الأوامر ولوازمه ، ولهذا لو اجتنب المناهي ولم يفعل ما أمر به لم يكن مطيعًا وكان عاصيًا ، بخلاف ما لو أتى بالمأمورات وارتكب المناهي فإنه وإن عد عاصيًا مذنبًا فإنه مطيع بامتثال الأمر، عاصٍ بارتكاب النهى ، بخلاف تارك الأمر فإنه لا يعد مطيعًا باجتناب المنهيات خاصة.

٣٩/ ٦٥ - الوجه العاشر : إن امتثال الأمر عبودية وتقرب وخدمة ، وتلك العبادة التى خلق لأجلها الخلق ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ «الذاريات : ٥٦» ، فأخبر سبحانه أنه إنما خلقهم للعبادة ، وكذلك إنما أَرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه ليعبدوه فالعبادة هي الغاية التى خُلِقُوا لها ، ولم يخلقوا لمجرد الترك، فإنه أمر عدمي لا كمال فيه من حيث هو عدم ، بخلاف امتثال المأمور فإنه أمرٌ وجودي مطلوب الحصول.

٤٠/ ٦٦ - وهذا يتبين بالوجه الحادي عشر : وهو أن المطلوب بالنهي: عدم الفعل ، وهو أمر عدمي ، والمطلوب بالأمر : إيجاد فعل وهو أمر وجودى ، فمتعلق الأمر الإيجاد، ومتعلق النهي الإعدام أو العدم ، وهو أمر لا كمال فيه إلا

إذا تضمن أمرًا وجوديًا ، فإن العدم من حيث هو عدم لا كمال فيه ولا مصلحة إلا إذا تضمن أمرًا وجوديًا مطلقًا ، وذلك الأمر الوجودي مطلوب مأمور به فعادت حقيقة النهي إلى الأمر، وأن المطلوب به ما فى ضمن النهي من الأمر الوجودي المطلوب به.

٤١/ ٦٧ - وهذا يتضح بالوجه الثانى عشر : وهو أن الناس اختلفوا فى المطلوب بالنهي على أقوال :

أحدها : أن المطلوب به كف النفس عن الفعل وحبسها عنه وهو أمر وجودي.

قالوا : لأن التكليف إنما يتعلق بالمقدور ، والعدم المحض غير مقدور، وهذا قول الجمهور ، وقال أبو هاشم وغيره : بل المطلوب عدم الفعل ، ولهذا يحصل المقصود من بقائه على العدم ، وإن لم يخطر بباله الفعل، فضلا أن يقصد الكف عنه ، ولو كان المطلوب الكف لكان عاصيًا إذا لم يأت به ، ولأن الناس يمدحون بعدم فعل القبيح من لم يخطر بباله فعله والكف عنه ، وهذا أحد قولي القاضي أبي بكر ، ولأجله التزم أن عدم الفعل مقدور للعبد وداخل تحت الكسب .

قال : والمقصود بالنهي : الإبقاء على العدم الأصلي وهو مقدور.

وقالت طائفة : المطلوب بالنهي فعل الضد ، فإنه هو المقدور وهو المقصود للناهي ، فإنه إنما نهاه عن الفاحشة طلبًا للعفة وهي المأمور بها، ونهاه عن الظلم طلبًا للعدل المأمور به، وعن الكذب طلبًا للصدق المأمور به، . . . وهكذا جميع المنهيات ، فعند هؤلاء إن حقيقة النهي الطلب لضد المنهي عنه ، فعاد الأمر إلى أن الطلب إنما تعلق بفعل المأمور.

والتحقيق : أن المطلوب نوعان : مطلوب لنفسه وهو المأمور به ، ومطلوب إعدامه لمضادته المأمور به ، وهو المنهي عنه لما فيه من المفسدة المضادة للمأمور به ، فإذا لم يخطر ببال المكلف ولا دعته نفسه إليه ، بل استمر على العدم الأصلي لم يثب على تركه، وإن خطر بباله، وكف نفسه عنه لله وتركه اختيارًا أثيب على كف نفسه وامتناعه ، فإنه فعل وجودي ، والثواب إنما يقع على الأمر الوجودي دون العدم المحض ، وإن تركه مع عزمه الجازم على فعله، لكن تركه عجزًا ، فهذا وإن

لم يعاقب عقوبة الفاعل لكن يعاقب على عزمه وإرادته الجازمة التي إنما تخلف مرادها عجزاً.

- وقد دلت على ذلك النصوص الكثيرة ، فلا يُلتفت إلى ما خالفها.

ومن تلك النصوص قوله تعالى : ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِى أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ «البقرة: ٢٨٤» وقوله - عز وجل -: فى كاتم الشهادة : ﴿فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ «البقرة : ٢٨٣» ، وقوله - سبحانه - : ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ «البقرة : ٢٢٥»، وقوله تعالى : ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ «الطارق : ٩» ، وقوله ﷺ : «إذا تواجه المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار، قالوا : هذا القاتل، فما بال المقتول؟! قال : إنه أراد قتل صاحبه»[1]، وقوله ﷺ فى الحديث الآخر : «ورجل قال لو أن لى مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته وهما فى الوزر سواء»[2].

- وقول من قال : إن المطلوب بالنهى فعل الضد ، ليس كذلك ، فإن المقصود عدم الفعل ، والتلبس بالضدين ، فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو غير مقصود بالقصد الأول ، وإن كان المقصود بالقصد الأول المأمور الذى نهى عما يمنعه ويضعفه.

---

(١) أخرجه البخاري فى «صحيحه» (٧٠٨٣) ، ومسلم (كتاب الفتن/ ١٤)، وأبو داود (٤٢٦٨) وغيرهم من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) (صحيح) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٣٠، ٢٣١) ، والترمذى (٢٣٢٦) ، وابن ماجه (٤٢٢٨) عن أبي كبشة الأنماري قال : قال رسول الله ﷺ : «مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر : رجلٌ آتاه الله مالا وعلمًا فهو يعمل بعلمه فى ماله ينفقه فى حقه، ورجل آتاه الله علمًا ولم يؤته مالا فهو يقول: لو كان لى مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل ، قال رسول الله ﷺ : فهما فى الأجر سواء، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علمًا فهو يخبط فى ماله ينفقه فى غير حقه، ورجل لم يؤته الله علمًا ولا مالا. فهو يقول: لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل. قال رسول الله ﷺ فهما فى الوزر سواء» قال الترمذي: حسن صحيح ا هـ. وصححه الألباني.

فالمنهى عنه : مطلوب إعدامه طلب الوسائل والذرائع.

والمأمور به : مطلوب إيجاده طلب المقاصد والغايات.

- وقول أبى هاشم : إن تارك القبائح يُحمد وإن لم يخطُر بباله كف النفس.

فإن أراد بحمده أنه لا يذم، فصحيح ، وإن أراد أن يثنى عليه بذلك ، ويحب عليه ، ويستحق الثواب ، فغير صحيح : فإن الناس لا يحمدون المجبوب على ترك الزنا ، ولا الأخرس على عدم الغيبة والسب، وإنما يحمدون القادر الممتنع عن قدرة وداع إلى الفعل.

- وقول القاضى : الإبقاء على العدم الأصلي مقدور:

فإن أراد به كف النفس ومنعها فصحيح ، وإن أراد مجرد العدم فليس كذلك.

٦٨/٤٢ - وهذا يتبين بالوجه الثالث عشر : وهو أن الأمر بالشيء نهيٌ عن ضده من طريق اللزوم العقلي ، لا القصد الطلبى ، فإن الأمر إنما مقصوده فعل المأمور، فإذا كان من لوازمه ترك الضد صار تركه مقصوداً لغيره ، وهذا هو الصواب في مسألة الأمر بالشيء هل هو نهى عن ضده أم لا ؟!

فهو نهيٌ عنه من جهة اللزوم لا من جهة القصد والطلب ، وكذلك النهيُ عن الشيء ، مقصود الناهى بالقصد الأول الانتهاء عن المنهي عنه ، وكونه مشتغلا بضده جاء من جهة اللزوم العقلى لكن إنما نهى عما يضاد ما أمر به كما تقدم ، فكأن المأمور به هو المقصود بالقصد الأول فى الموضعين.

وحرف المسألة: أن طلب الشيء طلب له بالذات ولما هو من ضرورته باللزوم، والنهى عن الشيء طلب لتركه بالذات، ولفعل ما هو من ضرورة الترك باللزوم، والمطلوب فى الموضعين فعل وكف، وكلاهما أمر وجودي

٦٩/٤٣ - الوجه الرابع عشر : أن الأمر والنهي فى باب الطلب نظير النفي والإثبات فى باب الخبر، والمدح والثناء لا يحصلان بالنفي المحض إن لم يتضمن ثبوتًا ، فإن النفي كاسمه عدم لا كمال فيه ولا مدح ، فإذا تضمن ثبوتًا صح المدح به كنفي النسيان المستلزم لكمال العلم وبيانه ، ونفي اللغوب والإعياء والتعب المستلزم لكمال القوة والقدرة ، ونفى السِنَةُ والنوم المستلزم لكمال الحياة والقيومية ،

ونفي الولد والصاحبة المستلزم لكمال الغنى والمُلك والربوبية ، ونفي الشريك والولي والشفيع بدون الإذن المستلزم لكمال التوحيد والتفرد بالكمال والإلهية والمُلك ، ونفي الظلم المتضمن لكمال العدل ، ونفي إدراك الأبصار له المتضمن لعظمته، وأنه أجل من أن يدرك وإن رأته الأبصار، وإلا فليس فى كونه لا يرى مدح بوجه من الوجوه ، فإن العدم المحض كذلك.

وإذا عرف هذا فالمنهي عنه إن لم يتضمن أمرًا وجوديًا ثبوتيّا لم يمدح بتركه ، ولم يستحق الثواب والثناء بمجرد الترك ، كما لا يستحق المدح والثناء بمجرد الوصف العدمي.

٧٠/٤٤ - الوجه الخامس عشر : أن الله سبحانه جعل جزاء المأمورات عشرة أمثال فعلها ، وجزاء المنهيات مثل واحد ، وهذا يدل على أن فعل ما أمر به أحب إليه من ترك ما نهي عنه، ولو كان الأمر بالعكس لكانت السيئة بعشرة والحسنة بواحدة أو تساويا.

٧١/٤٥ - الوجه السادس عشر : أن المنهي عنه مقصود إعدامه ، وأن لا يدخل فى الوجود ، سواء نوى ذلك أو لم ينوه ، وسواء خطر بباله أو لم يخطر ، فالمقصود أن لا يكون ، وأما المأمور به فالمقصود كونه وإيجاده والتقرب به نية وفعلا.

وسر المسألة : أن وجود ما طلب إيجاده أحب إليه من عدم ما طلب إعدامه، وعدم ما أحبه أكره إليه من وجود ما يبغضه، فمحبته لفعل ما أمر به أعظم من كراهته لفعل ما نهى عنه.

٧٢/٤٦ - يوضحه الوجه السابع عشر: أن فعل ما يحبه والإعانة عليه وجزاءه ، وما يترتب عليه من المدح والثناء من رحمته ، وفعل ما يكرهه وجزاءه ، وما يترتب عليه من الذم والألم والعقاب من غضبه ، ورحمته سابقة على غضبه غالبة له[1]،

---

(١) أخرج البخاري (٣١٩٤) وفى عدة مواطن أخرى من «صحيحه» عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي غلبت غضبي» ، وأخرجه مسلم فى «التوبة» ، والترمذي (٣٥٤٣)، والإمام أحمد (٢/ ٢٤٢ - ٢٥٨ - ٢٦٠) وغيرهم.

وكل ما كان من صفة الرحمة فهو غالب لما كان من صفة الغضب، فإنه سبحانه لا يكون إلا رحيمًا، ورحمته من لوازم ذاته كعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره وإحسانه ، فيستحيل أن يكون على خلاف ذلك ، وليس كذلك غضبه فإنه ليس من لوازم ذاته ولا يكون غضبان دائمًا لا يتصور انفكاكه ، بل يقول رسله وأعلم الخلق به يوم القيامة : «إن ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله»[1]. ورحمته وسعت كل شيء ، وغضبه لم يسع كل شيء، وهو سبحانه كتب على نفسه الرحمة ولم يكتب على نفسه الغضب، ووسع كل شيء رحمة وعلمًا ، ولم يسع كل شيئ غضبًا وانتقامًا.

فالرحمة وما كان بها ولوازمها وآثارها غالبة على الغضب ، وما كان منه وآثاره، فوجود ما كان بالرحمة أحب إليه من وجود ما كان من لوازم الغضب، ولهذا كانت الرحمة أحب إليه من العذاب ، والعفو أحب إليه من الانتقام، فوجود محبوبه أحب إليه من فوات مكروهه، ولا سيما إذا كان فى فوات مكروهه فوات ما يحبه من لوازمه ، فإنه يكره فوات تلك اللوازم المحبوبة كما يكره وجود ذلك الملزوم المكروه.

٤٧/ ٧٣ - الوجه الثامن عشر : أن آثار ما يكرهه وهو المنهيات ، أسرع زوالا بما يحبه من زوال آثار ما يحبه بما يكرهه ، فآثار كراهته سريعة الزوال وقد يزيلها سبحانه بالعفو والتجاوز ، وتزول بالتوبة والاستغفار والأعمال الصالحة والمصائب المكفرة والشفاعة ، والحسنات يذهبن السيئات ، لو بلغت ذنوب العبد عنان السماء ثم استغفره غفر له، ولو لقيه بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيه لا يشرك به شيئًا لأتاه بقرابها مغفرة ، وهو سبحانه يغفر الذنوب وإن تعاظمت ولا يبالي ، فيبطلها ويبطل آثارها بأدنى سعى من العبد ، وتوبة نصوح وندم على ما فعل ، وما ذاك إلا لوجود ما يحبه من توبة العبد وطاعته وتوحيده ، فدل على أن وجود ذلك أحب إليه وأرضى له.

---

(١) جزء من حديث الشفاعة الطويل أخرجه البخارى فى «صحيحه» (٣٣٤٠ - ٣٣٦١ - ٤٧١٢)، ومسلم (٣٢٣ - ٣٢٦ - ٣٢٧) ، والإمام أحمد (٢/ ٤٢٥، ٣/ ١١٦ - ٢٤٤ - ٢٤٧)، وغيرهم من حديث أبي هريرة ﷺ يرفعه.

٤٨/ ٧٤ - يوضحه الوجه التاسع عشر : وهو أنه سبحانه قدَّر ما يبغضه ويكرهه من المنهيات لما يترتب عليها مما يحبه ويفرح به من المأمورات ، فإنه سبحانه أفرح بتوبة عبده من الفاقد الواجد، والعقيم الوالد ، والظمآن الوارد. وقد ضرب رسول الله ﷺ لفرحه سبحانه بتوبة العبد مثلا ليس فى المفروح به أبلغ منه[1]، وهذا الفرح العظيم الذى وجوده أحب إليه من فواته ، ووجوده بدون لازمه ممتنع ، فدل على أن وجود ما يحب أحب إليه من فوات كل فرد مما يكره، حتى تكون ركعتا الضُحى أحب إليه من فوات قتل المسلم ، وإنما المراد أن جنس فعل المأمورات أفضل من جنس ترك المحظورات كما إذا فضل الذَّكَر على الأنثى، والإنسي على المَلك، فالمراد الجنس لا عموم الأعيان.

والمقصود : أن هذا الفرح الذى لا فرح يشبهه بفعل مأمور التوبة يدل على أن هذا المأمور أحب إليه من فوات المحظور الذى تفوت به التوبة وأثرها ومقتضاها.

فإن قيل : إنما فرح بالتوبة؛ لأنها ترك للمنهي فكان الفرح بالترك!

قيل : ليس كذلك ، فإن الترك المحض لا يوجب هذا الفرح بل ولا الثواب ولا المدح، وليست التوبة تركًا ، وإن كان الترك من لوازمها، وإنما هي فعل وجودي يتضمن إقبال التائب على ربه وإنابته إليه والتزام طاعته، ومن لوازم ذلك : ترك ما نهى عنه ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ﴾ «هود : ٣».

فالتوبة : رجوع مما يكره إلى ما يحب ، وليست مجرد الترك، فإن من ترك الذنب تركًا مجردًا ولم يرجع منه إلى ما يحبه الرب تعالى لم يكن تائبًا، فالتوبة رجوع وإقبال وإنابة ، لا ترك محض.

---

(١) يشير إلى ما أخرجه البخارى (٦٣٠٨)، ومسلم فى «التوبة» باب : فى الحض على التوبة والفرح بها، عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن من رجل فى أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فنام فاستيقظ وقد ذهبت؛ فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحًا بالعبد المؤمن من هذا براحلته وزاده» ، أخرجه أيضًا الترمذي (٢٤٩٧) وغيرهم.

٤٩/ ٧٥ - الوجه العشرون : أن المأمور به إذا فات فاتت الحياة المطلوبة للعبد ، وهي التي قال تعالى فيها : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ «الأنفال : ٢٤» وقال تعالى : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ «الأنعام : ١٢٢»، وقال في حق الكفار : ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ «النحل : ٢١» ، وقال تعالى : ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ «النمل : ٨٠».

وأما المنهي عنه فإذا وجد فغايته أن يوجد المرض ، وحياة مع السقم خير من موت.

فإن قيل : ومن المنهى عنه ما يوجب الهلاك - وهو الشرك!

قيل : الهلاك إنما حصل بعدم التوحيد المأمور به، الذي به الحياة، فلما فقد حصل الهلاك ، فما هلك إلا من عدم إتيانه بالمأمور به.

٥٠/ ٧٦ - وهذا وجه حاد وعشرون في المسألة : وهو أن في المأمورات ما يوجب فواته الهلاك والشقاء الدائم، وليس في المنهيات ما يقتضي ذلك،

٥١/ ٧٧ - الوجه الثاني والعشرون : أن فعل المأمور يقتضي ترك المنهي عنه - إذا فُعِلَ على وجهه من الإخلاص والمتابعة ، والنصح لله فيه - قال تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ «العنكبوت : ٤٥». ومجرد ترك المنهي لا يقتضي فعل المأمور ولا يستلزمه.

٥٢/ ٧٨ - الوجه الثالث والعشرون : إن ما يحبه (الله سبحانه) من المأمورات فهو متعلق بصفاته، وما يكرهه من المنهيات فمتعلق بمفعولاته، وهذا وجه دقيق يحتاج إلى بيان:

فنقول : المنهيات شرورٌ ، وتُفضي إلى شرور ، والمأمورات خيرٌ ، وتُفضي إلى الخيرات ، والخير بيديه سبحانه ، والشر ليس إليه، فإن الشر لا يدخل في صفاته ولا في أفعاله ولا في أسمائه، وإنما هو في المفعولات مع أنه شر بالإضافة والنسبة

إلى العبد ، وإلا من حيث إضافته ونسبته إلـى الخالق سبحانه، فليس بشر من هذه الجهة.

فغاية ارتكاب المنهي أن يوجب شراً ، بالإضافة إلى العبد مع أنه في نفسه ليس بِشَرٍّ، وأمَّا فوات المأمور فيفوت به الخير الذى بـفواته يحصل ضده من الشر، وكلما كان المأمـور أحب إلى الله سبـحانه كان الـشر الحاصل بـفواته أعظـم، كالتوحـيد والإيمان.

وسرُّ هـذه الوجـوه : أن المأمور مـحبوبه سـبحانه، والمـنهي مكـروهه ، ووقوع محبوبه أحب إليه من فوات مكروهه، وفوات محبوبه أكره إليه من وقوع مكروهه، والله أعلم.

٥٣/ ٧٩ -

مآربٌ كانـت فى الشباب لأهـلها   عِذابًا فـصارت فى المشيـب عَذابًا

٥٤/ ٨٠ - تزخـرفت الشهـوات لأعين الـطباع ، فغـض عنهـا الذين يؤمـنون بالغيب، ووقع تابعوها فى بيداء الحسرات، فـ﴿**أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ «البقرة : ٥» ، و «لقمـان: ٥» وهؤلاء يقال لهم : ﴿**كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ**﴾ «المرسلات : ٤٦».

٥٥/ ٨١ - شراب الهوى حلو ، ولكنه يورث الشرق.

٥٦/ ٨٢ - من تذكر خنق الفخ هان عليه هجران الحبة.

٥٧/ ٨٣ - الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة:

فإنها إمَّا أن توجب ألـمًا وعقوبةً.

وإمَّا أن تقطع لذة أكمل منها.

وإمَّا أن تضيع وقتًا إضاعته حسرة وندامة.

وإمَّا أن تثلم عرضًا توفيره أنفع للعبد من ثلمه.

وإمَّا أن تُذهِب مالا بقاؤه خيرٌ له من ذهابه.

وإمَّا أن تضع قدرًا وجاهًا قيامه خيرٌ من وضعه.

وإمَّا أن تسلب نعمة بقاؤها ألذ وأطيب من قضاء الشهوة.

وإمَّا أن تطرق لوضيع إليك طريقًا لم يكن يجدها قبل ذلك.

وإمَّا أن تجلب همًا وغمًا وحزنًا وخوفًا لا يقارب لذة الشهوة.

وإمّا أن تُنسي علمًا ذِكرُه ألذّ مِن نيل الشهوة.

وإمَّا أن تشمت عدواً ، وتحزن وليًا.

وإمَّا أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة.

وإمَّا أن تحدث عيبًا يبقى صفة لا تزول ، فإن الأعمال تورث الصفات والأخلاق.

٥٨/ ٨٤ - يا معرقلا فى شَرَكِ[1] الهوى جمزة عزم[2] وقد خرقت الشبكة ، لابد من نفوذ القدر فاجنح للسلم.

وانظر الفقرات والفوائد برقم :

(٨٨ - ٩٤ - ١٠٣ - ٢٥٩ - ٢٦٠ - ٢٦٤ - ٢٧٨ - ٢٧٩ - ٣٥٢ - ٣٨٨ - ٣٩٠ - ٤٠٤ - ٤٠٥ - ٤٠٦ - ٤٠٧ - ٤٤٢ - ٤٨٥ - ٤٨٦ - ٤٩٣ - ٥٠٠ - ٥٠١ - ٥٠٦ - ٥٠٨ - ٥٣٠ - ٥٥٤ - ٥٥٨ - ٥٦٣ - ٦٠٤ - ٦٠٥ - ٦٤٣ - ٦٥٨).

---

(١) الشَّرَك : حبال شبكة الصياد.

(٢) الجمز : ضرب من السير أشد من العنق ، (مختار الصحاح).

الفصل الثالث
الغفلــة والتســـويف

١/ ٨٥ - لابد من سَنة الغـفلة ورقاد النوم ، ولكن كن خفـيف النوم ، فحراس البلد يصيحون : دنا الصباح.

٢/ ٨٦ - الحرب قائمة وأنت أعزل فى النظارة[١]، فإن حركت ركابك فللهزيمة.

٣/ ٨٧ - يا من انحرف عن جادتهم[٢]، كن فى أواخر الركب ونم إذا نمت على الطريق ، فالأمير يراعي الساقة[٣].

٤/ ٨٨ - يا مغرورًا بالأماني :

- لُعن إبليس وأُهبط من منزل العز بترك سجدة واحدة أمر بها.
- وأخرج آدم من الجنة بلقمة تناولها.
- وحجب القاتل عنها بعد أن رآها عِيانًا بملء كف من دم[٤].
- وأمر بقتل الزاني أشنع القتلات بإيلاج قدر الأنملة فيما لا يحل.
- وأمر بإيساع الظهر سياطًا بكلمة قذف أو بقطرة من مسكر.
- وأبان عضواً من أعضائك بثلاثة دراهم.

فلا تأمنه أن يحبسك فى النار بمعصية واحدة من معاصيه : ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ «الشمس : ١٥».

---

(١) النظّارة : مشددًا - القوم ينظرون إلى شيء (مختار الصحاح).

(٢) الجادة : يقـال جاد بماله فهو جواد وبنفسه عند الموت جودًا : قدمها غير عابئ بالموت.

(٣) الساقة : مؤخرة الجيش.

(٤) يقصد بالقاتل هنا : قابيل.

- دخلت امرأة النار فِي هرة[١].

- وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالا يَهْوِي بها فى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب[٢].

- وإن الرجل ليعمل بطاعة الله ستين سنة فإذا كان عند الموت جار فى الوصية، فيختم له بسوء عمله فيدخل النار[٣].

- العمر بآخره والعمل بخاتمته.

- من أحدث قبل السلام بَطَلَ ما مضى من صلاته.

- ومن أفطر قبل غروب الشمس ذهب صيامه ضائعًا.

- ومن أساء فى آخر عمره لقى ربه بذلك الوجه.

٥/ ٨٩ - كم جاء الثواب يسعى إليك فوقف بالباب، فرده بواب «سوف، ولعل، وعسى».

---

(١) هذا نص حديث آخرجه البخاري فى «صحيحه» (٢٣٦٥ - ٣٣١٨) عن ابن عمر رضي الله عنهما يرفعه بلفظ: «دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض»، وأخرجه مسلم كتاب: «البر والصلة» حديث رقم (١٣٥)، وفى «التوبة» حديث رقم (٢٥)، وأخرجه الإمام أحمد فى «المسند» (٢/ ٢٦١ - ٢٦٩ - ٤٥٧ - ٤٦٧ - ٥٠١) وغيرهم.

(٢) أخرج البخاري فى «صحيحه» (٦٤٧٨) عن أبى هريرة يرفعه: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها فى جهنم»، وأخرجه مسلم فى (الزهد/ ٤٩ - ٥٠)، والإمام أحمد (٢/ ٣٣٤) وغيرهم.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٨٦٧)، والترمذي (٢١١٧)، وابن ماجه (٢٧٠٤)، والبيهقي (٦/ ٢٧١) بألفاظ متقاربة، قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب. اهـ، وفي إسناده شهر بن حوشب والحديث ذكره المنذري فى «الترغيب» (٤/ ٣٢٧)، وضعفه الألبانى فى «ضعيف السنن» و «ضعيف الجامع» (١٤٥٧ - ١٤٥٨).

٦/ ٩٠ - كيف الفلاح بين إيمان نـاقص ، وأمل زائد ، ومرض لا طيب له ولا عائد، وهوًى مستيقظ ، وعقل راقد ، ساهمًا فى غمرته، عمها فى سكرته، سابحًا فى لجة جهله مستوحشًا من ربه، مستأنـسًا بخلقه، ذكر الناس فاكهته وقوته ، وذكر الله حبسه وموته ، لله منه جزء يسير من ظاهره، وقلبه ويقينه لغيره.

لا كـان من لـسـواك فيـه بـقيـة   يجـد السـبيـل بهـا إليـه العـدل

٧/ ٩١ - خراب القلب من الأمن والغفلة ، وعمارته من الخشية والذكر.

٨/ ٩٢ - إياك والغفلة عمن جعل لحياتك أجلا ، ولأيامك وأنفاسك أمدًا، ومن كل ما سواه بد ولابد لك منه.

٩/ ٩٣ - عشرة أشياء ضائعة لا ينتفع بها :

(١) علم لا يعمل به.

(٢) وعمل لا إخلاص فيه ولا اقتداء.

(٣) ومال لا ينفق منه، فـلا يستمتع به جامعه فى الدنيـا ، ولا يقدمه أمامه إلى الآخرة.

(٤) وقلب فارغ من محبة الله ، والشوق إليه ، والأنس به.

(٥) وبدن معطل من طاعته وخدمته سبحانه.

(٦) ومحبة لا تتقيد برضاء المحبوب وامتثال أوامره.

(٧) ووقت معطل عن استدراك فارط ، أو اغتنام بر وقربة.

(٨) وفكر يجول فيما لا ينفع.

(٩) وخدمة من لا تقربك خدمته إلى الله ، ولا تعود عليك بصلاح دنياك.

(١٠) وخوفك ورجاؤك لمن ناصيته بيد الله ، وهو أسـير فى قبضته سبحانه ولا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

وأعظم هذه الإضاعات : إضاعتان ، هما أصل كل إضاعة:

- إضاعة القلب.

- وإضاعة الوقت.

فإضاعة القلب من إيثار الدنيا على الآخرة ، وإضاعة الوقت من طول الأمل.

فاجتمع الفساد كله في : اتباع الهوى وطول الأمل.

- والصلاح كله فى اتباع الهدى والاستعداد للقاء ، والله المستعان.

١٠/ ٩٤ - كيف يكون عاقلا من باع الجنة بما فيها بشهوة ساعة.

وانظر الفقرات والفوائد برقم :

(٢٨ - ٥٥ - ١٢١ - ١٤٥ - ٣٩٢ - ٤١٨ - ٤٢٠ - ٤٨١ - ٤٨٥ - ٤٩٠ - ٤٩٥ - ٥٣٠ - ٥٦٤ - ٦٠٥ - ٦٠٦ - ٦١٠ - ٦٣١ - ٦٤٤ - ٦٤٥ - ٦٦٠).



الفصل الرابع
اليقظة وترك الذنوب

١/ ٩٥ - لما عرف الموفقون قدر الحياة الدنيا ، وقلة المقام فيها ، أماتوا الهوى طلبًا لحياة الأبد ، ولما استيقظوا من نوم الغفلة استرجعوا بالجد ما انتهبه العدو منهم فى زمن البطالة ، فلما طالت عليهم الطريق تلمحوا المقصد فقرب عليهم البعيد ، وكلما أمرت لهم الحياة، حلى لهم تذكر : ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ «الأنبياء : ١٠٣».

٢/ ٩٦ - لما رأى المتيقظون سطوة الدنيا بأهلها، وخداع الأمل لأربابه، وتملك الشيطان ، وقيادة النفوس ، ورأوا الدولة للنفس الأمَّارة : لجئوا إلى حصن التضرع والالتجاء كما يأوي العبد المذعور إلى حرم سيده.

٣/ ٩٧ - تالله ما كانت الأيام إلا منامًا ، فاستيقظوا وقد حصلوا على الظفر.

٤/ ٩٨ - ما مضى من الدنيا أحلام ، وما بقي منها أماني، والوقت ضائع بينهما.

٥/ ٩٩ - إذا جن الليل ؛ تغالب النوم والسهر ، فالخوف والشوق فى مقدم عسكر اليقظة ، والكسل والتواني فى كتيبة الغفلة ، فإذا حمل العزم حمل على الميمنة ، وانهزمت جنود التفريط ، فما يطلع الفجر إلا وقد قُسمت السهمان ، وبردت الغنيمة لأهلها.

٦/ ١٠٠ - يا من هو من أرباب الخبرة ، هل عرفت قيمة نفسك ؟!.. إنما خلقت الأكوان كلها لك.

٧/ ١٠١ - يا من غُذي بلبان البر ، وقلب بأيدى الألطاف، كل الأشياء شجرة وأنت الثمرة، وصورة وأنت المعنى، وَصَدَفٌ وأنت الدُّر ، ومخيض وأنت الزبد.

٨/ ١٠٢ - من لاح له حال الآخرة ، هان عليه فراق الدنيا.

٩/ ١٠٣ - سبحان الله رب العالمين ، لو لم يكن فى ترك الذنوب والمعاصي إلا إقامة المروءة ، وصون العرض ، وحفظ الجاه ، وصيانة المال الذي جعله الله قوامًا لمصالح الدنيا والآخرة ، ومحبة الخلق ، وجواز القول بينهم ، وصلاح المعاش، وراحة البدن ، وقوة القلب، وطيب النفس ، ونعيم القلب ، وانشراح الصدر ، والأمن من مخاوف الفساق والفجار ، وقلة الهم والغم والحزن ، وعز النفس عن احتمال الذل ، وصون نور القلب أن تطفئه ظلمة المعصية ، وحصول المخرج له مما ضاق على الفساق والفجار، وتيسير الرزق عليه من حيث لا يحتسب ، وتيسير ما عسر على أرباب الفسوق والمعاصي ، وتسهيل الطاعات عليه ، وتيسير العلم، والثناء الحسن من الناس وكثرة الدعاء له ، والحلاوة التي يكتسبها وجهه ، والمهابة التى تلقى له فى قلوب الناس ، وانتصارهم وحميتهم له إذا أوذي وظلم ، وذبهم عن عرضه إذا اغتابه مغتاب ، وسرعة إجابة دعائه ، وزوال الوحشة التي بينه وبين الله ، وقرب الملائكة منه ، وبعد شياطين الإنس والجن منه ، وتنافس الناس على خدمته وقضاء حوائجه ، وخطبتهم لمودته وصحبته ، وعدم خوفه من الموت ، بل يفرح به لقدومه على ربه ولقائه له ومصيره إليه، وصغر الدنيا فى قلبه ، وكبر الآخرة عنده، وحرصه على الملك الكبير ، والفوز العظيم فيها ، وذوق حلاوة الطاعة ، ووجد حلاوة الإيمان ، ودعاء حملة العرش ومن حوله من الملائكة له ، وفرح الكاتبين به ودعاؤهم له كل وقت ، والزيادة فى عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وحصول محبة الله له وإقباله عليه ، وفرحه سبحانه بتوبته ، وهكذا يجازيه بفرح وسرور لا نسبة له إلى فرحه وسروره بالمعصية بوجه من الوجوه.

فهذه بعض آثار ترك المعاصي فى الدنيا ، فإذا مات تلقته الملائكة بالبشرى من ربه بالجنة ، وبأنه لا خوف عليه ولا حزن ، وينتقل من سجن الدنيا وضيقها إلى روضة من رياض الجنة ينعم فيها إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة كان الناس فى الحر والعرق ، وهو فى ظل العرش، فإذا انصرفوا من بين يدي الله أخذ به ذات اليمين مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين.

و ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ «الجمعة : ٤» ، و«الحديد : ٢١».

١٠/ ١٠٤ - إذا لاح للباشق[1] الصيد ، نسي مألوف الكف.

وانظر الفقرات والفوائد برقم :

(١١٩ - ١٢١ - ١٦٥ - ٥١٣ - ٥٢١ - ٥٢٢ - ٥٣٠ - ٥٣٨ - ٥٨٠ - ٦٠٤ - ٦٤٣).



(١) الباشق : نوع من جنس الباري ، من فصيلة العقاب النَسْرية ، وهو من الجوارح ، يشبه الصقر ويتميز بجسم طويل ومنقار قصير بادي التقوس.

الفصل الخامس
تجديد التوبة

١/١٠٥ - ارجع إلى الله ، واطلبه من عينك ، وسمعك ، وقلبك ، ولسانك، ولا تشرد عنه من هذه الأربعة ، فما رجع من رجع إليه بتوفيقه إلا منها ، وما شرد من شرد عنه بخذلانه إلا منها ، فالموفق يسمع ويبصر ويتكلم ويبطش بمولاه ، والمخذول يصدر ذلك عنه بنفسه وهواه.

٢/١٠٦ - فرح إبليس بنزول آدم من الجنة ، وما علم أن هبوط الغائص فى اللجة خلف الدُّرِّ صعود.

٣/١٠٧ - كم بين قوله (سبحانه) لآدم : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ «البقرة : ٣٠» ، وقوله لك[1]: ﴿اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ «الإسراء : ٦٣».

ما جرى على آدم هو المراد من وجوده : «لو لم تذنبوا...»[2].

٤/١٠٨ - ما أخذ العبد ما حُرِّم عليه إلا من جهتين :

إحداهما : سوء ظنه بربه وأنه لو أطاعه وآثره لم يعطه خيراً منه حلالاً.

والثانية : أن يكون عالـمًا بذلك ، وأن من ترك لله شيئًا أعاضه خيراً منه. ولكن تغلب شهوته صبره ، وهواه عقله.

فالأول من ضعف علمه ، والثاني من ضعف عقله وبصيرته.

---

(١) أي : لإبليس.

(٢) أخرج مسلم في «صحيحه» (٢٧٤٩) عن أبي هريرة يرفعه بلفظ : «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم» ، وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٢/٣٠٩).

٥/١٠٩ - قال يحيى بن معاذ : «من جمع الله عليه قلبه فى الدعاء لم يرده». قلت : إذا اجتمع عليه قلبه ، وصدقت ضرورته وفاقته ، وقوى رجاؤه : فلا يكاد يُرد دعاؤه.

٦/ ١١٠ - من سبقت له سابقة السعادة دُل على الدليل قبل الطلب[1].

٧/١١١ - لا تسأم من الوقوف على الباب ولو طردت ، ولا تقطع الاعتذار ولو رددت ، فإن فُتح الباب للمقبولين دونك فاهجم هجوم الكذابين ، وادخل دخول الطفيلية ، وابسط كف : ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ « يوسف : ٨٨ ».

٨/١١٢ - العبد لا يريد بمعصيته مخالفة سيده ، ولا الجرأة على محارمه ، ولكن غلبات الطبع وتزيين النفس والشيطان ، وقهر الْقُوَى ، والثقة بالعفو ، ورجاء المغفرة ، هذا من جانب العبد.

وأما من جانب الربوبية : فجريان الحكم ، وإظهار عز الربوبية ، وذل العبودية ، وكمال الاحتياج ، وظهور آثار الأسماء الحسنى : كالعَفُوّ والغفور ، والتواب والحليم : لمن جاء تائبًا نادمًا ، والمنتقم والعدل وذى البطش الشديد : لمن أصرّ ولزم المجرة ، فهو سبحانه يريد أن يُري عبده تفرده بالكمال ، ونقص العبد وحاجته إليه، ويُشهده كمال قدرته وعزته، وكمال مغفرته وعفوه ورحمته ، وكمال بره وستره وحلمه وتجاوزه وصفحه ، وأن رحمته به إحسانٌ إليه لا معارضة ، وأنه إن لم يتغمده برحمته وفضله فهو هالك لا محالة.

فلله كم فى تقدير الذنب من حكمة ، وكم فيه مع تحقيق التوبة للعبد من مصلحة ورحمة.

٩/١١٣ - التوبة من الذنب كشرب الدواء للعليل ، ورب علة كانت سبب الصحة :

موت النفوس حياتها   من شاء أن يحيا يموت

---

(١) أي ألهمه الله التوبة قبل الممات.

١٠/ ١١٤ - لولا تقدير الذنب هلك ابن آدم من العجب.

١١/ ١١٥ - ذنب يذل به ، أحب إليه من طاعة يدل بها عليه.

١٢/ ١١٦ - شمعة النصر إنما تنزل فى شمعدان الانكسار.

١٣/ ١١٧ - لا يكرم العبد نفسه بمثل إهانتها، ولا يعزها بمثل ذلها، ولا يريحها بمثل تعبها ، كما قيل :

لعل عتبُك محمودٌ عواقبه ... وربما صحت الأجساد بالعلل

ولا يشبعها بمثل جوعها، ولا يؤمنها بمثل خوفها ، ولا يؤنسها بمثل وحشتها من كل ما سوى فاطرها وبارئها ، ولا يحييها بمثل إماتتها ، كما قيل :

سأتعب نفسى أو أصادف راحة ... فإن هوان النفس فى كرم النفس

١٤/ ١١٨ - سَلِّمِ المبيع قبل أن يتلف فى يدك فلا يقبله المشترى ، قد علم المشتري بعيب السلعة قبل أن يشتريها، فسلمها ولك الأمان من الرد.

١٥/ ١١٩ - اعرف قدر ما ضاع ، وابكِ بكاء من يدرى مقدار الفائت.

١٦/ ١٢٠ - لو تخيلت قرب الأحباب لأقمت المأتم على بعدك.

١٧/ ١٢١ - لو استنشقت ريح الأسحار لأفاق منك قلبك المخمور.

١٨/ ١٢٢ - إذا أراد اللهُ بعبد خيرًا جعلهُ معترفًا بذنبه، مُمْسِكًا عن ذنب غيره، جوَّادًا بما عنده ، زاهدًا فيما عند غيره ، مُحتَمِلا لأذَى غيره ، وإن أراد به شرًا عكَس ذلك عليه.

١٩/ ١٢٣ - هلم إلى الدخول على الله ، ومجاورته فى دار السلام ، بلا نصب ولا تعب ولا عناء ، بل من أقرب الطرق وأسهلها ، وذلك أنك فى وقت بين وقتين، وهو فى الحقيقة عمرك وهو وقتك الحاضر ، بين ما مضى ، وما يستقبل.

فالذى مضى تصلحه بالتوبة والندم والاستغفار ، وذلك شيء لا تعب عليك فيه، ولا نصب ولا معاناة عمل شاق ، إنما هو عمل قلب.

وتمتنع فيما يستقبل من الذنوب ، وامتناعك ترك وراحة ، ليس هو عملا بالجوارح يشق عليك معاناته، وإنما هو عزمٌ ونيةٌ جازمة ، تريح بدنك وقلبك وسرك.

فما مضى تصلحه بالتوبة ، وما يستقبل تصلحه بالامتناع والعزم والنية.

وليس للجوارح فى هذين نصب ولا تعب ، ولكن الشأن فى عمرك وهو وقتك الذى بين الوقتين فإن أضعته أضعت سعادتك ونجاتك ، وإن حفظته مع إصلاح الوقتين اللذين قبله وبعده بما ذكر نجوت وفزت بالراحة واللذة والنعيم ، وحفظه أشق من إصلاح ما قبله وما بعده ، فإن حفظه أن تلزم نفسك بما هو أولى بها وأنفع لها وأعظم تحصيلا لسعادتها ، وفى هذا تفاوت الناس أعظم تفاوت.

فهى والله أيامك الخالية التى تجمع فيها الزاد لمعادك ، إمّا إلى الجنة وإما إلى النار فإن اتخذت إليه سبيلا إلى ربك بلغت السعادة العظمى والفوز الأكبر فى هذه المدة اليسيرة التي لا نسبة لها إلى الأبد ، وإن آثرت الشهوات والراحات واللهو واللعب، انقضت عنك بسرعة وأعقبتك الألم العظيم الدائم الذي مقاساته ومعاناته أشق وأصعب وأدوم من معاناة الصبر عن محارم الله والصبر على طاعته ومخالفته الهوى لأجله.

٢٠/ ١٢٤ - قال الجنيد : دخلت على شاب فسألنى عن التوبة؟ فأجبته .

فسألني عن حقيقتها ؟ فقلت : أن تنصب ذنبك بين عينيك حتى يأتيك الموت . فقال لى : مه ، ما هذا حقيقة التوبة ! فقلت له : فما حقيقة التوبة عندك يا فتى؟! قال : أن تنسى ذنبك ، وتركنى ومضى.

فكيف هو عندك يا أبا القاسم ؟ فقلت : القول ما قال الفتى . قال : كيف؟! قلت : إذا كنت معه فى حال ثم نقلنى من حال الجفاء إلى حال الوفاء ، فذكرى للجفاء فى حال الوفاء جفاء.

٢١/ ١٢٥ - «الإنابة» : هي عكوف القلب على الله عز وجل ، كاعتكاف البدن فى المسجد لا يفارقه ، وحقيقة ذلك : عكوف القلب على محبته وذكره بالإجلال

والتعظيم ، وعكوف الجوارح على طاعته بالإخلاص له والمتابعة لرسوله ﷺ .

ومن لم يعكف قلبه على الله وحده ، عكف على التماثيل المتنوعة، كما قال إمام الحنفاء لقومه : ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ «الأنبياء: ٥٢». فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف ، فكان حظ قومه العكوف على التماثيل ، وكان حظه العكوف على الرب الجليل - والتماثيل جمع تمثال، وهي: الصور الممثلة.

فتعلق القلب بغير الله ، واشتغاله به ، والركون إليه ، عكوف منه على التماثيل التى قامت بقلبه ، وهو نظير العكوف على تماثيل الأصنام ، ولهذا كان شرك عباد الأصنام بالعكوف بقلوبهم وهممهم وإرادتهم على تماثيلهم.

فإذا كان فى القلب تماثيل قد ملكته واستعبدته بحيث يكون عاكفًا عليها، فهو نظير عكوف الأصنام عليها ، ولهذا سماه النبى ﷺ عبدًا لها ودعا عليه بالتعس والنكس ، فقال : «تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقشَ»[1].

٢٢/١٢٦ - اشترِ نفسك ، فالسوق قائمة والثمن موجود.

وانظر الفقرات والفوائد برقم :

(٩ - ٣٢ - ٥٩ - ٧٣ - ٧٤ - ٨٥ - ١٤٤ - ١٧١ - ٢٧١ - ٢٧٨ - ٤٠٨ - ٤٢١ - ٤٣٨ - ٤٧٣ - ٥١٣ - ٥٢٥ - ٥٢٩ - ٥٣٠ - ٥٣٩ - ٥٤٥ - ٥٩٢ - ٥٩٨ - ٥٩٩ - ٦٠٠ - ٦٠١ - ٦٠٢ - ٦٠٣ - ٦٠٧ - ٦٠٨ - ٦٠٩ - ٦٢٥ - ٦٢٧ - ٦٥٢ - ٦٥٨).

---

(١) أخرجه البخارى (٢٨٨٧) عن أبى هريرة يرفعه بلفظ : «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة ، إن أعطي رضي ، وإن لم يعطَ سخط ، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش... الحديث»، وأخرجه ابن ماجه (٤١٣٥ - ٤١٣٦) وغيرهما.

الفصل السادس
العزيمة والمجاهدة

١٢٧/١ - اخرج بالعزم من هذا الفناء الضيق المحشو بالآفات ، إلى ذلك الفناء الرحب ، الذى فيه ما لا عين رأت ، فهناك لا يتعذر مطلوب، ولا يفقد محبوب.

١٢٨/٢ - يا مخنث العزم ! أين أنت والطريق طريق تعب فيه آدم ، وناح لأجله نوح ، ورُمِي فى النار الخليل ، واضّجع للذبح إسماعيل ، وبيع يوسف بثمن بخس ، ولبث فى السجن بضع سنين ، ونُشر بالمنشار زكريا، وذُبح السيد الحصور يحيى ، وقاسى الضُّر أيوب ، وزاد على المقدار بكاء داود ، وسار مع الوحش عيسى ، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد ﷺ ،تزها أنت باللهو واللعب.

فيا دارها ، بالحزن إن مزارها قريب ، ولكن دون ذلك أهوال

١٢٩/٣ - كواكب همم العارفين فى بروج عزائمهم سيارة ، ليس فيها زحل.

١٣٠/٤ - يا مخنث العزم ! أقل ما فى الرقعة البيدق[1]، فلما نهض تفرزن[2].

١٣١/٥ - رأى بعض الحكماء برذونًا[3] يُسقى عليه ، فقال : لو هملج هذا ، لرُكِب.

١٣٢/٦ - أقدام العزم بالسلوك ، اندفع من بين أيديها سد القواطع.

---

(١) البيدق : الجندى الراجل ، والرقعة : رقعة الشطرنج .

(٢) الفرزان : هو الوزير ، والمعنى واضح لمن يجيد هذه اللعبة.

(٣) البرذون : يطلق على غير العربى من الخيل والبغال ، وهو عظيم الخلقة ، غليظ الأعضاء ، قوي الأرجل ، عظيم الحوافر ، وهو لا يصلح للركوب فى القتال وغيره، والمعنى واضح.

٧/ ١٣٣ - القواطع محنٌ يتبين بها الصادق من الكاذب ، فإذا خضتها انقلبت أعوانًا لك توصلك إلى المقصود.

٨/ ١٣٤ - ألفت عجز العادة ، فلو علت بك همتك رُبا المعالي لاحت لك أنوار العزائم.

٩/ ١٣٥ - إنما تفاوت القوم بالهمم لا بالصور.

١٠/ ١٣٦ - نزول همة الكَسَّاح [١] دلاه فى جُب العذرة [٢].

١١/ ١٣٧ - بينك وبين الفائزين جبل الهوى ، نزلوا بين يديه ونزلت خلفه، فاطوِ فضل منزل تلحق بالقوم.

١٢/ ١٣٨ - قوة الطمع فى بلوغ الأمل توجب الاجتهاد فى الطلب ، وشدة الحذر من فوت المأمول.

١٣/ ١٣٩ - إذا طلع نجم الهمة فى ظلام ليل البطالة ، وردِفه قمر العزيمة، أشرقت أرض القلب بنور ربها.

١٤/ ١٤٠ - الهمة العلية من استعد صاحبها للقاء الحبيب ، وقدم التقادم بين يدى المُلتقى ، فاستبشر عند القدوم ﴿وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ «البقرة : ٢٢٣».

١٥/ ١٤١ -

فلو أن ما أسعى لعيش معجل ... كفانى منه بعض ما أنا فيه

ولكنما أسعى لملك مخلد ... فوا أسفا إن لم أكن بملاقيه

١٦/ ١٤٢ - منشور اختيارنا لك واضح الخط ، ولكن استخراجك ضعيف.

١٧/ ١٤٣ - تذكر حلاوة الوصال يهن عليك مرُّ المجاهدة.

---

(١) الكسَّاح : عامل المجاري والنظافة.

(٢) جُب العذرة : مصرف الغائط والأوساخ - والمعنى واضح.

١٨/ ١٤٤ - الهمة العلية لا تزال حائمة حول ثلاثة أشياء:

تعرُّف لصفة من الصفات العليا : تزداد بمعرفتها محبة وإرادة.

وملاحظة لمنةٍ : تزداد بملاحظتها شكرًا وطاعة.

وتذكر لذنب : تزداد بتذكره توبة وخشية.

فإذا تعلقت الهمة بسوى هذه الثلاثة جالت في أودية الوساوس والخطرات.

١٩/ ١٤٥ - إنما يقطع السفر ، ويصل المسافر ، بلزوم الجادة ، وسير الليل ، فإذا حاد المسافر عن الطريق ، ونام الليل كله ، فمتى يصل إلى مقصده؟!

٢٠/ ١٤٦ - إنما يجد المشقة في ترك المألوفات والعوائد من تركها لغير الله، أما من تركها صادقًا مخلصًا من قلبه لله ، فإنه لا يجد في تركها مشقة إلا في أول وهلة ليمتحن أصادق هو في تركها أم كاذب ؟ فإن صبر على تلك المشقة قليلا استحالت لذة [١].

قال ابن سيرين : سمعت شريحًا يحلف بالله ما ترك عبد لله شيئًا فوجد فقده.

وقولهم : «من ترك لله شيئًا عوضه الله خيرًا منه» حق.

والعوض أنواع مختلفة : وأجلُّ ما يعوضُ به: الأُنس بالله ومحبته وطمأنينة القلب به وقوته، ونشاطه، وفرحه ورضاه عن ربه تعالى.

٢١/ ١٤٧ - أغبى الناس من ضل في آخر سفره وقد قارب المنزل.

٢٢/ ١٤٨ - ليس العَجب من صحيح فارغٍ واقف مع الخدمة ، إنما العَجب من ضعيفٍ سقيمٍ تعتوره الأشغال ، وتختلف عليه الأحوال ، وقلبه واقفٌ في الخدمة ، غيرُ متخلف بما يقدر عليه.

٢٣/ ١٤٩ - ليس للعبد شيء أنفع من صدقه ربه في جميع أموره مع صدق العزيمة ، فيصدقه في عزمه، وفي فعله ، قال تعالى : ﴿فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ

---

(١) استحالت : أي تحولت .

﴿صَدَقُواْ اللهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ «محمد : ٢١». فسعادته في صدق العزيمة، وصدق الفعل :

فصدق العزيمة : جمعها وجزمها ، وعدم التردد فيها، بل تكون عزيمة لا يشوبها تردد ولا تلوم ، فإذا صدقت عزيمته بقي عليه صدق الفعل، وهو : استفراغ الوسع وبذل الجهد فيه ، وأن لا يتخلف عنه بشيء من ظاهره وباطنه .

فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الإرادة والهمة ، وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور ، ومن صدق الله في جميع أموره ، صنع الله له فوق ما يصنع لغيره ، وهذا الصدق معنى يلتئم من صحة الإخلاص ، وصدق التوكل ، فأصدق الناس من صح إخلاصه وتوكله.

٢٤/ ١٥٠ - قيل لبعض العباد : إلى كم تتعب نفسك ؟! قال : راحتها أُريد.

٢٥/ ١٥١ - أما علمت أن الصادق إذا همَّ [١] ألقى بين عينيه عزمه.

٢٦/ ١٥٢ - هان سهر الحراس لَمَّا علموا أن أصواتهم بسمع الملك.

٢٧/ ١٥٣ - أعلى الهمم همة من استعد صاحبها للقاء الحبيب.

٢٨/ ١٥٤ - طائر الطبع يرى الحبة ، وعين العقل ترى الشَرَك ، غير أن عين الهوى عمياء.

٢٩/ ١٥٥ - علامة صحة الإرادة أن يكون هم المريد رضا ربه، واستعداده للقائه، وحزنه على وقت مر في غير مرضاته، وأسفه على قربه والأنس به[٢]، وجماع ذلك أن يصبح ويمسي وليس له همٌّ غيره.

---

(١) لم يبين الشيخ المراد بالهم هنا : هل هو هم بالطاعة ، فأبصر عزمه ليتقوى على طاعة ربه، أم أراد هم بالمعصية - وهو الأقرب للسياق - والله أعلم.

(٢) ومعنى الجملة : وأسفه على وقت مر في غير قربه والأنس به ، كما قال تعالى : ﴿وقال يا أسفى على يوسف﴾ ، اي : على فقد يوسف.

- ٣٠/١٥٦ -

وركبٌ سروا والليل مُلْقٍ رواقه	على كل مُغبرِ المطالع قاتمِ
حدوا عزمات ضاعت الأرض بينها	فصار سراهم فى ظهور العزائم
تريهم نجوم الليل ما يتبعونه	على عاتق الشعرى وهام النعائمِ
إذا اطردت فى معرك الجد قصفوا	رِماح العطايا فى صدور المكارمِ

٣١/١٥٧ - لذة كل أحد على حسب قدره وهمته ، وشرف نفسه ، فأشرف الناس نفسًا وأعلاهم همة وأرفعهم قدرًا : من لذته فى معرفة الله ومحبته والشوق إلى لقائه ، والتودد إليه بما يحبه ويرضاه ، فلذته فى إقباله عليه وعكوف همته عليه، ودون ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله ، حتى تنتهي إلى من لذته فى أخس الأشياء من القاذورات والفواحش في كل شيء من الكلام والفعل والأشغال ، فلو عرض عليه ما يلتذ به الأول لم تسمح نفسه بقبوله ولا التفتت إليه ، وربما تألمت من ذلك ، كما أن الأول إذا عُرض عليه ما يلتذ به هذا لم تسمح نفسه به ولم تلتفت إليه ونفرت نفسه منه.

وأكمل الناس لذة من جُمع له بين لذة القلب والروح ، ولذة البدن ، فهو يتناول لذاته المباحة على وجه لا ينقص حظه من الدار الآخرة ، ولا يقطع عليه لذة المعرفة والأنس بربه ، فهذا ممن قال تعالى فيه : **﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾** «الأعراف : ٣٢».

وأبخسهم حَظًا من اللذة ، من تناولها على وجه يحول بينه وبين لذات الآخرة ، فيكون ممن يقال لهم يوم استيفاء اللذات : **﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾** «الأحقاف : ٢٠».

فهؤلاء تمتعوا بالطيبات ، وأولئك تمتعوا بالطيبات ، وافترقوا فى وجه التمتع : فأولئك تمتعوا بها على الوجه الذى أذن لهم فيه ، فجمع لهم بين لذة الدنيا والآخرة

وهؤلاء تمتعوا بها على الوجه الذى دعاهم إليه الهوى والشهوة ، وسواء أذن لهم فيه أم لا ، فانقطعت عنـهم لذة الدنيا وفاتتهم لذة الآخرة ، فلا لـذة الدنيا دامت لهم ولا لذة الآخرة حصلت لهم.

فمن أحب اللذة ودوامها ، والعيش الطيب ، فـليجعل لذة الدنيا موصلا له إلى لذة الآخرة بأن يستعين بها على فراغ قلبه لله (في) إرادته وعبادته ، فيتناولها بحكم الاستعانة والقوة على طلبه ، لا بحكم مجرد الشهوة والهوى.

وإن كان ممن زويت عنه لذات الدنيا وطيباتها ، فـليجعل ما نقص منها زيـادة فى لذة الآخرة ، ويُلْجِم نفسه هاهنا بالترك ، ليستوفيها كاملة هناك.

فطيبات الدنيا ولذاتها نعم العـون لمن صح طلبه لله والدار الآخرة ، وكانت همته لما هناك ، وبئس القاطع لمن كانت هى مقـصوده وهمته ، وحولها يدندن ، وفواتها فى الدنيا نعم العون لطالب الله والدار الآخرة ، وبئس القاطع النازع من الله والدار الآخرة فمن أخذ منافع الدنيا على وجه لا ينقص حظه من الآخرة ظفر بهما جميعًا وإلا خسرهما جميعًا.

وانظر الفقرات والفوائد برقم :

(١٩ - ٨٤ - ٩٦ - ٩٧ - ٢٣٣ - ٢٥٢ - ٢٩٠ - ٣٠٤ - ٣٣٩ - ٤٦٩ - ٥٣٠ - ٥٥٣ - ٥٨٠ - ٥٨٧ - ٥٨٨ - ٦٠٤ - ٦٣٠ - ٦٥٠).



الفصل السابع
الخـــوف والرجـــاء

١/ ١٥٨ - للعبد ستر بينه وبين الله ، وستر بـينه وبين الناس ، فمن هتك الستر الذى بينه وبين الله هتك الله الستر الذى بينه وبين الناس.

٢/ ١٥٩ - المخلوق إذا خـفته استوحـشت منه وهـربت منه ، والرب تـعالى إذا خفته آنست به وقربت إليه.

٣/ ١٦٠ - يخرج العـارف من الدنيا ولم يقـض وطره من شيئين : بـكاؤه على نفسه ، وثناؤه على ربه.

٤/ ١٦١ - صاح بالصـحابة واعظ : ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ «الأنبياء: ١» فجزعـت للخوف قـلوبهم فـجرت من الحذر الـعيون : ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ «الرعد : ١٧».

٥/ ١٦٢ - من أعظم الظـلم والجهل أن تطلب التـعظيم والتوقير لـك من الناس وقلبك خال من تعظيم الله وتوقيره ، فإنك توقر المخلوق وتجله أن يراك فى حال لا توقر الله أن يراك عليها.

قال تعالى : ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ «نوح : ١٣» أى : لا تـعاملـونه معاملة من توقرونه.

والتوقير : العظمة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ «الفتح : ٩».

قال الحسن مـا لكم لا تعرفون لله حقًا ولا تـشكرونه؟ قال مجاهـد : لا تبالون عظمة ربكم .

وقال ابن زيد : لا ترون لله طاعة.

وقال ابن عباس ﷺ: لا تعرفون حق عظمته.

وهذه الأقوال ترجع إلى معنى واحد ، وهو أنهم لو عظموا الله وعرفوا حق عظمته ، ووحدوه وأطاعوه وشكروه ، فطاعته سبحانه واجتناب معاصيه والحياء منه بحسب وقاره فى القلب ولهذا قال بعض السلف : ليعظمُ وقار الله في قلب أحدكم أن يذكره عندما يستحي من ذكره ، فيقرن اسمه به كما تقول : قبح الله الكلب والخنزير والنتن ونحو ذلك ، فهذا من وقار الله.

١٦٣ - ومن وقاره أن لا تعدل به شيئًا من خلقه ، لا في اللفظ ، بحيث تقول: والله وحياتك ، ما لي إلا الله وأنت ، وما شاء الله وشئت؛ ولا في الحب والتعظيم والإجلال ، ولا في الطاعة ، فتطيع المخلوق فى أمره ونهيه كما تطيع الله، بل أعظم ، كما عليه أكثر الظلمة والفجرة ، ولا فى الخوف والرجاء ، ويجعله أهون الناظرين إليه ، ولا يستهين بحقه ويقول : هو مبني على المسامحة ولا يجعلها على الفضلة، ويقدم حق المخلوق عليه ، ولا يكون الله ورسوله ﷺ في حدٍّ وناحية والناس فى ناحية وحد ، فيكون فى الحد والشق الذي فيه الناس دون الحد والشق الذي فيه الله ورسوله ﷺ ، ولا يعطي المخلوق فى مخاطبته قلبه ولبه، ويعطي الله فى خدمته بدنه ولسانه دون قلبه وروحه ، ولا يجعل مراد نفسه مقدمًا على مراد ربه.

فهذا كله من عدم وقار الله فى القلب ، ومن كان كذلك فإن الله لا يلقى له فى قلوب الناس وقارًا ولا هيبة ، بل يسقط وقاره وهيبته من قلوبهم ، وإن وقروه مخافة شره فذلك وقار بُغض لا وقار حب وتعظيم ، ومن وقار الله أن يستحي من اطلاعه على سره وضميره فيرى فيه ما يكره، ومن وقاره أن يستحي منه فى الخلوة أعظم مما يستحي من أكابر الناس.

والمقصود : أن من لا يوقر الله وكلامه وما آتاه من العلم والحكمة . كيف يطلب من الناس توقيره وتعظيمه؟!

١٦٤ - القرآن ، والعلم ، وكلام الرسول ﷺ صلات من الحق ، وتنبيهات وروادع وزواجر واردة إليك ، والشيب زاجر ورادع وموقظ قائم بك فلا ما ورد إليك وعظك ، ولا ما قام بك نصحك ! ومع هذا تطلب التوقير والتعظيم من

غيرك ! فأنت كمصاب لم تؤثر فيه مصيبته وعظًا وانزجارًا ، وهو يطلب من غيره أن يتعظ وينزجر بالنظر إلى مصابه، فالضرب لم يؤثر فيه زجرًا وهو يريد الانزجار ممن نظر إلى ضربه.

٦/ ١٦٥ - من سمع بالمثلات والعقوبات والآيات فى حق غيره ليس كمن رآها عيانًا فى غيره ، فكيف بمن وجدها فى نفسه؟! ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ «فصلت: ٥٣» فآياته فى الآفاق مسموعة معلومة ، وآياته فى النفس مشهورة مرئية ، فعياذًا بالله من الخذلان ، قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ «يونس: ٩٦- ٩٧» وقال سبحانه : ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلا أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ «الأنعام: ١١١» .

والعاقل المؤيد بالتوفيق يعتبر بدون هذا [١]، ويتمم نقائص خلقته بفضائل أخلاقه وأعماله فكلما امتحى [٢] من جثمانه أثر زاد إيمانه أثر ، وكلما نقص من قوى بدنه زاد فى قوة إيمانه ويقينه ورغبته فى الله والدار الآخرة، وإن لم يكن هكذا فالموت خير له ، لأنه يقف به على حد معين من الألم والفساد ، بخلاف العيوب والنقائص مع طول العمر ، فإنها زيادة فى ألمه وهمه وغمه وحسرته وإنما حسن طول العمر ونفع ليحصل التذكر والاستدراك واغتنام الغرض والتوبة النصوح ، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ «فاطر : ٣٧» فمن لم يورثه التعمير وطول البقاء إصلاح معائبه وتدارك فارطه ، واغتنام بقية أنفاسه فيعمل على حياة قلبه ، وحصول النعيم المقيم ، وإلا فلا خير له فى حياته، فإن العبد على جناح سفر إما إلى الجنة وإما إلى النار ، فإذا طال عمره وحسن عمله كان طول سفره زيادة له في حصول النعيم واللذة، فإنه كلما طال سفره إليها كانت الصبابة أجل وأفضل ، وإذا طال عمره وساء عمله كان طول سفره زيادة في ألمه

(١) بدون هذا : أي بأقل من هذا.

(٢) امحى الشيء : ذهب أثره.

وعذابـه ، ونزولا له إلى أسـفل ، فالمسـافر إما صاعـد وإما نازل ، وفي الحـديث المرفوع : «خـيركم من طـال عمره وحسن عـمله، وشركـم من طال عمـره وقبح عمله»(١).

فالطالب الصادق فى طلبه كلما خرب شيء من ذاته جعله عمارة لقلبه وروحه ، وكلما نقص شيء من دنياه جعله زيادة فى آخـرته ، وكلما منع شيئًا من لذات دنياه جعـله زيادة في لـذات آخرته ، وكـلما نالـه هم أو حزن أو غـم جعله فـى أفراح آخرته، فنقصان بـدنه ودنياه ولذته وجاهه ورئاسته إن زاد فى حـصول ذلك وتوفيره عليه في معاده ، كان رحمة به وخيراً له وإلا كان حرمانًا وعقوبة على ذنوب ظاهرة أو باطنة أو ترك واجب ظاهر أو باطن ، فإن حرمان خير الدنيا والآخرة مرتبٌ على هذه الأربعة. . وبالله التوفيق.

٧/١٦٦ -

بـالله أبـلـغ ما أسـعـى وأدركـه لا بى ولا بشـفيع لى مـن الناس

إذا آيســت وكاد الـيأس يقـطعـنى جاء الرجا مسرعـا من جانب الياس

وانظر الفقرات والفوائد برقم:

(٥١ - ٨٨ - ٩٣ - ١٤٧ - ١٦٩ - ٢٥٥ - ٢٨٥ - ٢٩٢ - ٣٣٩ - ٤٦٩ - ٤٧٩ - ٤٨٦ - ٥٢٩ - ٥٣٠ - ٥٤٥ - ٥٧٥ - ٦٢٢ - ٦٢٦ - ٦٢٨ - ٦٣٤ - ٦٣٥).

---

(١) (صحيح) أخـرجه الإمـام أحمـد (٥/ ٤٠، ٤٣، ٤٧) ، والتـرمذي (٢٣٣٠) وقـال: حسـن صحيح، وصححه الألباني ، والحديث ذكره العجلوني فى «كشف الخفا» (١٢٣١) وعزاه لأحمد والترمذي والحاكم ثم قال : وقد أشرت إلى ذلك فقلت:

طــول الحيــاة حــميـدة إن راقــب الـرحـمــن عــبـده

ويـضــدهـا فــالموت خـيـر والــسـعـيــد أتـاه رشـده

الفصل الثامن
الإيمان والتوحيد

١٦٧/١ - فى « المسند » و « صحيح أبى حاتم » من حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أصاب عبداً هَمٌّ ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فِيَّ حكمك، عدلٌ فِيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته فِي كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به فِي علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي؛ إلا أذهب الله همه وغمه، وأبدله مكانه فرحًا»، قالوا: يا رسول الله، أفلا نتعلمهن؟! قال ﷺ: «بلى، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن»[1].

فتضمن هذا الحديث العظيم أموراً من: المعرفة، والتوحيد، والعبودية:

منها : أن الداعى به صدر سؤاله بقوله : «إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك»، وهذا يتناول من فوقه من آبائه وأمهاته إلى أبويه آدم وحواء، وفى ذلك تملق له واستخذاء بين يديه واعتراف بأنه مملوكه وآباؤه مماليكه.

---

(١) (حديث حسن) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢)، وابن حبان فى «صحيحه» (٢٣٧٢)، وأبو يعلى (٢/ ٢٤٦) ، والبزار (١/ ٣٠٤)، والحاكم (١/ ٥٠٩) وقال: صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه فإنه مختلف في سماعه عن أبيه وتعقبه الذهبي : أبو سلمة لا يدري من هو ولا رواية له في الكتب الستة، وقال الحافظ في «تخريج الأذكار» حديث حسن. اهـ ، وذكره الألباني فى «الصحيحة» (١٩٩) وانظر «الكلم الطيب» (١٢٣).

وقال الشيخ البنا فى «الفتح الرباني» (١٤/ ٢٦٣): ويستفاد منه أن لله عز وجل أسماء غير التسعة والتسعين المتقدم ذكرها، ثم قال: والمراد أن يجعل قلبه مرتاحًا إلى القرآن مائلا إليه راغبًا في تلاوته وتدبره منوراً لبصيرته، والنور مادة الحياة، وبه معاش العباد. اهـ.

(ومنها): أن العبد ليس له غير باب سيده وفضله وإحسانه ، وأن سيده إن أهمله وتخلى عنه هلك ولم يُؤوه أحد ، ولم يعطف عليه ، بل يضيع أعظم ضيعة.

فتحت هذا الاعتراف : أني لاغنى بي عنك طرفة عين ، وليس لي من أعوذ به وألوذ به غير سيدي الذي أنا عبده.

وفي ضمن ذلك الاعتراف فأنه مربوب مدبر ، مأمور منهي ، إنما يتصرف بحكم العبودية لا بحكم الاختيار لنفسه ، فليس هذا شأن العبد ، بل شأن الملوك الأحرار، وأما العبيد فتصرفهم على محض العبودية ، فهؤلاء عبيد الطاعة المضافون إليه سبحانه في قوله : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ «الحِجْر : ٤٢» ، وقوله سبحانه : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ «الفرقان: ٦٣».

ومن عداهم عبيد القهر والربوبية ، فإضافتهم إليه كإضافة سائر البيوت إلى ملكه، وإضافته أولئك كإضافة البيت الحرام إليه، وإضافة ناقته إليه، وداره التي هي الجنة إليه، وإضافة عبودية رسوله ﷺ إليه ، يقول سبحانه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ «البقرة: ٢٣»، وقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ «الإسراء: ١» وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ﴾ «الجن : ١٩».

٢/ ١٦٨ - وفى التحقيق بمعنى قوله : «إنى عبدك» التزام عبوديته من الذل والخضوع والإنابة وامتثال أمر سيده ، واجتناب نهيه ، ودوام الافتقار إليه ، واللجء إليه ، والاستعانة به ، والتوكل عليه ، وعياذ للعبد به ولياذه به ، وأن لا يتعلق قلبه بغيره : محبة وخوفًا ورجاءً ، وفيه أيضا : أني عبد من جميع الوجوه : صغيرًا وكبيرًا ، حيا وميتًا ، مطيعا وعاصيا، معافًى ومبتلًى ، بالروح والقلب واللسان والجوارح.

وفيه أيضًا : أن مالي ونفسي ملك لك، فإن العبد وما يملك لسيده.

وفيه أيضًا : أنك أنت الذى مننت عليَّ بكل ما أنا فيه من نعمة ، فذلك كله من إنعامك على عبدك.

وفيه أيضًا : أنى لا أتصرف فيما خولتني من مالي ونفسي إلا بأمرك، كما لا

يتصرف العبد إلا بإذن سيده ، وإني لا أملك لنفسي ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا ، فإن صح له شهود ذلك فقد قال إني عبدك حقيقة.

ثم قال : «ناصيتى بيدك» : أي أنت المتصرف فِيَّ ، تصرفني كيف تشاء، لست أنا المتصرف في نفسي ، وكيف يكون له في نفسه تصرف من نفسه بيد ربه وسيده ، وناصيته بيده ، وقلبه بين أصبعين من أصابعه ، وموته وحياته وسعادته وشقاوته ، وعافيته وبلاؤه ، كله إليه سبحانه ، ليس إلى العبد منه شيء ، بل هو فى قبضة سيده أضعف من مملوك ضعيف حقير ، ناصيته بيد سلطان قاهر مالكٍ ، له تحت تصرفه وقهره، بل الأمر فوق ذلك.

٣/ ١٦٩ - ومتى شهد العبد أن ناصيته ونواصي العباد كلها بيد الله وحده، يصرفهم كيف يشاء لم يخفهم بعد ذلك، ولم يرجهم ، ولم ينزلهم منزلة المالكين، بل منزلة عبيد مقهورين مربوبين ، المتصرف فيهم سواهم ، والمدبر لهم غيرهم.

فمن شهد نفسه بهذا المشهد صار فقره وضرورته إلى ربه وصفًا لازمًا له ومتى شهد الناس كذلك لم يفتقر إليهم ، ولم يعلق أمله ورجاءه بهم ، فاستقام توحيده وتوكله وعبوديته ، ولهذا قال هود - عليه السلام - لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ «هود:٥٦».

٤/ ١٧٠ - وقوله : «ماض فِيَّ حُكمك ، عدلٌ فِيَّ قضاؤك». تضمن هذا الكلام أمرين :

أحدهما : مضاء حكمه فِي عبده.

والثانى : يتضمن حمده وعدله وهو سبحانه له الملك وله الحمد.

وهذا معنى قول نبي الله هود - عليه السلام - : ﴿مَا مِن دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ ، ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي : مع كونه مالكًا قاهرًا متصرفًا فِي عباده، نواصيهم بيده ، فهو على صراط مستقيم ، وهو العدل الذي يتصرف به فيهم ، فهو على صراط مستقيم فى قوله وفعله وقضائه وقدره وأمره ونهيه ، وثوابه وعقابه ، فخبره كله صدق ، وقضاؤه كله عدل ، وأمره كله

مصلحة، والذى نهى عنه كله مفسدة ، وثوابه لمن يستحق الثواب بفضله ورحمته ، وعقابه لمن يستحق العقاب بعدله وحكمته.

وفرق بين «الحكم، والقضاء»، وجعل المضاء للحكم، والعدل للقضاء:

فإن حكمه سبحانه يتناول حكمه الدينى الشرعى وحكمه الكونى القدرى، والنوعان نافذان في العبد ، ماضيان فيه ، وهو مقهور تحت الحكمين ، قد مضيا فيه، ونفذا فيه شاء أم أبى ، لكن الحكم الكوني لا يمكنه مخالفته ، وأما الديني الشرعي فقد يخالفه.

ولما كان القضاء هو الإتمام والإكمال ، وذلك إنما يكون بعد مضيه ونفوذه قال : «عدل فِيَّ قضاؤك» أي الحكم الذي أكملته وأتممته ونفذته في عبدك عدلٌ منك فيه ، **وأما الحكم**: فهو ما يحكم به سبحانه ، وقد يشاء تنفيذه وقد لا ينفذه ، فإن كان حكمًا دينيًا فهو ماضٍ في العبد ، وإن كان كونيًا فإن نفذه سبحانه مضى فيه ، وإن لم ينفذه اندفع عنه ، فهو سبحانه يمضي ما يقضي به وغيره قد يقضي بقضاء ويقدر أمرًا ولا يستطيع تنفيذه، وهو سبحانه يقضي ويمضي فله القضاء والإمضاء.

٥/ ١٧١ - وقوله : «عدلٌ فِيَّ قضاؤك» يتضمن جميع أقضيته في عبده من كل الوجوه : «من صحة وسقم ، وغنًى وفقر ، ولذة وألم ، وحياة وموت ، وعقوبة وتجاوز» وغير ذلك. . . ؛ قال تعالى : ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾ «الشورى : ٣٠» ، وقال سبحانه : ﴿**وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ**﴾ «الشورى : ٤٨».

فكل ما يقضي على العبد فهو عدل فيه.

فإن قيل : فالمعصية عندكم بقضائه وقدره ! فما وجه العدل فى قضائها؟! فإن العقوبة عليها غير ظاهرة؟!، قيل : هذا سؤال له شأن ، ومن أجله زعمت طائفة أن العدل هو المقدور ، والظلم ممتنع لذاته، قالوا: لأن الظلم هو التصرف في ملك الغير والله سبحانه له كل شيء ، فلا يكون تصرفه فى خلقه إلا عدلا.

وقالت طائفة : بل العدل أنه لا يعاقب على ما قضاه وقدره ، فلما حسن منه العقوبة على الذنب علم أنه ليس بقضائه وقدره ، فيكون العدل هو جزاؤه على

الذنب بالعقوبة والذم ، إما في الدنـيا وإما في الآخرة ، وصعب على هؤلاء الجمع بين العدل وبـين القدر ، فزعموا أن من أثبـت القدر لم يمكنه أن يـقول بالعدل ، ومن قال بالعدل لم يمـكنه أن يقول بالقدر، كما صعب عليهم الجـمع بين التوحيد وإثبات الصـفات ، فزعموا أنهم لا يـمكنهم إثبـات التوحيد إلا بإنكـار الصفات ، فصار توحيدهم تعطيلا، وعدلهم تكذيبًا بالقدر.

وأما أهل السنة فهـم مثبتون للأمرين ، والظلم عندهم هـو وضع الشيء فى غير موضعه كتعذيب المطيع ومن لا ذنب له، وهـذا قد نزه الله نفسه عنه فى غير موضع من كتابه، وهو سبحانه وإن أضل من شاء، وقضى بالمعصية والغي على من شاء ، فذلك محض العدل فيه ، لأنه وضع الإضلال والخذلان في موضعه اللائق به .

كيف ومن أسـمائه الحسنى : «العـدل» الذى كل أفعاله وأحكـامه سداد وصواب وحق ، وهو سبحانه قد أوضح السبـل وأرسل الرسل وأنزل الكتب وأزاح العلل ، ومكن من أسباب الهداية والطاعة بـالأسماع والأبصار والعقول، وهذا عدله، ووفق من شاء بمزيد عناية، وأراد من نفسه أن يعينه ويوفقه، فهذا فضله، وخذل من ليس بأهل لتوفيـقه وفضله وخلى بينه وبيـن نفسه ، ولم يرد سبحانه من نـفسه أن يوفقه فقطع عنه فضله ولم يحرمه عدله، وهذا نوعان:

أحدهما : ما يكون جزاء منه للعبد عـلى إعراضه عنه ، وإيثار عدوه في الطاعة والموافقة عليه، وتناسي ذكره وشكره ، فهو أهل أن يخذله ويتخلى عنه.

والثاني : أن لا يشـاء له ذلك ابتداء لما يعلـم منه أنه لا يعرف قدر نعـمة الهداية ولا يشكره عليه ، ولا يثني عليه بها ، ولا يحبه فلا يشاؤها له لعدم صلاحية محله قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّـا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَـقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّـن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِـالشَّاكِرِينَ﴾ «الأنـعام : ٥٣» وقـال : ﴿وَلَوْ عَلِـمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ «الأنفـال : ٢٣» فإذا قضى الله سـبحانه عـلى هذه الـنفوس بالـضلال والمعصيـة كان ذلك محض العـدل ، كما إذا قضى علـى الحية بأن تقتـل ، وعلى العقـرب وعلى الكـلب العقـور، كان ذلك عدلا فـيه وإن كان مخـلوقًا علـى هذه الصفة، وقد استوفينا الكلام في هذا فى كتابنا الكبير في القضاء والقدر [١].

---

(١) وهو كتابة القيم : « شفاء العليل » - مطبوع أكثر من طبعة .

والمقصود أن قوله ﷺ : «ماضٍ فِيَّ حكمك ، عدل فِيَّ قضاؤك» : رد على الطائفتين : القدرية : الذين ينكرون عموم أقضية الله في عبده ، ويخرجون أفعال العباد عن كونها بقضائه وقدره ، ويردون القضاء إلى الأمر والنهي.

وعلى الجبرية : الذين يقولون : كل مقدور عدل ، فلا يبقى لقوله «عدلٌ فِيَّ قضاؤك» فائدة ، فإن العدل عندهم كل ما يمكن فعله ، والظلم هو المحال لذاته ، فكأنه قال : ماضٍ ونافذ فِيَّ قضاؤك ، وهذا هو الأول بعينه.

٦/ ١٧٢ - وقوله : «أسألك بكل اسم». . . إلى آخره ، توسل إليه سبحانه بأسمائه كلها ، ما علم العبد منها وما لم يعلم ، وهذه أحب الوسائل إليه فإنها وسيلة بصفاته وأفعاله التي هي مدلول أسمائه.

٧/ ١٧٣ - وقوله : «أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري»، الربيع: المطر الذي يحيي الأرض ، شبه القرآن به لحياة القلوب به ، وكذلك شبهه الله بالمطر ، وجمع بين الماء الذي تحصل به الحياة ، والنور الذي تحصل به الإضاءة والإشراق ، كما جمع بينهما سبحانه في قوله : ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ «الرعد : ١٧». . وفي قوله : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ «البقرة: ١٧» ثم قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ «البقرة : ١٩» وفي قوله : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ...﴾ الآيات «النور : ٣٥». ثم قال : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ . . الآية «النور : ٤٣».

فتضمن الدعاء أن يحيى قلبه بربيع القرآن ، وأن ينور به صدره، فتجتمع له الحياة والنور ، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ، وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ «الأنعام : ١٢٢».

ولما كان الصدر أوسع من القلب كان النور الحاصل له يسري منه إلى القلب؛ لأنه قد حصل لما هو أوسع منه ، ولما كانت حياة البدن والجوارح كلها بحياة القلب تسري الحياة منه إلى الصدر ، ثم إلى الجوارح ، سأل الحياة له بالربيع الذي هو

مادتها ، ولما كان الحزن والـهم والغم يضاد حياة القلب واستـنارته ؛ سأل أن يكون ذهابها بالقرآن فإنها أحرى أن لا تعود، وأما إذا ذهبت بغير القرآن من صحة أو دنيا أو جاه أو زوجة أو ولد فإنـها تعود بذهاب ذلك ، والمكروه الوارد عـلى القلب إن كان من أمر ماضٍ أحدث الحزن ، وإن كان من مستقبل أحدث الهم ، وإن كان من أمر حاضر أحدث الغم ، والله أعلم.

٨/ ١٧٤ - تأمل خطـاب القرآن ! تجد ملكًا لـه الملك كله وله الحمـد كله، أزمَّة الأمور كلها بيده، ومصدرها منه ومردها إليـه، مستويًا على سرير ملكه ، لا يخفى عليه خافية فى أقطـار مملكته ، عالـمًا بما فى نفوس عبيده ، مـطلعًا على أسرارهم وعلانيتهم ، منفردًا بتدبير المملكة ، يسمع ويرى ويعطي ويمنع ، ويثيب ويعاقب ، ويكرم ويهـين، ويخلق ويرزق، ويميـت ويحيي ، ويقدر ويقضـي ويدبر ، الأمور نازلة من عنده، دقيـقها وجليلها ، وصاعدة إليه لا تـتحرك في ذرة إلا بإذنه ، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه ، فتأمل كيف تجده يُثني على نفسه ، ويمجد نفسه ، ويحمد نفســه، وينصح عبـاده ، ويدلهم علـى مافيه سـعادتهم وفلاحـهم، ويرغبهـم فيه ويحذرهم مما فيه هلاكهـم ، ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحـبب إليهم بنعمه وآلائه ، فيذكرهم بنعمه عليهم ، ويأمرهـم بما يستوجبون به تمامها ، ويحذرهم من نقمه ، ويذكرهم بما أعد لهم من الكـرامة إن أطاعوه ، وما أعد لهم من العقوبة إن عصوه ، ويخبرهم بصنعه في أوليائه وأعدائه ، وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء.

ويُثني على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم، ويذم أعداءه بسيئ أعمالهم وقبيح صفاتهم، ويضرب الأمثال، وينوع الأدلة والبراهين، ويجيب عن شبه أعدائه أحسن الأجـوبة، ويصدق الصـادق ويكذب الكاذب، ويقـول الحق ويهدي السـبيل ويدعو إلى دار السـلام، ويذكر أوصافها وحسنـها ونعيمها، ويحـذر من دار البوار ويذكر عذابها وقبحها وآلامها، ويذكر عباده بفقرهم إليه وشدة حاجتهم إليه من كل وجه، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين، ويذكر غناه عنهم وعن جميع الموجودات، وأنه الغني بـنفسه عن كل ما سواه ، وكل مـا سواه فقير إليه بنفـسه ، وأنه لا ينال أحد ذرة من الخير فما فـوقها إلا بفضله ورحمته ، ولا ذرة من الشـر فما فوقها إلا

بعدله وحكمته ، ويشهد من خطابه عتابه لأحبائه ألطف عتاب ، وأنه مع ذلك مقيل عثراتهم ، وغافر زلاتهم، ومقيم أعذارهم ، ومصلح فسادهم ، والدافع عنهم ، والمحامي عنهم، والناصر لهم ، والكفيل بمصالحهم ، والمنجى لهم من كلِ كرب ، والموفي لهم بوعده ، وإنه وليهم الذي لا ولي لهم سواه فهو مولاهم الحقٌ ونصيرهم على عدوهم ، فنعم المولى ونعم النصير.

فإذا شهدت القلوب من القرآن ملكًا عظيمًا رحيمًا جوادًا جميلا، هذا شأنه، فكيف لا تحبه، وينافس فى القرب منه، وتنفق أنفاسها في التودد إليه، ويكون أحب إليها من كل ما سواه ورضاه آثر عندها من رضا كل ما سواه؟ وكيف لا تلهج بذكره، ويصير حبه والشوق إليه والأنس به هو غذاؤها وقوتها ودواؤها، بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت ولم تنتفع بحياتها؟!

٩/ ١٧٥- أرض الفطرة رحبة قابلة لما يغرس فيها، فإن غرست شجرة الإيمان والتقوى أورثت حلاوة الأبد، وإن غرست شجرة الجهل والهوى فكل الثمر مر .

١٠/ ١٧٦- سبق العلم بنبوة موسى- عليه السلام - وإيمان آسية (امرأة فرعون)، فسيق تابوته إلى بيتها فجاء طفل منفرد عن أم إلى أمرأة خالية عن ولد، فلله كم فى هذه القصة من عبرة ، كم ذبح فرعون في طلب موسى من ولد ، ولسان القدر يقول : لا نربيه إلا في حِجرك.

١١/ ١٧٧ -

وعين الرضا لكل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساويا

١٢/ ١٧٨ - ليس في الوجود الممكن سبب واحد مستقل بالتأثير ، بل لا يؤثر سبب البتة إلا بانضمام سبب آخر إليه ، وانتفاء مانع يمنع تأثيره، هذا في الأسباب المشهودة بالعيان ، وفي الأسباب الغائبة ، والأسباب المعنوية كتأثير الشمس في الحيوان والنبات ، فإنه موقوف على أسباب أخر : من وجود محل قابل ، وأسباب أخر تنضم إلى ذلك السبب ، وكذلك حصول الولد موقوف على عدة أسباب غير وطء الفحل ، وكذلك جميع الأسباب مع مسبباتها ، فكل ما يخاف ويرجى من المخلوقات فأعلى غاياته أن يكون جزء سبب غير مستقل بالتأثير ، ولا يستقل

بالتـأثير وحده دون توقـف تأثيره علـى غيره إلا الله الواحد الـقهار، فلا ينـبغي أن يرجى ولا يـخاف غيره، وهذا برهـان قطعى على أن تـعلق الرجاء والخوف بـغيره باطل، فإنه لو فرض أن ذلك سبب مستقل وحده بالـتأثير لكانت سببيته من غيره لا منه ، فليس له مـن نفسه قوة يفعل بها ، فإنه لا حـول ولا قوة إلا بالله فهو الذى بيده الحول كله والقوة كلها ، فالحول والقوة التى يرجى لأجلهما المخلوق ويخاف ، إنما هما لله وبيده في الحقيقة ، فكـيف يخاف ويرجى من لا حول له ولا قوة ، بل خوف المخلوق ورجاؤه أحد أسباب الحرمان ونزول المكروه بمن يرجوه ويخافه ، فإنه علـى قدر خوفـك من غير الله يـسلط عـليك ، وعلـى قدر رجائـك لغيره يـكون الحرمان، وهذا حال الخلق أجمعه وإن ذهب عـن أكثرهم علمًا وحالا، فما شاء الله كان ولابد ، وما لم يشأ لم يكن ولو اتفقت عليه الخليقة.

١٣/ ١٧٩ - الأصول التـي انبنى عليـها سعادة العبـد ثلاثة ، ولكل واحد مـنها ضد، فمن فقد ذلك الأصل حصل على ضده:

- التوحيد وضده الشرك.
- السنة وضدها البدعة .
- الطاعة وضدها المعصية.

ولهذه الثلاثة ضد واحـد : وهو خلو القلب من الرغبة فى الله وفـيما عنده ومن الرهبة منه ومما عنده.

١٤/ ١٨٠ - التوحيد مفزع أعـدائه وأوليائه سبحانه : فأما أعداؤه فـينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها **﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾** «العنكبوت : ٦٥». وأما أولياؤه فيـنجيهم به من كربات الدنيا والآخرة وشدائدها ، ولذلك فزع إليه يونس (عليه السلام) فنجاه الله من تلك الظلمات ، وفزع إليه أتباع الرسل فنجوا به مما عذب به المشركون في الدنيا وما أعد لهم في الآخرة ، ولما فزع إلـيه فرعون عند معاينة الهلاك وإدراك الـغرق لم ينفعه؛ لأن الإيمان عند المعاينة لا يقبل ، هذه سنة الله فـى عباده ، فما دفعت شدائد الدنيا

بمثل التوحيد ، ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد[١]، ودعوة ذى النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربه بالتوحيد ، فلا يلقي فى الكرب العظام إلا الشرك ، ولا ينجي منها إلا التوحيد ، فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها، وبالله التوفيق.

١٥/ ١٨١ - لشهادة «أن لا إله إلا الله» عند الموت تأثير عظيم فى تكفير السيئات وإحباطها ، لأنها شهادة من عبد موقن بها عارف بمضمونها، قد ماتت منه الشهوات ولانت نفسه المتمردة ، وانقادت بعد إبائها واستعصائها ، وأقبلت بعد إعراضها ، وذلت بعد عزها ، وخرج منها حرصها على الدنيا وفضولها، واستخذت بين يدى ربها وفاطرها ومولاها الحق أذل ما كانت ، وأرجى ما كانت لعفوه ومغفرته ورحمته ، وتجرد منها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك وتحقق بطلانه، فزالت منها تلك المنازعات التي كانت مشغولة بها ، واجتمع همها على من أيقنت بالقدوم عليه والمصير إليه ، فوجد العبد وجهه بكليته إليه، وأقبل بقلبه وروحه وهمه عليه ، فاستسلم وحده ظاهرًا وباطنًا ، واستوى سره وعلانيته فقال: لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه ، وقد تخلص قلبه من التعلق بغيره، والالتفات إلى ما سواه ، قد خرجت الدنيا كلها من قلبه ، وشارف القدوم على ربه ، وخمدت نيران شهوته ، وامتلأ قلبه من الآخرة فصارت نصب عينيه ، وصارت الدنيا وراء ظهره ، فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله فطهرته من ذنوبه وأدخلته على ربه ، لأنه لقي ربه بشهادة صادقة خالصة ، وافق ظاهرها باطنها ، وسرها علانيتها ، فلو حصلت له الشهادة على هذا الوجه فى أيام الصحة لاستوحش من الدنيا وأهلها ، وفر إلى الله من الناس ، وأنس به دون ما سواه ، لكنه شهد بها بقلب مشحون بالشهوات وحب الحياة وأسبابها ، ونفس مملوءة بطلب الحظوظ والالتفات إلى غير الله ، فلو تجردت كتجردها عند الموت لكان لها نبأ آخر وعيش آخر سوى عيشها البهيمي ، والله المستعان.

---

(١) تقدم نص الدعاء في أول هذا الفصل.

١٦/ ١٨٢ - ماذا يملك من أمره من ناصيته بيد الله ، ونفسه بيده ، وقلبه بين أصبعين من أصابعه ، يقلبه كيف يشاء ، وحياته بيده ، وموته بيده ، وسعادته بيده وشقاوته بيده ، وحركاته وسكناته وأقواله وأفعاله بإذنه ومشيئته ، فلا يتحرك إلا بإذنه ، ولا يفعل إلا بمشيئته إن وكله إلى نفسه وكله إلى عجز وضيعة وتفريط وذنب وخطيئة ، وإن وكله إلى غيره وكله إلى من لا يملك له ضراً ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشوراً، وإن تخلى عنه استولى عليه عدوه وجعله أسيرًا له ، فهو لا غنى له عنه طرفة عين ، بل هو مضطر إليه على مدى الأنفاس فى كل ذرة من ذراته باطنًا وظاهرًا ، فاقته تامة إليه ، ومع ذلك فهو متخلف عنه معرض عنه ، يتبغض إليه بمعصيته ، مع شدة الضرورة إليه من كل وجه ، قد صار لذكره نسيًا ، واتخذه وراءه ظهريًا ، هذا وإليه مرجعه وبين يديه موقفه.

١٧/ ١٨٣ - فرغ خاطرك للهم بما أمرت به ولا تشغله بما ضمن لك ، فإن الرزق والأجل قرينان مضمونان ، فما دام الأجل باقيًا كان الرزق آتيًا ، وإذا سد عليك بحكمته طريقًا من طرقه فتح لك برحمته طريقًا أنفع لك منه.

فتأمل حال الجنين يأتيه غذاؤه - وهو الدم - من طريق واحدة وهو السرة ، فلما خرج من بطن الأم وانقطعت تلك الطريق فتح له طريقين اثنين ، وأجرى له فيهما رزقًا أطيب والذ من الأول لبنًا خالصًا سائغًا ، فإذا تمت مدة الرضاع وانقطعت الطريقان بالفطام فتح طرقًا أربعة أكمل منها : طعامان وشرابان ، فالطعامان : من الحيوان والنبات ، والشرابان: من المياه والألبان وما يضاف إليهما من المنافع والملاذ فإذا مات انقطعت عنه هذه الطرق الأربعة ، لكنه سبحانه فتح له - إن كان سعيدًا - طرقًا ثمانية، وهى أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء.

فهكذا الرب سبحانه لا يمنع عبده المؤمن شيئًا من الدنيا إلا ويؤتيه أفضل منه وأنفع له ، وليس ذلك لغير المؤمن ، فإنه يمنعه الحظ الأدنى الخسيس ولا يرضى له به ليعطيه الحظ الأعلى النفيس ، والعبد لجهله بمصالح نفسه وجهله بكرم ربه وحكمته ولطفه لا يعرف التفاوت بين ما منع منه وبين ما ذخر له ، بل هو مولع بحب العاجل وإن كان دنيئًا ، وبقلة الرغبة فى الآجل وإن كان عليًا، ولو أنصف

العبـد ربه - وأنى له بذلـك - لعلم أن فضـله عليه فـيما منعـه من الدنيا ولـذاتها ونعيمها أعظم من فضله عليه فيمـا آتاه من ذلك ، فما منعه إلا ليعطيه ، ولا ابتلاه إلا ليعافيه، ولا امتـحنه إلا ليصافيه ، ولا أماته إلا ليحـييه ، ولا أخرجه إلى هذه الدار إلا ليتأهـب منها للقدوم عليـه وليسلك الطريق الموصـلة إليه فـ ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ «الفرقان: ٦٢»، ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُورًا﴾ «الإسراء : ٩٩» والله المستعان.

١٨/ ١٨٤ - جعل الله بحكمته كل جزء من أجزاء ابن آدم ، ظاهرة وباطنة ، آلة لشيء إذا استعمل فيه فهو كماله : فالـعين آلة للنظر ، والأذن آلة للسماع، والأنف آلة للشم ، واللسان للنطق ، والفرج للـنكاح ، واليد للبطش ، والرِّجل للمشي ، والقلب للتوحيد والمـعرفة ، والروح للمحبة ، والعقل آلة للتفـكير والتدبر لعواقب الأمور الدينية والدنيوية ، وإيثار ما ينبغي إيثاره وإهمال ما ينبغى إهماله.

١٩/ ١٨٥ - «الإيمـان واليقيـن» يورثان صـحة المعـرفة وصحة الإرادة ، وهـما يورثان الإيمان ويمدانه، ومن هنا يتبيـن انحراف أكثر الناس عن الإيمان لانحرافهم عن صحـة المعرفة وصحة الإرادة ، ولا يـتم الإيمان إلا بتلـقى المعرفة من مـشكاة النبوة، وتجريـد الإرادة عن شوائب الهوى وإرادة الخلق، فـيكون علمه مقتـبسًا من مشكاة القـرآن ، وإرادته لله والدار الآخرة، فهذا أصح الناس علـمًا وعملا ، وهو من الأئمة الذين يهدون بأمر الله ومن خلفاء رسوله ﷺ فى أمته.

٢٠/ ١٨٦ - الإيمان لـه ظاهر وباطن ، وظاهـره قول اللسان وعـمل الجوارح، وباطنه تصديق القلب وانقياده ومـحبته ، فلا ينفع ظاهر لا باطن له ، وإن حقن به الدماء وعصم به المال والذرية ، ولا يجزئ باطن لا ظـاهر له إلا إذا تعـذر بعجز أو إكراه وخوف هلاك، فتخـلف العمل ظاهرًا مع عدم المانع دليل عـلى فساد الباطن وخلوه مـن الإيمان ، ونقـصه دليل نـقصه ، وقوتـه دليل قوتـه ، فالإيمان قـلب الإسلام ولبه، واليقين قلب الإيمان ولبه ، وكل علم وعمل لا يزيد الإيمان واليقين قوة فمدخول، وكل إيمان لا يبعث على العمل فمدخول.

٢١/١٨٧ - معرفة الله سبحانه نوعان :

الأول : معرفة إقرار - وهي التي اشترك فيها الناس ، البر والفاجر ، المطيع والعاصي.

والثاني : معرفة توجب الحياء منه والمحبة له ، وتعلق القلب به ، والشوق إلى لقائه ، وخشيته، والإنابة إليه ، والأنس به، والفرار من الخلق إليه ، وهذه هي المعرفة الخاصة الجارية على لسان القوم ، وتفاوتهم فيها لا يحصيه إلا الذي عرفهم بنفسه ، وكشف لقلوبهم من معرفته ما أخفاه عن سواهم . وكل أشار إلى هذه المعرفة بحسب مقامه وما كشف له منها، وقد قال أعرف الخلق به ﷺ : «لا أحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك» وأخبر أنه سبحانه يفتح عليه يوم القيامة من محامده بما لا يحسنه الآن.

٢٢/١٨٨ - ولهذه المعرفة بابان واسعان :

الباب الأول : التفكير والتأمل في آيات القرآن كلها ، والفهم الخاص عن الله ورسوله ﷺ .

والباب الثاني : التفكر في آياته المشهودة، وتأمل حكمته فيها، وقدرته ولطفه وإحسانه ، وعدله وقيامه بالقسط على خلقه ، وجماع ذلك: الفقه في معاني أسمائه الحسنى وجلالها وكمالها وتفرده بذلك وتعلقها بالخلق والأمر، فيكون فقيهًا في أوامره ونواهيه، فقيهًا في قضائه وقدره، فقيهًا في أسمائه وصفاته، فقيهًا في الحكم الديني الشرعي، والحكم الكوني القدري، و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ واللهُ ذُو الفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ «الجمعة: ٤»، «الحديد: ٢١».

٢٣/١٨٩ - من أراد علو بنيانه فعليه بتوفيق أساسه، وإحكامه وشده، والاعتناء به، فإن علو البنيان على قدر توثيق الأساس وإحكامه ، فالأعمال والدرجات بنيان وأساسها الإيمان ، ومتى كان الأساس وثيقًا حمل البنيان واعتلى عليه ، وإذا تهدم شيء من البنيان سهل تداركه ، وإذا كان الأساس غير وثيق ، لم يرتفع البنيان ولم يثبت ، وإذا تهدم شيء من الأساس سقط البنيان أو كاد.

فالعارف همته تصحيح الأساس ، فلا يلبث بنيانه أن يسقط ، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ «التوبة : ١٠٩»، فالأساس لبناء الأعمال كالقوة لبدن الإنسان ، فإذا كانت القوة قوية حملت البدن ودفعت عنه كثيرًا من الآفات ، وإذا كانت القوة ضعيفة ضعف حملها للبدن ، وكانت الآفات إليه أسرع شيء.

٢٤/ ١٩٠ - فاحمل بنيانك على قوة أساس الإيمان، فإذا تشعث شيء من أعالى البناء وسطحه كان تداركه أسهل عليك من خراب الأساس، وهذا الأساس أمران :

الأول : صحة المعرفة بالله سبحانه وأمره وأسمائه وصفاته.

والثانى : تجريد الانقياد له ولرسوله دون ما سواه.

فهذا أوثق أساس أسس العبد عليه بنيانه ، وبحسبه يعتلى البناء ما شاء، فاحكم الأساس واحفظ القوة ، ودُم على الحمية ، واستفرغ إذا زاد بك الخلط، والقصد القصد وقد بلغت المراد ، وإلا فما دامت القوة ضعيفة والمادة الفاسدة موجودة والاستفراغ معدومًا :

فاقر السلام على الحياة فإنها قد آذنتك بسرعة التوديع

فإذا كمل البناء فبيضه بحسن الخلق ، والإحسان إلى الناس، ثم حُطْهُ بسور من الحذر لا يقتحمه عدو ولا تبدو منه العورة ، ثم ارْخِ الستور على أبوابه، ثم اقفل الباب الأعظم بالسكوت عما تخشى عاقبته ، ثم ركب له مِفْتاحًا من ذكر الله؛ به تفتحه وتغلقه ، فإن فتحت فتحت بالمفتاح ، وإن أغلقت الباب أغلقته به ، فتكون حينئذ قد بنيت حصنًا تحصنت فيه من أعدائك إذا أطاف به العدو لم يجد منه مدخلا فييأس منك ثم تعاهد بناء الحصن كل وقت ، فإن العدو إذا لم يطمع فى الدخول من الباب نقب عليك النقوب من بعيد بمعاول الذنوب ، فإن أهملت أمره وصل إليك النقب، فإذا العدو معك في داخل الحصن فيصعب عليك إخراجه، وتكون معه على ثلاث خلال : إما أن يغلبك على الحصن ويستولى عليه، وإما أن

يساكنك فيه، وإما أن يشغلك بمقابلته عن تمام صحتك، وتعود إلى سد النقب، ولم شعث الحصن .

وإذا دخل نقبه إليك نالك منه ثلاث آفات :

إفساد الحصن - والإغارة على حواصله وذخائره - ودلالة السراق من بني جنسه على عورته، فلا تزال تبلى منه بغارة بعد غارة، حتى يضعفوا قواك، ويوهنوا عزمك، فتتخلى عن الحصن وتخلي بينهم وبينه .

وهذه حال أكثر النفوس مع العدو، ولهذا تراهم يسخطون ربهم برضا أنفسهم بل برضا مخلوق مثلهم لا يملك لهم ضراً ولا نفعًا، ويضيعون كسب الدين بكسب الأموال ، ويهلكون أنفسهم بما لا يبقى لهم ، ويحرصون على الدنيا وقد أدبرت عنهم، ويزهدون فى الآخرة وقد هجمت عليهم ، ويخالفون ربهم باتباع أهوائهم، ويتكلون على الحياة ولا يذكرون الموت ، ويذكرون شهواتهم وحظوظهم وينسون ما عهد الله إليهم ، ويهتمون بما ضمنه الله لهم ولا يهتمون بما أمرهم به ، ويفرحون بالدنيا ويحزنون على فوات حظهم منها ولا يحزنون على فوات الجنة وما فيها، ولا يفرحون بالإيمان فرحهم بالدرهم والدينار ، ويفسدون حقهم بباطلهم، وهداهم بضلالهم ، ومعروفهم بمنكرهم ، ويلبسون إيمانهم بظنونهم ، ويخلطون حلالهم بحرامهم ، ويترددون في حيرة آرائهم وأفكارهم ، ويتركون هدى الله الذى أهداه إليهم ، ومن العجب أن هذا العدو يستعمل صاحب الحصن في هدم حصنه بيديه.

١٩١/٢٥ - أركان الكفر أربعة : الكبر ، والحسد ، والغضب ، والشهوة.

فالكبر : يمنع العبد الانقياد . **والحسد** : يمنعه قبول النصيحة وبذلها .

والغضب : يمنعه العدل . **والشهوة** : تمنعه التفرغ للعبادة .

فإذا انهدم ركن الكبر سهل عليه الانقياد ، وإذا انهدم ركن الحسد سهل عليه قبول النصح وبذله ، وإذا انهدم ركن الغضب سهل عليه العدل والتواضع ، وإذا انهدم ركن الشهوة سهل عليه الصبر والعفاف والعبادة .

وزوال الجبال عن أماكنها أيسر من زوال هذه الأربعة عمن بُلي بها ، ولا سيما إذا صارت هيئات راسخة وملكات وصفات ثابتة ، فإنه لا يستقيم له معها عمل البتة ، ولا تزكو نفسه مع قيامها بها ، وكلما اجتهد في العمل أفسدته عليه هذه الأربعة ، وكل الآفات متولدة منها ، وإذا استحكمتْ في القلب أَرَتْهُ الباطل في صورة الحق ، والحق في صورة الباطل ، والمعروف في صورة المنكر والمنكر في صورة المعروف ، وقربت منه الدنيا وبعدت منه الآخرة.

وإذا تأملتَ كفر الأمم رأيته ناشئًا منها ، وعليها يقع العذاب ، وتكون خفته وشدته بحسب خفتها وشدتها ، فمن فتحها على نفسه فتح عليه أبواب الشرور كلها عاجلا وآجلا ، ومن أغلقها على نفسه أغلق عنه أبواب الشرور ، فإنها تمنع الانقياد والإخلاص ، والتوبة والإنابة ، وقبول الحق ونصيحة المسلمين ، والتواضع لله ولخلقه.

ومنشأ هذه الأربعة من جهل الإنسان بنفسه ، فإنه لو عرف ربه بصفات الكمال ونعوت الجلال ، وعرف نفسه بالنقائص والآفات لم يتكبر ولم يغضب لها ، ولم يحسد أحدًا على ما آتاه الله ، فإن الحسد في الحقيقة نوع من معاداة الله ، فإنه يكره نعمة الله على عباده وقد أحبها الله ، ويحب زوالها عنه ، والله يكره ذلك فهو مضاد لله في قضائه وقدره ومحبته وكراهته ، ولذلك كان إبليس عدوه حقيقة ، لأن ذنبه كان عن كبر وحسد ، فقلع هاتين الصفتين بمعرفة الله وتوحيده والرضا به وعنه والإنابة إليه ، وقلع الغضب بمعرفة النفس وإنها لا تستحق أن يغضب لها وينتقم لها ، فإن ذلك إيثار لها بالرضا والغضب على خالقها وفاطرها.

وأعظم ما تدفع به هذه الآفة أن يعودها أن تغضب له سبحانه ، وترضى له ، وكلما دخلها شيء من الغضب والرضا له، خرج منها مقابله من الغضب والرضا لها ، وكذا بالعكس.

أما الشهوة فدواؤها صحة العلم والمعرفة بأن إعطاءها شهواتها أعظم أسباب حرمانها إياها ومنعها منها ، وحميتها أعظم أسباب اتصالها إليها، فكلما فتحت

عليها باب الشهوات كنت ساعيًا في حرمانها إياها ، وكلما أغلقت عنها ذلك الباب كنت ساعيًا فى إيصالها إليها على أكمل الوجوه.

فالغضب مثل السبع إذا أفلته صاحبه بدأ بأكله ، والشهوة مثل النار إذا أضرمها صاحبها بدأت بإحراقه ، والكبر بمنزلة الملك في ملكه فإن لم يهلكك طردك عنه ، والحسد بمنزلة معاداة من هو أقدر منك ، والذى يغلب شهوته وغضبه يَفْرَقُ الشيطان من ظله ، ومن تغلبه شهوته وغضبه يَفْرَقُ من خياله.

٢٦/ ١٩٢ - من الناس من يعرف الله بالجود والأفضال والإحسان ، ومنهم من يعرفه بالعفو والحلم والتجاوز ، ومنهم من يعرفه بالبطش والانتقام ، ومنهم من يعرفه بالعلم والحكمة ، ومنهم من يعرفه بالعزة والكبرياء ، ومنهم من يعرفه بالرحمة والبر واللطف ، ومنهم من يعرفه بالقهر والملك، ومنهم من يعرفه بإجابة دعوته وإغاثة لهفته وقضاء حاجته.

وأعم هؤلاء معرفة من عرفه من كلامه ، فإنه يعرف ربًا قد اجتمعت له صفات الكمال ونعوت الجلال ، منزه عن المثال ، بريء من النقائص والعيوب ، له كل اسم حسن ، وكل وصف كمال ، فعال لما يريد ، فوق كل شيء ومع كل شيء، وقادر على كل شيء ، ومقيم لكل شيء ، آمرٌ ، ناهٍ ، متكلم بكلماته الدينية والكونية ، أكبر من كل شيء وأجمل من كل شيء ، أرحم الراحمين وأقدر القادرين وأحكم الحاكمين، فالقرآن أنزل لتعريف عباده به وبصراطه الموصول إليه، وبحال السالكين بعد الوصول إليه.

٢٧/ ١٩٣ - التوحيد : ألطف شيء ، وأنزهه ، وأنظفه ، وأصفاه ، فأدنى شيء يخدشه ويدنسه ، ويؤثر فيه ، فهو كأبيض ثوب يكون ، يؤثر فيه أدنى أثر، وكالمرآة الصافية جدًا، أدنى شيء يؤثر فيها ، ولهذا تشوشه اللحظة واللفظة والشهوة الخفية، فإن بادر صاحبه وقلع ذلك الأثر بضده، وإلا استحكم وصار طبعًا يتعسر عليه قلعه.

وهذه الآثار والطبوع التي تحصل فيه : منها ما يكون سريع الحصول سريع

الزوال، ومنـها ما يكون سـريع الحصول بطـيء الزوال ، ومنـها ما يكون بـطيء الحصول سريع الزوال ، ومنها ما يكون بطيء الحصول بطيء الزوال.

ولكن من الناس من يكون توحيده كبيرًا عظيمًا ، ينغمر فيه كثير من تلك الآثار، ويستحيل فيه بمنزلة الماء الكثير الـذي يخالطه أدنى نجاسة أو وسخ، فيغتر به صاحب التوحيـد الذي هو دونه ، فيخلـط توحيده الضعيـف بما خلط به صاحب الـتوحيد العظيم الكثير توحيده ، فيظهر من تأثيره فيه ما لم يظهر في التوحيد الكثير.

وأيضًا فإن المحل الصافى جدًا يظهر لصاحبه مما يدنسه ما لا يظهر في المحل الذي لم يبلغ في الصفاء مبلغه فيتداركه بالإزالة دون هذا ، فإنه لا يشعر به.

وأيضًا فإن قوة الإيمان والتوحيد إذا كانت قوية جدًا أحالت المواد الرديئة وقهرتها بخلاف الـقوة الضعيفـة ، وأيضًا فإن صاحب المحـاسن الكثيـرة والغامرة للسـيئات ليسامح بما لا يسامح به من أتى مثل تلك السيئات وليست له مثل تلك المحاسن .

٢٨/ ١٩٤ - كمال قيل :

وإذا الحـبيـب أتى بـذنب واحـدٍ جاءت مـحاسـنه بـألف شـفيـع

وأيضًا فإن صدق الطلب وقوة الإرادة ، وكمال الانـقياد ، يحيل تلك العوارض والغواشي الـغريبة إلى مقـتضاه وموجبه ، كمـا أن الكذب وفساد القـصد وضعف الانقياد يحيل الأقوال والأفعال المدوحة إلى مقتضاه وموجبه ، كما يشاهد ذلك في الأخلاط الغالبة وإحالتها لصالح الأغذية إلى طبعها.

٢٩/ ١٩٥ - من أعز أنواع المعرفة «معرفة الرب» سـبحانه بالجمال ، وَهي معرفة خواص الخلق وكلهم عرفه بصفة من صفاتـه وأتمهم معرفة من عرفه بكماله وجلاله وجماله سبحانه لـيس كمثله شيء في سائر صفاته ، ولو فرضـت الخلق كلهم على أجملهـم صورة وكلهم على تـلك الصورة، ونسبت جـمالهم الظاهر والـباطن إلى جمال الرب سبحانه لكان أقل من نسبـة سراج ضعيف إلى قرص الشمس، ويكفي في جماله أنه لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحاته ما انتهى إليه بصره من خلقه، ويكـفي في جماله أن كل جمـال ظاهر وباطن فى الدنيـا والآخرة فمن آثار صنعته، فما الظن بمن صدر منه هذا الجمال ؟

ويكفي في جماله أنه له العزة جميعاً والقوة جميعاً، والجود كله، والإحسان كله، والعلم كله، والفضل كله، ولنور وجهه أشرقت الظلمات كما قال النبى ﷺ فى دعاء الطائف : «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة»(١)

وقال عبد الله بن مسعود : ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات والأرض من نور وجهه (٢) ، وهو سبحانه نور السموات والأرض ، ويوم القيامة إذا جاء لفصل القضاء تشرق الأرض بنوره.

٣٠/١٩٦ - ومن أسمائه الحسنى «الجميل».

وفي «الصحيح» عنه ﷺ : «إن الله جميل يحب الجمال»(٣).

وجماله سبحانه على أربع مراتب : جمال الذَّات ، وجمال الصفات ، وجمال الأفعال ، وجمال الأسماء، فأسماؤه كلها حسنى ، وصفاته كلها صفات كمال ، وأفعاله كلها حكمة ومصلحة وعدل ورحمة.

---

(١) (ضعيف الإسناد) ذكره الهيثمى في «المجمع» (٦/ ٣٥) وعزاه للطبراني وقال : وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة ، وبقية رجاله ثقات. اهـ. ونقل الألباني قول الهيثمي هذا في «فقه السيرة» للشيخ الغزالي (١٣٣) وضعف الحديث ، وأورد المصنف في «اجتماع الجيوش» ص ١١ عن ابن مسعود ﷺ قال : «ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات والأرض من نور وجهه» وعزاه للطبراني في «المعجم» و «السنة» وانظر «تفسير ابن كثير» عند قوله تعالى : ﴿الله نور السموات والأرض﴾ «النور : ٣٥» ، وانظر «اجتماع الجيوش» لابن القيم بتحقيقي طبعة / نزار الباز - مكة. ومقدمتنا لكتاب «مشكاة الأنوار» لأبي حامد الغزالي - طبعة دار الحرم للتراث بالقاهرة .

(٢) انتهى ها هنا قول ابن مسعود وقد ذكره ابن كثير في «تفسيره» ، في تفسير سورة النور: آية ٣٥ بلفظ : إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش من نور وجهه ، وانظر المصدر السابق.

(٣) أخرجه مسلم (كتاب الإيمان / ١٤٧)، والإمام أحمد (١/ ٣٨٥ ، ٤٢٧ ، ٤/ ١٣٣ - ١٣٤ - ١٥١ - ٢٤١)، وأبو داود (٤٠٩١) ، والترمذي (١٩٩٨) ، والحاكم (١/ ٢٦) وغيرهم.

وأما جمال الذَّات وما هو عليه : فأمر لا يدركه سواه ، ولا يعلمه غيره، وليس عند المخلوقين منه إلا تعريفات تعرف بها إلى من أكرمه من عباده ، فإن ذلك الجمال مصون عن الأغيار ، محجوب بستر الرداء والإزار، كما قال ﷺ فيما حكى عن ربه عز وجل : «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري»[1]، ولما كانت الكبرياء أعظم وأوسع كانت أحق باسم الرداء ، فإنه سبحانه الكبير المتعال ، فهو سبحانه العلي العظيم.

قال ابن عباس رضي الله عنه : حجب الذَّات بالصفات ، وحجب الصفات بالأفعال ، فما ظنك بجمال حجب بأوصاف الكمال ، وسُتِر بنعوت العظمة والجلال؟ .

ومن هذا المعنى يفهم بعض معاني جمال ذاته، فإن العبد يترقى من معرفة الأفعال إلى معرفة الصفات ، ومن معرفة الصفات إلى معرفة الذَّات ، فإذا شاهد شيئًا من جمال الأفعال استدل به على جمال الصفات ثم استدل بجمال الصفات على جمال الذَّات.

١٩٧/٣١ - ومن هنا يتبين أنه سبحانه له الحمد كله ، وأن أحدًا من خلقه لا يحصي ثناءً عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، وأنه يستحق أن يُعبد لذاته ، ويُحَب لذاته ، ويُشكر لذاته ، وأنه سبحانه يحب نفسه ويُثني على نفسه ، ويحمد نفسه ، وأن محبته لنفسه وحمده لنفسه ، وثناءه على نفسه ، وتوحيده لنفسه هو في الحقيقة الحمد والثناء والحب والتوحيد ، فهو سبحانه كما أثنى على نفسه وفوق ما يُثني به عليه خلقه، وهو سبحانه كما يحب ذاته يحب صفاته وأفعاله ، فكل أفعاله حسن محبوب ، وإن كان في مفعولاته (مخلوقاته) ما يبغضه ويكرهه ، فليس في أفعاله ما هو مكروه مسخوط وليس في الوجود ما يحب لذاته ويحمد

---

(١) (حديث صحيح بلفظ : والعزة إزاري) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٧٦ - ٤١٤ - ٤٢٧ - ٤٤٢)، وأبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٧٤ - ٤١٧٥) ، وابن حبان (٤٩ - موارد) ، وسكت عنه أبو داود والمنذري وقال : وأخرجه مسلم من حديث أبي سعيد وأبي هريرة بنحوه . ا هـ.

قلت : والذي في مسلم (٢٦٢٠) بلفظ : «والعز إزاره» ، وهو الذي رجحه الألباني وعد لفظ «والعظمة» من تخاليط عطاء ، وانظر «الصحيحة» (٥٤١).

لذاته إلا هو سبحانه ، وكل ما يحب سواه فإن كانت محبته تابعة لمحبته سبحانه بحيث يُحب لأجله فمحبته صحيحة وإلا فهي محبة باطلة ، وهذا هو حقيقة الإلهية ، فإن الإله الحق هو الذي يُحب لذاته ويُحمد لذاته ، فكيف إذا انضاف إلى ذلك إحسانه وإنعامه وحلمه وتجاوزه وعفوه وبره ورحمته؟!

١٩٨/٣٢ - فعلى العبد أن يعلم أنه لا إلا الله فيحبه ويحمده لذاته وكماله ، وأن يعلم أنه لا محسن على الحقيقة بأصناف النعم الظاهرة والباطنة إلا هو فيحبه لإحسانه وإنعامه ، ويحمده على ذلك فيحبه من الوجهين جميعًا ، وكما أنه ليس كمثله شيء فليس كمحبته محبة ، والمحبة مع الخضوع هي العبودية التى خلق الخلق لأجلها ، فإنها غاية الحب بغاية الذل ، ولا يصلح ذلك إلا له سبحانه ، والإشراك به في هذا هو الشرك الذي لا يغفره الله ولا يقبل لصاحبه عملا.

١٩٩/٣٣ - وحمده سبحانه يتضمن أصلين :

(أ) الإخبار بمحامده وصفات كماله.

(ب) والمحبة له عليها ، فمن أخبر بمحاسن غيره من غير محبة له لم يكن حامدًا، ومن أحبه من غير إخبار بمحاسنه لم يكن حامدًا، حتى يجمع الأمرين .

وهو سبحانه يحمد نفسه بنفسه، ويحمد نفسه بما يجريه على ألسنة الحامدين له من ملائكته وأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين ، فهو الحامد لنفسه بهذا وهذا؛ فإن حمدهم له بمشيئته وإذنه وتكوينه ، فإنه هو الذي جعل الحامد حامدًا، والمسلم مسلمًا، والمصلى مصليًا ، والتائب تائبًا ، فمنه ابتدأت النعم ، وإليه انتهت، فابتدأت بحمده وانتهت إلى حمده، وهو الذى ألهم عبده التوبة وفرح بها أعظم فرح وهى من فضله وجوده، وألهم عبده الطاعة وأعانه عليها ثم أثابه عليها ، وهي من فضله وجوده ، وهو سبحانه غنيٌّ عن كل ما سواه بكل وجه ، وما سواه فقير إليه بكل وجه ، والعبد مفتقر إليه لذاته في الأسباب والغايات ، فإن ما لا يكون به لا يكون ، وما لا يكون له لا ينفع .

٢٠٠/٣٤ - وقوله في الحديث : «إن الله جميل يحب الجمال» : يتناول جمال الثياب المسئول عنه في نفس الحديث ، ويدخل فيه بطريق العموم : الجمال من كل

شيء كما في الحديث الآخر : «إن الله نظيف يحب النظافة»[١] .

وفي «الصحيح» : «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا»[٢] وفي «السنن» : «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»[٣]، وفيها أيضًا عن أبي الأحوص الجشمي قال «رآني النبيُّ ﷺ وَعَلَيَّ أطمار ، فقال: هل لك من مال ؟ قلت : نعم ، قال ﷺ : من أي المال؟ قلت: من كل ما آتى الله من الإبل والشاء ، قال ﷺ : «فَلْتُرِ نعمته وكرامته عليك»[٤].

٣٥/ ٢٠١ - فهو سبحانه يحب ظهور أثر نعمته على عبده ، فإنه من الجمال الذي يحبه ، وذلك من شكره على نعمه ، وهو جمال باطن فيجب أن يرى على عبده الجمال الظاهر بالنعمة ، والجمال الباطن بالشكر عليها ، ولمحبته سبحانه للجمال أنزل على عباده لباسًا وزينة تجمل ظواهرهم ، وتَقْوى تجمل بواطنهم، قال تعالى : ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ «الأعراف: ٢٦» ، وقال في أهل الجنة : ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ «الإنسان : ١١، ١٢».

فجمَّل وجوههم بالنضرة ، وبواطنهم بالسرور ، وأبدانهم بالحرير.

وهو سبحانه كما يحب الجمال في الأقوال والأفعال واللباس والهيئة ، يبغض القبيح من الأقوال والأفعال والثياب والهيئة:

---

(١) **(حديث ضعيف الإسناد)** أخرجه الترمذي (٢٧٩٩) مطولا وقال: هذا حديث غريب وخالد بن إلياس يضعف. ا هـ قال الحافظ ابن حجر عنه : متروك الحديث.
والحديث ضعفه الألباني في «ضعيف الترمذي» ، وانظر «كشف الخفاء » (١/ ٣٤١).

(٢) أخرجه مسلم في (الزكاة / ٦٥) ، والإمام أحمد (٢/ ٣٢٨) وغيرهما.

(٣) **(حسن)** أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٢١٣) ، والترمذي (٢٨١٩) وقال : هذا حديث حسن . اهـ، وأخرجه الحاكم (٤/ ١٣٥) وقال : صحيح الإسناد. ا هـ وذكره الحافظ في «الفتح» ونقل تحسين الترمذي له وقال : وله شاهد عند أبي يعلى من حديث أبي سعيد . ا هـ.

(٤) **(صحيح)** أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤٧٣ ، ٤/ ١٣٧) ، والترمذي (٢٠٠٦) وقال: حديث حسن صحيح . ا هـ، وأخرجه الحاكم (١/ ٢٥ ، ٤/ ١٨١) وقال : صحيح الإسناد . ا هـ. ورواه النسائي (٨/ ١٩٦). وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٢٠).

٢٠٢/٣٦ - فيبغض القبيح وأهله ، ويحب الجمال وأهله ، ولكن ضل في هذا الموضوع فريقان :

(أ) فريق قالوا : كل ما خلقه سبحانه جميل فهو يحب كل ما خلقه ، ونحن نحب جميع ما خلقه فلا نبغض منه شيئًا ، قالوا : ومن رأى الكائنات منه رآها كلها جميلة ، وأنشد منشدُهم:

وإذا رأيت الكائنات بعينهم فجميع ما يحوى الوجود مليح

واحتجوا بقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ «السجدة : ٧» وقوله : ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ «النمل : ٨٨» وقوله : ﴿مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ «الملك : ٣»، والعارف عندهم هو الذي يصرح بإطلاق الجمال ولا يرى في الوجود قبيحًا ، وهؤلاء قد عُدِمت الغيرة لله من قلوبهم ، والبغض في الله. والمعاداة فيه، وإنكار المنكر ، والجهاد فى سبيله ، وإقامة حدوده ، ويرى جمال الصور من الذكور والإناث من الجمال الذي يحبه الله[1] فيتعبدون بفسقهم ، وربما غلا بعضهم حتى يزعم أن معبوده يظهر في تلك الصورة ويحل فيها ، وإن كان اتحاديًا قال : هى مظهر من مظاهر الحق ويسميها المظاهر الجمالية.

(ب) وقابلهم الفريق الثاني فقالوا : قد ذم الله سبحانه جمال الصور ، وتمام القامة والخلقة ، فقال سبحانه عن المنافقين : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ «المنافقون : ٤» وقال - عز وجل - : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾ «مريم: ٧٤» ، أي : أموالا ومناظر ، قال الحسن : هو الصور ، وفى «صحيح مسلم» عنه ﷺ : «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[2].

قالوا : ومعلوم أنه لم ينفِ نظر الإدارك ، وإنما نفى نظر المحبة.

---

(١) وصرح بهذا المذهب كثير من الكُتاب اليوم ، كُتّاب الأدب - زعمًا .

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) ، والإمام أحمد (٢/ ٢٨٥ - ٥٣٩) ، وابن ماجه (٤١٤٣) وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قالوا : وقد حرم علينا لباس الحرير والذهب وآنية الذهب والفضة ، وذلك من أعظم جمال الدنيا.

وقال تعالى : ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ «طه : ١٣١».

وفى الحديث : «البذاذة من الإيمان»[١].

وقد ذم الله المسرفين ، والسرف كما يكون فى الطعام والشراب يكون في اللباس.

٣٧/ ٢٠٣ - وفصل النزاع أن يقال : الجمال فى الصورة واللباس والهيئة ثلاثة أنواع :

منه ما يحمد ، ومنه ما يذم ، ومنه ما لا يتعلق به مدح ولا ذم.

فالمحمود منه : ما كان لله وأعان على طاعة الله وتنفيذ أوامره ، والاستجابة له.

كما كان النبى ﷺ يتجمل للوفود ، وهو نظير لباس آلة الحرب للقتال ولباس الحرير في الحرب والخيلاء فيه ، فإن ذلك محمود إذا تضمن إعلاء كلمة الله ونصر دينه وغيظ عدوه.

والمذموم منه : ما كان للدنيا ، والرياسة ، والفخر ، والخيلاء ، والتوسل إلى الشهوات ، وأن يكون هو غاية العبد وأقصى مطلبه ، فإن كثيرًا من النفوس ليس لها همة في سوى ذلك.

وأما ما لا يحمد ولا يذم : هو ما خلا عن هذين القصدين وتجرد عن الوصفين.

---

(١) (صحيح) أخرجه أبو داود (٤١٦١) مطولا ، وقال : البذاذة : يعنى التقحل. ا هـ. وأخرجه ابن ماجه (٤١١٨) . وقال : يعني التقشف . ا هـ.

وقال فيه الألباني : وهذا إسناد رجاله ثقات غير أيوب بن سويد ، قال الحافظ : صدوق يخطيء ، قلت: فهو لا بأس به في المتابعات ، وقد توبع، ثم ذكر طرقًا أخرى وشواهد له فانظر «الصحيحة» (٣٤١) ، وقال المنذري : المتقحل: الرجل اليابس الجلد السيىء الحال . اهـ، وقال الخطابي : البذاذة سوء الهيئة ، والتجوز في الثياب ونحوها. ا هـ.

٣٨/ ٢٠٤ - والمقصود أن هذا الحديث الشريف(١) مشتمل على أصلين عظيمين: فأوله معرفة ، وآخره سلوك ، فيعرف الله سبحانه بالجمال الذي لا يماثله فيه شيء، ويعبد بالجمال الذي يحبه من الأقوال والأعمال والأخلاق فيحب من عَبْده أن يجمل لسانه بالصدق ، وقلبه بالإخلاص والمحبة والإنابة والتوكل ، وجوارحه بالطاعة ، وبدنه بإظهار نعمه عليه في لباسه وتطهيره له من الأنجاس والأحداث والأوساخ والشعور المكروهة، والختان ، وتقليم الأظفار ، فيعرفه بصفات الجمال ، ويتعرف عليه بالأفعال والأقوال والأخلاق الجميلة ، فيعرفه بالجمال الذي هو وصفه، ويعبده بالجمال الذي هو شرعه ودينه ، فجمع الحديث قاعدتين: المعرفة والسلوك.

٣٩/ ٢٠٥ - قوله تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ «الحِجْر : ٢١»، متضمن لِكَنز من الكنوز وهو :

أن كل شيء لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه ، ومفاتيح تلك الخزائن بيديه، وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولايقدر عليه.

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ «النجم : ٤٢» ، متضمن لِكَنز عظيم وهو :

أن كل مراد إن لم يرد لأجله ويتصل به فهو مضمحل منقطع ، فإنه ليس إليه المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها ، فانتهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه.

فهو سبحانه غاية كل مطلوب ، وكل محبوب لا يُحب لأجله فمحبته عناء وعذاب ، وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل ، وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه.

٤٠/ ٢٠٦ - فاجتمع ما يراد منه كله في قوله : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلا عِندَنَا خَزَائِنُهُ ﴾.

---

(١) يعني حديث : إن الله جميل يحب الجمال.

واجتمع ما يراد له كله في قوله : ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾.

فليس وراءه سبحانه غاية تطلب ، وليس دونه غاية إليها المنتهى.

وتحت هذا سرٌّ عظيم من أسرار التوحيد : وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن إلا بالوصول إليه ، وكل ما سواه مما يحب ويراد فمراد لغيره ، وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحدًا إليه المنتهى، ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين ، فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره بطل عليه ذلك، وزال عنه وفارقه أحوج ما كان إليه ، ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه ظفر بنعيمه ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد.

٤١ - العبد دائمًا متقلب بين أحكام الأوامر وأحكام النوازل ، فهو محتاج ، بل مضطر إلى العون عند الأوامر ، وإلى اللطف عند النوازل ، وعلى قدر قيامه بالأوامر يحصل له من اللطف عند النوازل ، فإن كمل القيام بالأوامر ظاهرًا وباطنًا ناله اللطف ظاهرًا وباطنًا ، وإن قام بصورها دون حقائقها وبواطنها ناله اللطف في الظاهر ، وقل نصيبه من اللطف فى الباطن.

فإن قلت : وما اللطف الباطن ؟! فهو ما يحصل للقلب عند النوازل من السكينة والطمأنينة وزوال القلق والاضطراب والجزع، فيستخزى بين يدي سيده ذليلا له مستكينًا ناظرًا إليه بقلبه ساكنًا إليه بروحه وسره ، قد شغله مشاهدة لطفه به عن شدة ما هو فيه من الألم ، وقد غيبه عن شهود ذلك معرفته بحسن اختياره له وأنه عبد محض يجري عليه سيده أحكامه رضي أو سخط ، فإن رضي نال الرضا ، وإن سخط فحظه السخط، فهذا اللطف الباطن ثمرة تلك المعاملة الباطنة ، يزيد بزيادتها ، وينقص بنقصانها.

٤٢/٢٠٧ - إذا جرى على العبد مقدور يكرهه فله فيه ستة مشاهد:

أحدها : مشهد التوحيد ، وأن الله هو الذي قدره وشاءه وخلقه ، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

الثانى : مشهد العدل ، وأنه ماضٍ فيه حكمه ، عدلٌ فيه قضاؤه.

الثالث : مشهد الرحمة ، وأن رحمته فى هذا المقدور غالبة لغضبه وانتقامه ، ورحمته حشوه.

الرابع : مشهد الحكمة ، وأن حكمته سبحانه اقتضت ذلك ، لم يقدره سُدًى ولا قضاه عبثًا.

الخامس : مشهد الحمد ، وأن له سبحانه الحمد التام على ذلك من جميع وجوهه.

السادس : مشهد العبودية ، وأنه عبدٌ محض من كل وجه ، تجرى عليه أحكام سيده وأقضيته بحكم كونه ملكه وعبده، فيصرفه تحت أحكامه القدرية كما يصرفه تحت أحكامه الدينية ، فهو مَحِلٌّ لجريان هذه الأحكام عليه.

٤٣/ ٢٠٨ - الرضا : سكون القلب تحت مجاري الأحكام.

وانظر الفقرات والفوائد برقم :

(٢٥ - ٥٩ - ٦٠ - ٦٢ - ٦٣ - ٧٢ - ٧٨ - ١٦٣ - ٢٣٥ - ٢٧٥ - ٢٩٤ - ٢٩٧ - ٣٥٦ - ٣٦١ - ٣٧٨ إلى ٣٨٤ - ٤٢٤ - ٤٧٥ - ٤٨٤ - ٤٩٦ - ٤٩٨ - ٥١٨ - ٥١٩ - ٥٢٣ - ٥٢٤ - ٥٢٥ - ٥٢٧ - ٥٤٢ - ٥٤٤ - ٥٤٥ - ٥٤٦ - ٥٥٠ - ٥٥٤ - ٥٥٥ - ٥٥٦ - ٥٧٣ - ٥٧٤ - ٦٠٧ - ٦٠٩ - ٦١٢ - ٦١٣ - ٦١٤ - ٦١٥ - ٦١٧ - ٦٢٢ - ٦٢٣ - ٦٢٤ - ٦٤١ - ٦٤٨).



الفصل التاسع

الصبر

١/ ٢٠٩ - من خلقه الله للجنة لم تزل هداياها تأتيه من المكاره ، ومن خلقه للنار لم تزل هداياها تأتيه من الشهوات.

٢/ ٢١٠ - من تَلَمَّحَ حلاوة العافية هانت عليه مرارة الصبر.

٣/ ٢١١ - الصبر على عطش الضر ولا الشرب مِن شرعةِ مَنٍّ.

٤/ ٢١٢ - تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها[1].

٥/ ٢١٣ - سفر الليل لا يطيقه إلا مُضمرِ المجاعة ، والنجائب فى الأول، وحاملات الزاد فى الأخير.

٦/ ٢١٤ - طالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيره وطلبه إلا بحبسين :

- حبس قلبه في طلبه ومطلوبه ، وحبسه عن الالتفات إلى غيره ، وحبس لسانه عما لا يفيد، وحبسه على ذكر الله ، وما يزيد في إيمانه ومعرفته.

- وحبس جوارحه عن المعاصى والشهوات ، وحبسها على الواجبات والمندوبات فلا يفارق الحبس حتى يلقى ربه فيخلصه من السجن إلى أوسع فضاء وأطيبه ومتى لم يصبر على هذين الحبسين، وفر منهما إلى قضاء الشهوات أعقبه ذلك الحبس الفظيع عند خروجه من الدنيا ، فكل خارج من الدنيا : إما متخلص من الحبس وَإِمَّا ذاهب إلى الحبس، وبالله التوفيق.

٧/ ٢١٥ - الطريق إلى الله خالٍ من أهل الشك ، ومن الذين يتبعون الشهوات ، وهو معمور بأهل اليقين والصبر ، وهم على الطريق كالأعلام: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُم

(١) يشير إلى حديث: «يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل» ، والله أعلم.

أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ «السجدة : ٢٤».

٨/٢١٦ -

إن كان يوجب صبري رحمتي فرضا بسـوء حالي وحـل للـضنا بـدني

منحتـك الروح لا أبغي لها ثـمنًا إلاَّ رضـاك ووافقـري إلى الـثمـنِ

٩/٢١٧ - يا أقدام الصبر احملي ، بقي القليل .

١٠/٢١٨ - الجاهل يشكو الله إلـى الناس ، وهذا غاية الجهل بالمشـكو والمشكو إليه فـإنه لو عرف ربـه لَمَا شكاه، ولو عـرف الناس لما شـكا إليهـم ، ورأى بعض السلف رجلا يشكو إلى رجل فاقته وضرورته ، فقال : يا هذا، والله ما زدت على أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك ، وفي ذلك قيل :

وإذا شـكـوت إلـى ابـن آدم إنمـا تشكو الرحيـم إلى الذي لا يرحم

والعارف إنما يشـكو إلى الله وحده ، وأعرف العارفين من جـعل شكواه إلى الله من نفسه لا من الناس، فهو يشكو من موجبات تسليط الناس عليه ، فهو ناظر إلى قوله تعالى : ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ «الشورى : ٣٠» ، وقوله : ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ «النساء : ٧٩»، وقولـه سبحانه : ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا ، قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ «آل عمران : ١٦٥» فالمراتب ثلاث :

- أخسها أن تشكو الله إلى خلقه.
- وأعلاها أن تشكو نفسك إليه.
- وأوسطها أن تشكو خلقه إليه.

١١/٢١٩ - بين رعاية الحقوق مع الضر ، ورعايتها مع العافية ؛ بون بعيد.

١٢/ ٢٢٠ - سأل رجل الشافعي فقال : يا أبـا عبد الله ، أيما أفضل للرجل ، أن يُمكَّن أو يبتلى؟!

قال الشافعي : لا يمكن حتى يبتلى.

فإن الله ابتلى نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فلما صبروا مكّنهم ، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة.

١٣/٢٢١ -

على قدر فضل المـرء تأتي خطوبه ويعـرف عنه الصـبر فيـما يصيـبه

ومن قـل فيـما يتـقيـه اصطـباره فـقد قـل مما يـرتجيـه نـصيبـه

١٤/٢٢٢ - كم قُطِع زَرْعٌ قبل التمام ، فما ظن الزرع المُسْتَحْصَدْ؟

انظر الفقرات والفوائد برقم :

(٣ - ٢١ - ٨٣ - ١٤٣ - ٣٤٩ - ٣٧٦ - ٤٦٨ - ٤٨٠ - ٤٨٥ - ٤٨٦ - ٤٩١ - ٥٣٠ - ٥٤٥ - ٥٤٦ - ٥٦٢ - ٥٦٣ - ٥٧٦ - ٥٨٣ - ٦٥٥ - ٦٥٦).



الفصل العاشر
التقـــوى

١/ ٢٢٣ - التقوى ثلاث مراتب :

إحداها : حمية القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات .

والثانية : حميتها عن المكروهات.

والثالثة : الحمية عن الفضول وما لا يعني.

الأولى : تعطي العبد حياته ، والثانية : تفيده صحته وقوته ، والثالثة: تكسبه سروره وفرحه وبهجته.

٢/ ٢٢٤ - من عَظُمَ وقار الله في قلبه أن يعصيه ، وَقَّرَه الله في قلوب الخلق أن يذلوه.

٣/ ٢٢٥ - لو وقفت عند مُراد التقوى لم يفتك مُراد.

٤/ ٢٢٦ - ودع ابن عون رجلا فقال: عليك بتقوى الله، فإن المتقى ليست عليه وحشة.

٥/ ٢٢٧ - وقال زيد بن أسلم: كان يقال: من اتقى الله أحبه الناس وإن كرهوا.

٦/ ٢٢٨ - وقال الثوري لابن أبي ذئب : إن اتقيت الله كفاك الناس، وإن اتقيت الناس لن يغنوا عنك من الله شيئًا.

٧ / ٢٢٩ - وقال سليمان بن داود عليه السلام : أوتينا مما أوتى الناس ومما لم يؤتوا ، وعلمنا مما علم الناس ومما لم يعلموا ، فلم نجد شيئًا أفضل من تقوى الله في السر والعلانية ، والعدل فى الغضب والرضا ، والقصد في الفقر والغنى.

٨/ ٢٣٠ - وفى «الزهد» للإمام أحمد أثر إلهي : «ما من مخلوق اعتصم بمخلوق دونى إلا قطعت أسباب السموات والأرض دونه ، فإن سألني لم أُعْطِه، وإن دعاني لم أُجِبْهُ ، وإن استغفرنى لم أغفر له، وما من مخلوق اعتصم بي دون خلقي إلا ضمنت السماوات والأرض رزقه ، فإن سألني أعطيته ، وإن دعاني أجبته، وإن استغفرني غفرت له».

٩/ ٢٣١ - جمع النبيُّ ﷺ بين تقوى الله وحسن الخلق ، لأن تقوى الله تصلح ما بين العبد وبين ربه، وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه، فتقوى الله توجب له محبة الله، وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته.

١٠/ ٢٣٢ - قال أبو الدرداء رضي الله عنه : «يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم ، كيف يغبنون به قيام الحمقى وصومهم ؟! والذرة من صاحب تقوى أفضل من أمثال الجبال عبادة من المغترين».

وهذا من جواهر الكلام وأدلهُ على كمال فقه الصحابة ، وتقدمهم على من بعدهم فى كل خير رضي الله عنهم .

فاعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته لا ببدنه ، والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ «الحج : ٣٢».

وقال: ﴿لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ «الحج: ٣٧».

وقال النبيُّ ﷺ : «التقوى هاهنا : وأشار إلى صدره»(١).

٢٣٣ - فالكيس يقطع من المسافة بصحة العزيمة ، وعلو الهمة ، وتجريد القصد، وصحة النية مع العمل القليل ، أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق فإن العزيمة والمحبة تذهب المشقة وتطيب السير ،

(١) أخرجه مسلم (كتاب البر والصلة / ٣٢) ، والإمام أحمد (٢/ ٢٧٧ - ٣٦٠)، وفي مواطن أخرى فى «المسند» ، ورواه الترمذي (١٩٢٧) وغيرهم مطولاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

والتقدم والسبق إلى الله سبحانه إنما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة، فيتقدم صاحب الهمة مع سكونه صاحب العمل الكثير بمراحل ، فإن ساواه[1] في همته تقدم عليه بعمله ، وهذا موضع يحتاج إلى تفصيل يوافق فيه الإسلام والإحسان.

٢٣٤ - فأكمل الهدي هدي رسول الله ﷺ ، وكان موفيًا كل واحد منهما حقه[2]، فكان مع كماله وإرادته وأحواله مع الله يقوم حتى ترم قدماه ، ويصوم حتى يقال لا يُفطر، ويجاهد في سبيل الله ويخالط أصحابه ولا يحتجب عنهم، ولا يترك شيئًا من النوافل والأوراد لتلك الواردات التى تعجز عن حملها قوى البشر.

٢٣٥ - والله سبحانه وتعالى أمر عباده أن يقوموا بشرائع الإسلام على ظواهرهم، وحقائق الإيمان على بواطنهم ، ولا يقبل واحداً منهما إلا بصاحبه وقرينه ، وفى المسند مرفوعًا : «الإسلام علانية والإيمان فى القلب»[3]. فكل إسلام ظاهر لا ينفذ صاحبه منه إلى حقيقة باطنة لا يقوم صاحبها بشرائع الإسلام الظاهرة لا تنفع ولو كانت ما كانت ، فلو تمزق القلب بالمحبة والخوف ولم يتعبد بالأمر وظاهر الشرع لم يُنْجِه ذلك من النار ، كما أنه لو قام بظواهر الإسلام وليس فى باطنه حقيقة الإيمان لم يُنْجِه ذلك من النار.

٢٣٦ - وإذا عرف هذا ، فالصادقون السائرون إلى الله والدار الآخرة قسمان:

قسم صرفوا ما فضل من أوقاتهم بعد الفرائض إلى النوافل البدنية وجعلوها دأبهم من غير حرص منهم على تحقيق أعمال القلوب ، ومنازلها وأحكامها ، وإن

---

(١) أي صاحب العمل الكثير ، وإلا فالمعنى يكون هكذا : فإن ساواه فى عمله ، تقدم عليه بهمته.

(٢) أي الإيمان والإسلام.

(٣) (حسن الإسناد) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٣/ ١٣٤) ، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١/ ٥٢) عن أنس مطولا وعزاه لأحمد وأبي يعلى بتمامه والبزار مختصراً ثم قال : ورجاله رجال الصحيح ما خلا على بن مسعدة ، وقد وثقه ابن حبان وأبو داود الطيالسي وأبو حاتم وابن معين وضعفه آخرون. ا هـ. والحديث ذكره الحافظ فى «المطالب العالية» (٢٨٦١) وسكت عنه، وقال الشيخ البنا - رحمه الله - فى «الفتح الرباني» (١/ ٦٦): سنده حسن . ا هـ.

لم يكونوا خالين من أصلها ولكن هممهم مصروفة إلى الاستكثار من الأعمال.

وقسم صرفوا ما فضل من الفرائض والسنن إلى الاهتمام بصلاح قلوبهم وعكفوها على الله وحده والجمعية عليه ، وحفظ الخواطر والإرادات معه وجعلوا قوة تعبدهم بأعمال القلوب من تصحيح المحبة والخوف والرجاء والتوكل والإنابة ، ورأوا أن أيسر نصيب من الواردات التى ترد على قلوبهم من الله أحب إليهم من كثير من التطوعات البدنية ، فإذا حصل لأحدهم جمعية ووارد أُنس أو حب أو اشتياق أو انكسار وذل، لم يستبدل به شيئًا سواه البتة ، إلا أن يجيء الأمر(١) فيبادر إليه بذلك الوارد إن أمكنه ، وإلا بادر إلى الأمر ولو ذهب الوارد ، فإذا جاءت النوافل فهاهنا مُعترك التردد ، فإن أمكن القيام إليها به فذاك وإلا نظر في الأرجح والأحب إلى الله ، هل هو القيام إلى تلك النافلة ولو ذهب وارده، كإغاثة الملهوف ، وإرشاد الضال ، وجبر مكسور، واستفادة إيمان . . . ونحو ذلك، فهاهنا ينبغى تقديم النافلة الراجحة ومتى قدمها لله رغبة فيه وتقربًا إليه ، فإنه يردُّ عليه ما فات من وارده أقوى مما كان فى وقت آخر ، وإن كان الوارد أرجح من النافلة فالحزم له الاستمرار فى وارده حتى يتوارى عنه ، فإنه يفوت والنافلة لا تفوت، وهذا موضع يحتاج إلى فضل فقه في الطريق وترتيب الأعمال، وتقديم الأهم منها فالأهم ، والله الموفق لذلك لا إله غيره ولا رب سواه.

١١/ ٢٣٧ - ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس نائمون ، وبنهاره إذا الناس مفطرون ، وبحزنه إذا الناس يفرحون ، وببكائه إذا الناس يضحكون ، وبصمته إذا الناس يخوضون ، وبخشوعه إذا الناس يختالون ، وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكيًا محزونًا حكيمًا حليمًا سكينًا .

ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافيًا ولا غافلا ولا صخابًا ولا صيَّاحًا ولا حديدًا.

---

(١) الأمر : أي الفرض.

٢٣٨/١٢ - يا أيها الأعزل : احـذر فراسة المتقي ، فإنه يرى عـورة عملك من وراء ستر : «اتقوا فراسة المؤمن»[1].

وانظر الفقرات والفوائد برقم :

(٤٤ - ١٧٥ - ٢٧١ - ٣٥١ - ٤٨٣ - ٥٢٦ - ٥٣٠ - ٥٥٩ - ٥٦٣ - ٥٨٦ - ٦٤٤)



(١) (حسن لغيره) أخرجه الترمذي (٣١٢٧) عن أبي سعيد يرفعه ، قال الترمذي: هذا حديث غريب إنما نـعرفه من هـذا الوجه ، وقد روي عـن بعض أهل الـعلم ، وتفـسير هذه الآيـة ، قال : للمتفرسين .اهـ. قلت : يشير إلى قوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾ ، والحديث ذكره الحافظ في «الفتح» (كتاب التعبير / باب ١٠) مستشهدًا به وسكت عنه ، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٨/ ١٢١) قال الهيثمي : وإسناده حسن (المجمع : ١٠/ ٢٦٨) وقال الشوكاني في «الفـوائد» (٢٤٣) : قال في الـلالـيء : قلت : الحـديث حسن صـحيح ، .. ثم قـال : وأما حديث أبي أمامة فإن إسنـاده على شرط الحسن ، وتعقبه الشوكاني بـقوله : وعندي أن الحديث حسن لغيره وأما صحيح فلا ، ومن شواهده: .. وذكر له شواهد فانظره في «الفوائد المجموعة» بتحقيقي طبعة / نزار الباز - مكة المكرمة، والحديث ذكره الألباني في «الضعيفة» (١٨٢١).

الفصل الحادى عشر
التفويض والتوكل

١/ ٢٣٩ - لما طلب آدم الخلود فى الجنة من جانب الشجرة عوقب بالخروج منها، ولما طلب يوسف الخروج من السجن من جهة صاحب الرؤيا لبث فيه بضع سنين.

٢/ ٢٤٠ - التوكل على الله نوعان :

أحدهما : توكل عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية ، أو دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية.

والثاني : التوكل عليه في حصول ما يحبه هو ويرضاه من الإيمان واليقين والجهاد والدعوة إليه، وبين النوعين من الفضل ما لا يحصيه إلا الله ، فمتى توكل عليه العبد في النوع الثاني حق توكله كفاه النوع الأول تمام الكفاية ، ومتى توكل عليه في النوع الأول دون الثاني كفاه أيضًا ، لكن لا يكون له عاقبة المتوكل فيما يحبه ويرضاه.

فأعظم التوكل عليه التوكل في الهداية ، وتجريد التوحيد ، ومتابعة الرسول ﷺ ، وجهاد أهل الباطل ، فهذا توكل الرسل وخاصة أتباعهم.

والتوكل تارة يكون توكل اضطرار وإلجاء ، بحيث لا يجد العبد ملجأ ولا وزرًا إلا التوكل ، كما إذا ضاقت عليه الأسباب وضاقت عليه نفسه وظن أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، وهذا لا يتخلف عنه الفرج والتيسير البتة.

وتارة يكون توكل اختيار ، وذلك التوكل مع وجود السبب المفضى إلى المراد ، فإن كان السبب مأمورًا به ذُم على تركه ، وإن قام بالسبب وترك التوكل ذم على تركه أيضًا فإنه واجب باتفاق الأمة ونص القرآن ، والواجب القيام بهما والجمع بينهما ، وإن كان السبب مُحرمًا حرم عليه مباشرته وتوحد السبب في حقه في التوكل فلم يبقَ سبب سواه.

فإن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المراد ودفع المكروه ، بل من أقوى الأسباب على الإطلاق ، وإن كان السبب مباحًا نظرت هل يضعف قيامك به التوكل أو لا يضعفه ؟ فإن أضعفه وفرّق عليك قلبك وشتت همك فتركه أولى، وإن لم يضعفه فمباشرته أولى ، لأن حكمة أحكم الحاكمين اقتضت ربط المسبب به فلا تعطل حكمته مهما أمكنك القيام بها، ولا سيما إذا فعلته عبودية، فتكون قد أتيت بعبودية القلب بالتوكل، وعبودية الجوارح بالسبب المنوى به القُربة ، والذى يحقق التوكل القيام بالأسباب المأمور بها ، فمن عطلها لم يصح توكله كما أن القيام بالأسباب المفضية إلى حصول الغير يحقق رجاءه، فمن لم يقم بها كان رجاؤه تمنيًا، كما أن من عطلها يكون توكله عجزًا وعجزه توكلا.

وسر التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب على الله وحده ، فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها ، كما لا ينفعه قوله : توكلت على الله ، مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به ، فتوكل اللسان شيء، وتوكل القلب شيء ، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء ، وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شيء ، فقول العبد : توكلت على الله مع اعتماد قلبه على غيره ، مثل قوله : تبت إلى الله وهو مُصِرٌّ على معصيته مرتكبٌ لها.

٣/ ٢٤١ - من ترك الاختيار والتدبير في طلب: زيادة دنيا، أو جاه، أو في خوف نقصان ، أو في التخلص من عدو ، توكلاً على الله وثقة بتدبيره له ، وحسن اختياره له ، فألقى كنفه بين يديه ، وسلم الأمر إليه ، ورضي بما يقضيه له ، استراح من الهموم والغموم والأحزان ، ومن أبى إلا تدبيره لنفسه ، وقع في النكد والنَّصَبِ وسوء الحال والتعب، فلا عيش يصفو ولا قلب يفرح ولا عمل يزكو ولا أمل يقوم ولا راحة تدوم.

والله سبحانه سهل لخلقه السبيل إليه وحجبهم عنه بالتدبير ، فمن رضي بتدبير الله له وسكن إلى اختياره وسلَّم لحُكمه أزال ذلك الحجاب، فأفضى القلب إلى ربه واطمأن إليه وسكن.

٤/ ٢٤٢ - المتوكل لا يسأل غير الله ، ولا يَرُدُّ على الله ، ولا يدخر (إِلا) مع الله.

٥/ ٢٤٣ - من شغل بنفسه شغل عن غيره ، ومن شغل بربه شغل عن نفسه.

٦/ ٢٤٤ - من ترك الاختيار والتدبير في رجاء زيادة أو خوف نقصان، أو طلب صحة، أو فرار من سقم، وعلم أن الله على كل شيء قدير، وأنه المتفرد بالاختيار والتدبير ، وأن تدبيره لعبده خير من تدبير العبد لنفسه ، وأنه أعلم بمصلحته من العبد وأقدر على جلبها وتحصيلها منه ، وأنصح للعبد منه لنفسه ، وأرحم به منه بنفسه ، وأبرُّ به منه بنفسه ، وعلم مع ذلك أنه لا يستطيع أن يتقدم بين يدى تدبيره خطوة واحدة ، ولا يتأخر عن تدبيره له خطوة واحدة ، فلا متقدم له بين يدي قضائه وقدره ولا متأخر ، فألقى نفسه بين يديه وسلم الأمر كله إليه، وانطرح بين يديه انطراح عبد مملوك ضعيف بين يدي ملك عزيز قاهر ، له التصرف في عبده بكل ما يشاء ، وليس للعبد التصرف فيه بوجه من الوجوه ، فاستراح حينئذ من الهموم والأنكاد والحسرات ، وحمّل كله وحوائجه ومصالحه من لا يبالى بحملها ولا يثقله ولا يكترث بها ، فتولاها دونه وأراه لطفه وبره ورحمته وإحسانه فيها من غير تعب من العبد ولا نصب ولا اهتمام منه ؛ لأنه قد صرف اهتمامه كله إليه وجعله وحده همه ، فصرف عنه اهتمامه بحوائجه ومصالح دنياه ، وفرغ قلبه منها، فما أطيب عيشه ، وما أنعم قلبه وأعظم سروره وفرحه.

وإن أبى إلا تدبيره لنفسه واختياره لها واهتمامه بحظه ، دون حق ربه ، خلاه وما اختاره وولاه ما تولى ، فحضره الهم والغم والحزن والنكد والخوف والتعب وكسف البال وسوء الحال ، فلا قلب يصفو، ولا عمل يزكو، ولا أمل يحصل، ولا راحة يفوز بها، ولا لذة يتهنى بها ، بل قد حيل بينه وبين مسرته وفرحه وقرة عينه ، فهو يكدح في الدنيا كدح الوحش ولا يظفر منها بأمل، ولا يتزود منها لمعاد.

والله سبحانه قد أمر العبد بأمر وضمن له ضمانًا ، فإن قام بأمره بالنصح والصدق والإخلاص والاجتهاد ، قام الله سبحانه له بما ضمنه له من الرزق والكفاية والنصر وقضاء الحوائج ، فإنه سبحانه ضمن الرزق لمن عبده ، والنصر لمن توكل عليه واستنصر به ، والكفاية لمن كان هو همه ومرداه ، والمغفرة لمن استغفره ، وقضاء الحوائج لمن صدقه فى طلبها ووثق به وقوى رجاؤه وطمعه فى فضله وجوده، فالفطن الكيس إنما يهتم بأمره وإقامته وتوفيقه لا بضمانه ، فإنه سبحانه الوفي الصادق ، **﴿ومن أوفى بعهده من الله﴾**.

فمن علامات السعادة صرف اهتمامه إلى أمر الله دون ضمانه ، ومن علامات الحرمان فراغ قلبه من الاهتمام بأمره وحبه وخشيته والاهتمام بضمانه ، والله المستعان.

٧/ ٢٤٥ - لا تسأل سوى مولاك فسؤال العبد غير سيده تشنيع عليه.

وانظر الفقرات والفوائد برقم :

(٢٧١ - ٣٣٩ - ٤٨٢ - ٥٣٠ - ٥٨٦ - ٦٣٠ - ٦٣٨ - ٦٦١).



الفصل الثاني عشر
القلب السليم والنفس المطمئنة

١/٢٤٦ - أنزه الموجودات وأطهرها، وأنورها وأشرفها وأعلاها ذاتًا وقدرًا وأوسعها : عرش الرحمن - جل جلاله - ولذلك صلح لاستوائه عليه، وكل ما كان أقرب إلى العرش كان أنور وأنزه وأشرف مما بعد عنه، ولهذا كانت جنة الفردوس أعلى الجنات وأشرفها وأنورها وأجلها لقربها من العرش إذ هو سقفها، وكل ما بعد عنه كان أظلم وأضيق، ولهذا كان أسفل سافلين شر الأمكنة وأضيقها وأبعدها من كل خير .

٢٤٧ - وخلق الله القلوب وجعلها محلا لمعرفته ومحبته وإرادته، فهي عرش المثل الأعلى الذي هو معرفته ومحبته وإرادته، قال تعالى : ﴿لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلله الْمَثَلُ الأعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ «النحل : ٦٠»، وقال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ «الروم: ٢٧»، وقال تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ «الشورى: ١١».

فهذا من المثل الأعلى، وهو مستوٍ على قلب المؤمن فهو عرشه وإن لم يكن أطهر الأشياء وأنزهها وأطيبها وأبعدها من كل دنس وخبث لم يصلح لاستواء المثل الأعلى عليه معرفةً ومحبةً وإرادةً، فاستوى عليه مثل الدنيا الأسفل ومحبتها وإرادتها والتعلق بها، فضاق وأظلم وبعد من كماله وفلاحه حتى تعود القلوب على قلبين : قلبٌ هو عرش الرحمن، ففيه النور والحياة والفرح والسرور والبهجة وذخائر الخير، وقلبٌ هو عرش الشيطان، فهناك الضيق والظلمة والموت والحزن والغم والهم، فهو حزين على ما مضى، مهموم بما يستقبل، مغمومٌ في الحال .

وقد روى الترمذي وغيره عن النبي ﷺ أنه قال : «إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح . قالوا : فما علامة ذلك يارسول الله ؟! قال : الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله»(١) .

والنور الذي يدخل القلب إنما هو من آثار المثل الأعلى، فلذلك ينفسح وينشرح، وإذا لم يكن فيه معرفة الله ومحبته، فحظه الظلمة والضيق .

٢٤٨/٢ - قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده، وهذا كما أنه فى الذوات والأعيان، فكذلك هو فى الاعتقادات والإرادات، فإذا كان القلب ممتلئًا بالباطل اعتقاداً ومحبة لم يبقَ فيه لاعتقاد الحق ومحبته موضع، كما أن اللسان إذا اشتغل بالتكلم بما لا ينفع لم يتمكن صاحبه من النطق بما ينفعه إلا إذا فرغ لسان من النطق بالباطل، وكذلك الجوارح إذا اشتغلت بغير الطاعة لم يمكن شغلها بالطاعة إلا إذا فرغها من ضدها.

فكذلك القلب المشغول بمحبة غير الله وإرادته والشوق إليه والأنس به لا يمكن شغله بمحبه الله وإرادته وحبه والشوق إلى لقائه إلا بتفريغه من تعلقه بغيره، ولا حركة للسان بذكره وللجوارح بخدمته إلا إذا فرغها من ذكر غيره وخدمته، فإذا امتلأ القلب بالشغل بالمخلوق والعلوم التى لا تنفع لم يبقَ فيها موضع للشغل بالله ومعرفة أسمائه وصفاته وأحكامه .

وسر ذلك : أن إصغاء القلب كإصغاء الأذن . فإذا أصغى إلى غير حديث الله لم يبقَ فيه إصغاء ولا فهم لحديثه، كما إذا مال إلى غير محبة الله لم يبقَ فيه ميل إلى محبته، فإذا نطق القلب بغير ذكره لم يبقَ فيه محل للنطق بذكره كاللسان .

---

(١) (ضعيف) الحديث لم يَرْوِهِ الترمذي صاحب «السنن» فلعله من رواية الحكيم الترمذي، وأخرجه الحاكم (٤ / ٣١١) وقال الذهبي : عدي ساقط .اهـ. وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٤٤) وعزاه لابن أبي الدنيا وابن جرير وأبي الشيخ وابن مردويه والحاكم والبيهقي في «الشعب» من طرق عن ابن مسعود مرفوعًا .اهـ، وكذلك عزاه الزبيدي في «الإتحاف» لهم وعزاه أيضًا للحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، والحديث ذكره الألباني في «الضعيفة» (٩٦٥)وذكر فيه بحثًا مطولا فانظره .

ولهذا في «الصحيح» عن النبى ﷺ أنه قال: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحًا حتى يريه[١]، خير لـه من أن يمتلـىء شعْرًا»[٢]. فبين أن الجوف يمتـلىء بالشِّعْرِ، فكذلك يمتلىء بالشُبه والشكوك والخـيالات والتقديرات التي لا وجود لها، والعلوم التي لا تنفع، والمفاكهات والمضحكات والحكايات ونحوها .

وإذا امتلأ القلب بذلـك جاءته حقائق القرآن والعلم الذى به كمـاله وسعادته فلم تجد فراغًا لهـا ولا قبولا فتعدته وجاوزته إلـى محل سواه، كما إذا بذلت الـنصيحة لقب ملآن من ضدها لا منفذ لها فيه فإنه لا يـقبلها ولا تلج فيه لكن تمر مجتازة لا مستوطنة ولذلك قيل :

نزه فـؤادك مـن سـوانا تلقـنا ... فـجـنابنا حـل لكـل مـنزه

والصـبر طلسـم لكنز وصـالنا ... من حـل ذا الطـلسـم فـاز بكـنزه

وبالله التوفيق

٣/ ٢٤٩ - من لم ينتفع بعينه، لم ينتفع بأذنه .

٤/ ٢٥٠ - مصابيح القلوب الطاهرة فى أصـل الفطرة منيرة قبل الشرائع: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ «النور :٣٥» .

٥/ ٢٥١ - احذر نفسك، فما أصابك بلاءٌ قـط إلا منها، ولا تهادنها، فوالله ما أكرمهـا من لم يُهِنْـهَا، ولا أعزها من لـم يذلها، ولا جبـرها من لم يكـسْرها، ولا أراحها من لم يتعبها، ولا أمنها من لم يخوفها، ولا فرحها من لم يحزنها .

٦/ ٢٥٢ - سبحـان الله، في النفـس كبر إبليـس، وحسد قـابيل، وعتـو عاد، وطغيان ثـمود، وجرأة نمرود، واستطـالة فرعون، وبغي قـارون، وقحة[٣] هامان، وهوى بلعام، وحيل أصحاب السبت، وتمرد الوليد، وجهل أبى جهل .

---

(١) ريًا ، وروًى : شرب وشبع .

(٢) أخرجه البخاري (٦١٥٥) ومسلم (٢٢٥٧) عن أبي هـريره ﷺ يرفعه، ورواه أحمد في «المسند» (١/ ١٧٥ ، ٢/ ٣٩١) ، وأبو داود (٥٠٠٩) وغيرهم .

(٣) وقح الرجل : قل حياؤه فهو وقح (مختار الصحاح) .

وفيها مـن أخلاق البهائم : حرص الـغراب، وشره الكلب، ورعـونة الطاوس، ودناءة الجُعـل، وعقوق الضـب، وحقد الجمل، ووثـوب الفهد، وصـولة الأسد، وفسق الفأرة، وخـبث الحية، وعبث القرد، وجمـع النملة، ومكر الثـعلب، وخفة الفراش، ونوم الضبع .

غير أن بالريـاضة والمجاهدة يذهب ذلك، فمـن استرسل مع طبعه فـهو من هذا الجند، ولا تـصلح سلـعته لعـقد : ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ «التوبة: ١١١».

فما اشترى سبحانه إلا سلعة هذبها الإيمان، فخرجت من طبعها إلى بلد سكانه التائبون العابدون .

٧/ ٢٥٣ - كمال النفس المطلوب، ما تضمن أمرين :

أحدهما : أن يصير هيئة راسخة، وصفة لازمة لها .

والثانى : أن يكون صفة كمال فى نفسه، فإذا لم يكن كذلك لم يكن كمالا، فلا يليق بمن يسعى فـى كمال نفسه المنافسة عليه، ولا الأسف عـلى فوته، وذلك ليس إلا معرفة بارئها وفاطرها ومعبودها وإلهها الحق الذى لا صلاح لها ولا نعيم ولا لذة إلا بمعرفتـه وإرادة وجهه، وسلوك الطريـق الموصلة إليه وإلى رضـاه وكرامته، وأن تعتاد ذلك فيصير لها راسخة لازمة .

وما عـدا ذلك من الـعلوم والإرادات والأعـمال : فهي بـين ما لا يـنفعـها ولا يكملـها، وما يعود بضررهـا ونقصها وألمها، ولا سـيما إذا صار هيئة راسـخة لها، فإنها تعذب وتتألم به بحسب لزومه لها .

وأما الفضائل المنفصلة عنها كالملابس والمراكب والمساكن والجاه والمال : فتلك فى الحقيقة عوار أعيرتها مدة، ثم يرجع فيها المعير، فتتألم وتتعذب برجوعه فيها بحسب تعلقها بها، ولا سيما إذا كانت هي غاية كمالها، فإذا سلبتها أحضرت أعظم النقص والألم والحسرة .

فليتدبر من يريد سعادة نفسه ولذتها هـذه النكتة، فأكثر هذا الخلق إنما يسعون فى

حرمان نفوسهم وألمها وحسرتها ونقصها من حيث يظنون أنهم يريدون سعادتها ونعيمها، فلذتها بحسب ما حصل لها من تلك المعرفة والمحبة والسلوك ، وألمها وحسرتها بحسب ما فاتها من ذلك، ومتى عدم ذلك وخلا منه لم يبق فيه إلا القوى البدنية النفسانية، التي بها يأكل ويشرب وينكح ويغضب وينال سائر لذاته ومرافق حياته، ولا يلحقه من جهتها شرف ولا فضيلة، بل خساسة ومنقصة .

إذا كان إنما يناسب بتلك القوى البهائم، ويتصل بجنسها، ويدخل في جملتها، ويصير كأحدها، وربما زادت فى تناولها عليه، واختصت دونه بسلامة عاقبتها، والأمن من جلب الضرر عليها .

فكمال تشاركك فيه البهائم، وتزيد عليك، وتختص عنك فيه بسلامة العاقبة، حقيق أن تهجره إلى الكمال الحقيقي الذي لا كمال سواه، وبالله التوفيق .

٨/ ٢٥٤ - ما ضرب عبدٌ بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله.

٩/ ٢٥٥ - خلقت النار لإذابة القلوب القاسية .

١٠/ ٢٥٦ - أبعد القلوب من الله القلب القاسي .

١١/ ٢٥٧ - إذا قسى القلب قحطت العين .

١٢/ ٢٥٨ - قسوة القلب من أربعة أشياء إذا جاوزت قدر الحاجة: الأكل، والنوم، والكلام، والمخالطة .

١٣/ ٢٥٩ - كما أن البدن إذا مرض لم ينفع فيه الطعام والشراب، فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجع فيه المواعظ .

١٤/ ٢٦٠ - من أراد صفاء قلبه، فليؤثر الله على شهوته، (فـ) القلوب المتعلقة بالشهوات : محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها .

١٥/ ٢٦١ - القلوب آنية الله في أرضه، فأحبها إليه سبحانه : أرقها وأصلبها وأصفاها .

١٦/ ٢٦٢ - شغلوا قلوبهم بالدنيا، ولو شغلوها بالله والدار الآخرة لجالت في معاني كلامه وآياته المشهودة، ورجعت إلى أصحابها بغرائب الحِكم، وطرف الفوائد.

١٧/ ٢٦٣ - إذا غُذي القلب بالتذكر، وسقُي بالتفكر، ونُقي من الدغل: رأى العجائب وأُلهم الحكمة .

١٨/ ٢٦٤ - ليس كل من تحلى بالمعرفة والحكمة وانتحلها كان من أهلها، بل أهل المعرفة والحكمة : الذين أحيوا قلوبهم بقتل الهوى، وأما من قتل قلبه فأحيى الهوى، فالمعرفة والحكمة عارية على لسانه .

١٩/ ٢٦٥ - خراب القلب من الأمن والغفلة، وعمارته من الخشية والذكر .

٢٠/ ٢٦٦ - إذا زهدت القلوب في موائد الدنيا، قعدت على موائد الآخرة بين أهل تلك الدعوة، وإذا رضيت بموائد الدنيا، فاتتها تلك الموائد .

٢١/ ٢٦٧ - الشوق إلى الله ولقائه : نسيم يهب على القلب يروح عنه وهج الدنيا .

٢٢/ ٢٦٨ - من وطن قلبه عند ربه سكن واستراح، ومن أرسله في الناس اضطرب واشتد به القلق .

٢٣/ ٢٦٩ - لا تدخل محبة الله في قلب فيه حب الدنيا إلا كما يدخل الجمل فى سم الإبرة[١] .

٢٤/ ٢٧٠ - إذا أحب الله عبداً اصطنعه لنفسه، واجتباه لمحبته، واستخلصه لعبادته ، فشغل همه به ، ولسانه بذكره ، وجوارحه بخدمته .

٢٥/ ٢٧١ - القلب يمرض كما يمرض البدن، وشفاؤه فى التوبة والحمية، ويصدأ كما تصدأ المرآة، وجلاؤه بالذكر، ويعرى كما يعرى الجسم ، وزينته التقوى، ويجوع ويظمأ كما يجوع البدن ، وطعامه وشرابه المعرفة والمحبة والتوكل والإنابة والخدمة .

---

(١) السم: كل مادة سامة، وكل ثقب ضيق كثقب الإبرة والأنف والأذن .

٢٦/ ٢٧٢ - للقلب ستة مواطن يجول فيها لا سابع لها : ثلاثة سافلة ، وثلاثة عالية : فالسافلة : دنيا تتزين له ، ونفس تحدثه ، وعدو يوسوس له ، فهذه مواطن الأرواح السافلة التي لا تزال تجول فيها.

والعالية : علم يتبين له، وعقل يرشده، وإله يعبده، والقلوب جوالة فى هذه المواطن .

٢٧/ ٢٧٣ - الأصول التى انبنى عليها سعادة العبد ثلاثة، ولكل واحد منها ضد، فمن فقد ذلك الأصل حصل على ضده :

التوحيد وضده الشرك، **والسنة** وضدها البدعة، **والطاعة** وضدها المعصية .

ولهذه الثلاثة ضد واحد : وهو خلو القلب من الرغبة في الله وفيما عنده، ومن الرهبة منه ومما عنده .

٢٨/ ٢٧٤ - من لم يعرف نفسه كيف يعرف خالقه؟!

فاعلم أن الله تعالى خلق في صدرك بيتًا، وهو القلب، ووضع فى صدره[١] عرشاً لمعرفته، يستوى عليه المثل الأعلى، فهو مستوٍ على عرشه بذاته سبحانه، بائن من خلقه، والمثل الأعلى من معرفته ومحبته وتوحيده مستوٍ على سرير القلب، وعلى السرير بساط من الرضا، ووضع عن يمينه وشماله مرافق شرائعه وأوامره، وفتح إليه بابًا من جنة رحمته والأنس به والشوق إلى لقائه، وأمطره من وابل كلامه ما أنبت فيه أصناف الرياحين والأشجار المثمرة من أنواع الطاعات والتهليل والتسبيح والتحميد والتقديس وجعل فى وسط البستان شجرة المعرفة[٢] ، فهى تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها من المحبة، والإنابة، والخشية، والفرح به، والابتهاج بقربه، وأجرى إلى تلك الشجرة ما يسقيها من تدبر كلامه وفهمه، والعمل بوصاياه .

---

(١) اي في مركز الصدر من القلب، وضع سبحانه عرشًا لمعرفته .

(٢) يعني معرفته سبحانه وتعالى .

٢٧٥ - وعلق في ذلك البيت قنديلا أسرجه بضياء معرفته، والإيمان به وتوحيده: فهو يستمد من ﴿**شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار**﴾[1]، ثم أحاط عليه حائطًا يمنعه من دخول الآفات والمفسدين وممن يؤذي البستان، فلا يلحقه أذاهم، وأقام عليه حرسًا من الملائكة يحفظونه في يقظته ومنامه، ثم أعلم صاحب البيت والبستان بالساكن فيه، فهو دائمًا همه إصلاح السكن، ولمّ شعثه ليرضاه الساكن منزلا، وإذا أحس بأدنى شعث فى السكن بادر إلى إصلاحه وله خشية انتقال الساكن منه، فنعم السكن، ونعم المسكن .

٢٧٦ - فسبحان الله رب العالمين، كم بين هذا البيت وبيت قد استولى عليه الخراب وصار مأوى للحشرات والهوام، ومحلا لإلقاء الأنتان والقاذورات فيه ؟ فمن أراد التخلى وقضاء الحاجة وجد خربة لا سكن فيها ولا حافظ لها، وهى مُعَدَّة لقضاء الحاجة، مظلمة الأرجاء، منتنة الرائحة، قد عمها الخراب، وملأتها القاذورات، فلا يأنس بها ولا ينزل فيها إلا من يناسبه سكناها من الحشرات والديدان والهوام .

الشيطان جالس على سريرها، وعلى السرير بساط من الجهل، وتخفق فيه الأهواء وعن يمينه وشماله مرافق الشهوات، وقد فتح إليه باب من حقل الخذلان والوحشة والركون إلى الدنيا والطمأنينة بها والزهد في الآخرة، وأُمطِر من وابل الجهل، والهوى، والشرك، والبدع ما أثبت فيه أصناف الشوك والحنظل، والأشجار المثمرة بأنواع المعاصي والمخلفات، من الزوائد والتنديبات، والنوادر والهزليات، والمضحكات والأشعار الغزليات والخمريات التي تهيج على ارتكاب المحرمات، وتزهد في الطاعات، وجعل في وسط الحقل شجرة الجهل به، والإعراض عنه، فهي تؤتي أكلها كل حين من الفسوق والمعاصي واللهو واللعب والمجون، والذهاب مع كل ريح، واتباع كل شهوة، ومن ثمرها : الهموم، والغموم، والأحزان،

---

(١) سورة النور آية : ٣٥.

والآلام، ولكنها متوارية باشتغال النفس بلهوها ولعبها، فإذا أفاقت من سكرها أحضرت كل هم وغم وحزن وقلق ومعيشة ضنك، وأجرى إلى تلك الشجرة ما يسقيها من اتِّباع الهوى، وطول الأمل والغرور.

ثم ترك ذلك البيت وظلماته، وخراب حيطانه (هملا) بحيث لا يمنع منه مفسد، ولا حيوان، ولا مؤذٍ، ولا قذر، فسبحان خالق هذا البيت وذلك البيت .

فمن عرف بيته وقدر ما فيه من الكنوز والذخائر والآلات، انتفع بحياته ونفسه، ومن جهل ذلك جهل نفسه، وأضاع سعادته، وبالله التوفيق.

٢٩/ ٢٧٧ - ذخائر الله، وكنوز البر ولذة الأنس والشوق إليه، والفرح والابتهاج به، لا تحصل في قلب فيه غيره، وإن كان من أهل العبادة والزهد والعلم.

فإن الله سبحانه أبى أن يجعل ذخائره فى قلب فيه سواه، وهمته متعلقة بغيره وإنما يودع ذخائره في قلبٍ يرى الفقر غنىً مع الله، والغنى فقرًا دون الله، والعز ذلا دونه، والذل عزًا معه، والنعيم عذابًا دونه، والعذاب نعيمًا معه .

وبالجملة : فلا يرى الحياة إلا به ومعه، والموت والألم والهم والغم والحزن إذا لم يكن معه، فهذا له جنتان، جنة في الدنيا معجلة، وجنة يوم القيامة .

٣٠/ ٢٧٨ - ألقى الله سبحانه العداوة بين الشيطان وبين الملَك، والعداوة بين العقل وبين الهوى ، والعداوة بين النفس الأمارة وبين القلب ، وابتلى العبد بذلك، وجمع له بين هؤلاء ، وأمدَّ كل حزب بجنود وأعوان ، فلا تزال الحرب سجالا ودولا بين الفريقين ، إلى أن يستولي أحدهما على الآخر ، ويكون الآخر مقهوراً معه.

فإذا كانت النوبة للقلب والعقل والملَك، فهنالك السرور، والنعيم، واللذة، والبهجة والفرح، وقرة العين، وطيب الحياة، وانشراح الصدر، والفوز بالغنائم .

وإذا كانت النوبة للنفس والهوى والشيطان، فهنالك الغموم والهموم، والأحزان وأنواع المكاره، وضيق الصدر، وحبس الملك .

فما ظنك بملِك استولى عليه عدوه فأنزله عن سرير ملكه وأسره وحبسه وحال بينه وبين خزائنه وذخائره وخدمه وصيرها له ؟

ومع هذا فلا يتحرك الملِك لطلب ثأره ، ولا يستغيث بمن يغيثه، ولا يستنجد بمن ينجده ، وفوق هذا الملك ، ملكٌ قاهرٌ لا يُقهر ، وغالبٌ لا يُغلب ، وعزيزٌ لا يُذل ، فأرسل إليه : إن استنصرتني نصرتُك، وإن استغثتَ بي أغثتُك ، وإن التجأت إليَّ أخذت بثأرك ، وإن هربت إليَّ، وأويت إليَّ، سلطتُك على عدوك، وجعلتُه تحت أسرك.

فإن قال هذا الملِك المأسور : قد شدَّ عدوي وثاقي، وأحكم رباطي، واستوثق مني بالقيود، ومنعني من النهوض إليك، والفرار إليك، والمسير إلى بابك، فإن أرسلت جندًا من عندك، يحُلُّ وثاقي، ويفُك قيودي، ويخرجني من حبسه أمكنني أن أوافي بابك، وإلا لم يمكنني مفارقة محبسي، ولا كسر قيودي .

فإن قال ذلك احتجاجًا على ذلك السلطان، ودفعًا لرسالته، ورضاً بما هو فيه عند عدوه، خلاّه السلطان الأعظم وحاله ، وولاه ما تولى .

وإن قال ذلك افتقاراً إليه، وإظهاراً لعجزه وذله، وأنه أضعف وأعجز أن يسير إليه بنفسه، ويخرج من حبس عدوه، ويتخلص منه بحوله وقوته، وإن من تمام نعمته ذلك عليه، كما أرسل إليه هذه الرسالة أن يمده من جنده ومماليكه بمن يعينه على الخلاص، ويكسر باب محبسه، ويفك قيوده، فإن فعل به ذلك فقد أتم إنعامه عليه، وإن تخلى عنه فلم يظلمه ولا منعه حقًا هو له، وإنَّ حمده وحكمته اقتضى منعه وتخليه في محبسه، ولا سيما إذا علم أن الحبس حبسه، وأن هذا العدو الذي حبسه مملوك من مماليكه، وعبد من عبيده، ناصيته بيده، لا يتصرف إلا بإذنه ومشيئته .

فهو غير ملتفت إليه، ولا خائف منه، ولا معتقد أن له شيئًا من الأمر، ولا بيده نفع ولا ضر، بل هو ناظرٌ إلى مالكه، ومتولى أمره، ومَن ناصيته بيده، قد أفرده

بالخوف والرجاء، والتضرع إليه والالتجاء والرغبة والرهبة، فهناك تأتيه جيوش النصر والظفر .

وانظر الفقرات والفوائد برقم :

(٦١ - ٩٣ - ١٧٩ - ١٨٩ - ١٩٠ - ٢٠٦ - ٢٢٤ - ٣٢٨ - ٣٦٧ - ٣٨١ - ٣٩٠ - ٤٨٥ - ٤٩٧ - ٥٠٩ - ٥١٤ - ٥٢١ - ٥٢٢ - ٥٣٠ - ٥٤٩ - ٥٥٢ - ٥٥٥ - ٥٦٣ - ٥٨٦ - ٦١٠ - ٦١١ - ٦٥٠ - ٦٥٣) .



الفصل الثالث عشر
الحمد والشكر

١/ ٢٧٩ - يا مُكرَّمًا بحُلة الإيمان بعد حُلة العافية، وهو يَخلقَهما[١] فى مُخالفة الخالق، لا تُنكِر السلب[٢]، يستحق من استعمل نعمة المنُعم فيما يكره أن يسلبها .

٢/ ٢٨٠ - مصدر ما في العبد من الخير والشر، والصفات الممدوحة والمذمومة من صِفة المعطي المانع فهو سبحانه يُصرِّف عباده بين مقتضى هذين الاسمين، فحظ العبد الصادق من عبوديته بهما الشكر عند العطاء، والافتقار عند المنع، فهو سبحانه يعطيه ليشكره، ويمنعه ليفتقر إليه، فلا يزال شكوراً فقيراً .

٣/ ٢٨١ - مبنى الدين على قاعدتين : (الذكر ، والشكر) :

قال تعالى : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾ «البقرة: ١٥٢»، وقال النبى ﷺ لمعاذ رضي الله عنه :«والله إني لأحبك ، فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[٣].

وليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان، بل الذكر القلبى واللسانى، وذكره سبحانه يتضمن ذكر أسمائه وصفاته وذكر أمره ونهيه ، وذكره بكلامه ، وذلك يستلزم معرفته والإيمان به وبصفات كماله، ونعوت جلاله ، والثناء عليه

---

(١) يخلقهما : أي يبليهما ويبددهما .

(٢) أي لا تستنكر إذا سلبت منك هذه النعم عقوبة لعدم الشكر .

(٣) (صحيح) أخرجه أبو داود (١٥٢٢) وسكت عنه وقال : وأوصى بذلك معاذ الصنابحي وأوصى به الصنابحي أبا عبد الرحمن . ا هـ. ورواه أحمد (٥/ ٢٤٥، ٢٤٧) ، والحاكم (١/ ٢٧٣، ٣/ ٢٧٣)، وابن حبان (٢٣٤٥)، وابن خزيمة (٧٥١) في «صحيحيهما»، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» .

بأنــواع المدح ، وذلك لا يتــم إلا بتوحيــده، فذكره الحقـيقى يســتلزم ذلك كـله ، ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلى خلقه .

٢٨٢ - وأما الشكر، فـهو القيام له بطاعتـه، والتقرب إليه بأنواع مـحابه ظاهرًا وباطنًا، وهذان الأمران همـا جماع الدين، فذكره مستلزم لمعرفتـه، وشكره متضمن لطاعته، وهذان هما الغاية التـى خُلق لأجلها الجن والإنس، والسماوات والأرض، ووضع لأجلها الثواب والعقاب، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل، وهى الحق الذى به خلقت الـسماوات والأرض وما بينـهما، وضدها هو البـاطل والعبث الذى يـتعالى ويتقدس عنه، وهو ظن أعـدائه به، قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطلاً ذَلكَ ظَنُّ الَّذينَ كَفَرُوا﴾ «ص: ٢٧» . وقال : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّموَات وَالأَرْضَ وَمَا بيْنَهمَا لاَعبينَ، مَـا خَلَقْنَاهُمَا إلا بالْحَقِّ﴾ «الدخان : ٣٨»، وقال بعد ذكر آياته فى أول سورة يونس : ﴿مَا خَلَقَ اللهُ ذَلكَ إلا بالْحَقِّ﴾ «يونس :٥»، وقال سبحانه : ﴿أَيَحْسَبُ الإنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ «القيامة: ٣٦»، وقال ﴿أَفَحَسبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّـكُمْ إلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ «المؤمنـون : ١١٥»، وقال : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجـنَّ وَالإنس إلا ليَعْـبُدُون﴾ «الـذاريات: ٥٦»، وقـال : ﴿اللهُ الَّذي خَـلَقَ سَـبْعَ سَمَوَات وَمنَ الأَرْض مثْـلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَـهُنَّ لتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَـى كُلِّ شَيْء قَديرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بكُلِّ شَيْء علْمًا﴾ «الطلاق :١٢»، وقال تعالى : ﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قيَامًا لِّلنَّاس وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائدَ ذَلكَ لتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا في السَّمَوَات وَمَا في الأَرْض وَأَنَّ اللهَ بكُلِّ شَيْءٍ عَليمٌ﴾ «المائدة : ٩٧» .

فثبت بما ذكر أن غاية الخلق والأمر أن يُذكر وأن يشكر، يُذكر فلا يُنسى، ويشكر فلا يكـفر، وهو سبحانـه ذاكر لمن ذكره، شاكر لمـن شكره، فذكره سبـب لذكره، وشكره سبب لزيـادته من فضله، فالذكر للـقلب واللسان، والشكر للـقلب : محبة وإنابة، وللسان : ثناء وحمد، وللجوارح: طاعة وخدمة.

٤/٢٨٣ - من الآفات الخفـية العـامة أن يـكون العـبد فـي نعمـة أنعـم الله بها

عليه واختارها له ، فيملها ويطلب الانتقال منها إلى ما يزعم لجهله أنه خير له منها ، وربه برحمته لا يخرجه من تلك النعمة، ويعذره بجهله وسوء اختياره لنفسه ، حتى إذا ضاق ذرعًا بتلك النعمة وسخطها وتبرم بها واستحكم مَلَلُه لها ؛ سلبه الله إياها ، فإذا انتقل إلى ما طلبه ورأى التفاوت بين ما كان فيه وما صار إليه، اشتد قلقه وندمه وطلب العودة إلى ما كان فيه ، فإذا أراد الله بعبده خيراً ورشداً أشهده أن ما هو فيه نعمة من نعمه عليه ورضاه به وأوزعه شكره عليه فإذا حدثته نفسه بالانتقال عنه استخار ربه استخارة جاهل بمصلحته عاجز عنها، مفوض إلى الله ، طالب منه حسن اختياره له .

وليس على العبد أضر من ملله لنعم الله، فإنه لا يراها نعمة ولا يشكره عليها، ولا يفرح بها، بل يسخطها ويشكوها ويعدها مصيبة، هذا وهى من أعظم نعم الله عليه، فأكثر الناس أعداء نعم الله عليهم ولا يشعرون بفتح الله عليهم نعمه، وهم مجتهدون في دفعها وردها جهلا وظلمًا، فكم سعت إلى أحدهم من نعمة وهو ساعٍ في ردها بجهده، وكم وصلت إليه وهو ساعٍ في دفعها وزوالها بظلمه وجهله، قال تعالى : **﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾** «الأنفال: ٥٣» وقال تعالى : **﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾** «الرعد : ١١» .

فليس للنعم أعدى من نفس العبد، فهو مع عدوه ظهير على نفسه، فعدوه يطرح النار في نعمه وهو ينفخ فيها، فهو الذي مكنه من طرح النار ثم أعانه بالنفخ فإذا اشتد ضرامها استغاث من الحريق وكان غايته معاتبة الأقدار :

وعاجز الرأى مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

٥/ ٢٨٤ - فكرت في هذا الأمر، فإذا أصله أن النعم كلها من الله وحده، نعم الطاعات، ونعم اللَّذَّات، فترغب إليه أن يلهمك ذكرها ويوزعك شكرها .

قال تعالى : **﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾** «النحل : ٥٣» ، وقال : **﴿فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** «الأعراف : ٦٩» ،

وقال : ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ «النحل : ١١٤» وكما أن تلك النعم منه ومن مجرد فضله فذكرها وشكرها لا ينال إلا بتوفيقه.

٢٨٥ - والذنوب من خذلانه وتخليه عن عبده وتخليته بينه وبين نفسه، وإن لم يكشف ذلك عن عبده فلا سبيل له إلى كشفه عن نفسه، فإذا هو مضطر إلى التضرع والابتهال إليه أن يدفع عنه أسبابها حتى لا تصدر منه، وإذا وقعت بحكم المقادير ومقتضى البشرية فهو مضطر إلى التضرع والدعاء أن يدفع عنه موجباتها وعقوباتها فلا ينفك العبد عن ضرورته إلى هذه الأصول الثلاثة، ولا فلاح له إلا بها : الشكر - وطلب العافية- والتوبة النصوح .

ثم فكرت فإذا مدار ذلك على الرغبة والرهبة، وليسا بيد العبد بل بيد مقلب القلوب ومصرفها كيف يشاء، فإن وفق عبده بقلبه إليه وملأه رغبة ورهبة، وإن خذله تركه ونفسه ولم يأخذ بقلبه إليه ولم يسأله ذلك، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

٦/٢٨٦ - النعم ثلاثة :

نعمة حاصلة يعلم بها العبد، ونعمة منتظرة يرجوها، ونعمة هو فيها لا يشعر بها.

فإذا أراد الله إتمام نعمته على عبده عرفه نعمته الحاضرة وأعطاه من شكره قيداً يقيدها به حتى لا تشردُ، فإنها تشرد بالمعصية، وتُقيد بالشكر، ووفقه لعمل يستجلب به النعمة المنتظرة وبصَّره بالطرق التي تسدها وتقطع طريقها ووفقه لاجتنابها، وإذا بها قد وافت إليه على أتم الوجوه، وعرفه النعم التي هو فيها ولا يشعر بها .

ويُحكى أن أعرابيًا دخل على الرشيد، فقال : أمير المؤمنين ثبت الله عليك النعم التى أنت فيها بإدامة شكرها، وحقق لك النعم التى ترجوها بحسن الظن به ودوام طاعته، وعرفك النعم التي أنت فيها ولا تعرفها لتشكرها.

فأعجبه ذلك منه وقال : ما أحسن تقسيمه .

وانظر الفقرات والفوائد برقم :

(١٤٤ - ١٦٠ - -١٩٧ - ١٩٨ - ١٩٩ - ٢٠١ - ٢٩٤ - ٤٣٩ - ٤٤٢ - ٤٦٥ - ٤٦٨ - ٤٧٠ - ٥٤٥ - ٥٤٦) .



الفصل الرابع عشر
التواضع وعدم الكبر

١/ ٢٨٧ - طوبى لمن أنصف ربه، فأقر[1] له بالجهل في علمه، والآفات في عمله، والعيوب فى نفسه والتفريط في حقه، والظلم في معاملته، فإن آخذه بذنوبه رأى عدله، وإن لم يؤاخذه بها رأى فضله، وإن عمل حسنة رآها من منّته وصدقته عليه، فإن قبلها فمنّة وصدقة ثانية، وإن ردها فلكون مثلها لا يصلح أن يواجه به، وإن عمل سيئة رآها من تخلّيه عنه وخذلانه له، وإمساك عصمته عنه، وذلك من عدله فيه، فيرى في ذلك فقره إلى ربه، وظلمه في نفسه، فإن غفرها له فبمحض إحسانه وجوده وكرمه .

ونكتة المسألة وسرها: أنه لا يرى ربه إلا محسنًا، ولا يرى نفسه إلا مسيئًا أو مفرطًا أو مقصرًا، فيرى كل ما يسره من فضل ربه عليه وإحسانه إليه، وكل ما يسوؤه من ذنوبه وعدل الله فيه .

٢/ ٢٨٨ - لله ملك السماوات والأرض، واستقرض منك حبة فبخلت بها .

وخلق سبعة أبحر، وأحب منك دمعة فقحطت عينك بها .

٣/ ٢٨٩ - إذا نزل «آب» فى القلب حل «آذار» في العين[2] .

٤/ ٢٩٠ - أصل الأخلاق المذمومة كلها : الكبر والمهانة والدناءة .

وأصل الأخلاق المحمودة كلها : الخشوع وعلو الهمة .

---

(١) أي فأقر على نفسه لله بالجهل فى علمه . . . إلى آخر كلامه .

(٢) آب : هو ما يعادل شهر اغسطس، وفيه يشتد الحر، ويقصد به هنا حر الشوق والخوف.

وآذار : ما يعادل شهر مارس وفيه تنزل الأمطار، والمعنى واضح .

فالفخـر والبطر والأشر، والعـجب والحسد والبغـي، والخيلاء والظلم والـقسوة والتجبر، والإعـراض وإباء قبول النصيحـة، والاستئثار وطلب العـلو، وحب الجاه والرئاسة، وأن يُحمد بما لم يفعل، وأمثال ذلك . . كلها ناشئة من الكبر .

وأما الكذب والخسة والخيانة، والرياء والمـكر والخديعة، والطمع والفزع، والجبن والبخل، والعجز والكسل والذل لغير الله، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، ونحو ذلك، فإنها من المهانة والدناءة وصغر النفس .

وأما الأخـلاق الفاضلـة: كالصـبر، والشـجاعة، والعـدل، والمروءة، والعـفة، والصيانة، والجود، والحلم والعفو، والصفح، والاحتمال والإيثار، وعزة النفس عن الدناءات، والتواضع والـقناعة، والصدق والإخلاص، والمكافأة علـى الإحسان بمثله أو أفضل، والتغافل عن زلات الناس، وترك الاشتـغال بما لا يعنيه، وسلامة القلب من تلك الأخلاق المذمومة، . . ونحو ذلك، فكلها ناشئة عن الخشوع وعلو الهمة .

٢٩١ - والله سبحانـه أخبر عن الأرض بأنها تكـون خاشعة ثم ينزل علـيها الماء فتهـتز وتربو وتأخـذ زينتها وبـهجتها، فـكذلك المخلوق مـنها إذا أصابه حـظه من التوفـيق. وأما النار فطـبعها العلـو والإفساد ثم تخمـد فتصير أحقـر شيء وأذله، وكذلك المخلـوق منها، فهي دائـمًا بين العلـو إذا هاجت واضطربت، وبـين الخسة والدنـاءة إذا خمدت وسـكنت، والأخـلاق المذمومة تـابعة لـلنار والمخـلوق منـها والأخلاق الفاضلـة تابعة للأرض والمخلوق منهـا، فمن علت همته وخشـعت نفسه اتصف بكل خلق جميل، ومن دنت همته وطغت نفسه اتصل بكل خلق رذيل .

٥/ ٢٩٢ - من علامات السعادة والفلاح :

أن العبد كلما زيد في علمه زيد في تواضعه ورحمته .

وكلما زيد في عمله زيد في خوفه وحذره .

وكلما زيد في عمره نقص من حرصه .

وكلما زيد في ماله زيد في سخائه وبذله .

وكلما زيد في قدره وجاهه زيد في قربه مــن الناس، وقضاء حوائجهم والتواضع لهم .

ومن علامات الشقاوة :

أنه كلما زيد في علمه زيد في كبره وتيهه .

وكلما زيد في عمله زيد في فخره واحتقاره للناس ، وحسن ظنه بنفسه.

وكلما زيد في عمره زيد في حرصه .

وكلما زيد في ماله زيد في بخله وإمساكه .

وكلما زيد في قدره وجاهه زيد في كبره وتيهه .

وهذه الأمور ابتلاء من الله وامتحان، يبتلي بها عباده فيسْعِد بها أقوامًا ويشقى بها أقوامًا .

٢٩٣ - وكذلك الكرامات امتحان وابتلاء، كالمُـلك والسلطان والمال، قال تعالى عن نبيه سليمان لما رأى عرش بلقيس عنده : ﴿**هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ**﴾ « النمل : ٤٠» .

فالنعم ابـتلاء من الله وامتحان يظهر بـها شكر الشكور، وكفر الـكفور، كما أن المحن بلوى منه سبحانـه، فهو يبتلي بالنعم كما يبتلـي بالمصائب، قال الله تعالى : ﴿**فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلا ....**﴾ «الفجر : ١٥ : ١٧» أي لـيس كل من وَسَّعْتُ علـيه وأكرمته ونعمته يـكون ذلك إكرامًا مني له، ولا كـل من ضيقت عليه رزقه وابتليته يكون ذلك إهانة مني له .

٦/ ٢٩٤ - لا ينتفع بنـعمة الله بالإيمان والعلم إلا من عرف نـفسه، ووقف بها عند قـدرها، ولم يتجاوزه إلـى ما ليس له، ولم يـتعدَّ طوره، ولم يقـل هذا لي، وتيقن أنـه لله ومن الله وبالله، فهو المانُّ (سبـحانه) به ابتداء وإدامة، بـلا سبب من

العبد، ولا استحقاق مـنه، فتذله نعم الله عليه، وتكسره كسـرة من لا يرى لنفسه، ولا فيها خيراً البتة، وأن الخير الذي وصل إليه فهو لله وبه ومنه (سبحانه)، فتحدث له النعم ذلا وانكسارًا عجيبًا لا يُعَبَّرُ عنه .

فكلما جـدد (سبحانه) له (للعبـد) نعمة ازداد له ذلا وانكساراً وخشـوعًا ومحبَّةً وخوفًا ورجاءً، وهذا نتيجة علمين شريفين :

- علمه بربه وكماله، وبره، وغناه، وجوده، وإحسانه، ورحمته، وأن الخير كله في يديه، وهو مُلكه يؤتي منه من يشاء، ويمنع منه من يشاء، وله الحمد على هذا، وهذا أكمل حمد وأتمه .

- وعلـمه بنفسه ووقوفه على حدها وقدرها، ونقصها وظلمها وجهلها، وإنها لا خير فيها البتة، ولا لها ولا بها ولا منها، وأنها ليس لها من ذاتها إلا العدم فكذلك من صفاتها وكمـالها، ليس لها إلا العدم الذي لا شيء أحقـر منه ولا أنقص، فما فيها من الخير تابع لوجودِها الذي ليس لها ولا بها .

فإذا صار هَذان العلمان صبغة لها لا صبغة على لسانها ، عَلِمتَ حينئذٍ أن الحمد كله لله والأمـر كله لَه ، والخيـر كله فى يديه ، وأنـه هو المستحـق للحمد والـثناء والمدح دونهـا ، وأنها هى أولى بـالذم والعيب والـلوم، ومن فاتـه التحقق بـهذين العلمين، تلونت به أقواله وأعماله وأحواله، وتخبطت عليه، ولم يهتد إلى الصراط المستقيم الموصل له إلى الله .

فإيصال العبد بتحقيق هاتين المعرفتين : عِلمًا وحالا، وانقطاعه بفواتها.

وهذا معنى قولهم : «من عرف نفسه عرف ربه» .

فإنه من عرف نفسـه بالجهل والظلم والعيب والنقائص ، والحاجة والفقر ، والذل والمسكنة والعدم ؛ عرف ربه بضد ذلك ، فوقف بـنفسه عند قدرها ، ولـم يتعدَّ بها طورهـا ، وأثـنى علـى ربــه ببـعض ما هو أهلـه ، وانصرفت قوة حبه وخـشيته ورجائه وإنـابته وتوكلـه إليه وحده ، وكان أحـب شيء إليه وأخوف شـيء عنده، وأرجاه له ، وهذا هو حقيقة العبودية .

ويُحكى أن بعـض الحكماء كتب على باب بيـته : إنه لن ينتفع بحكـمتنا إلا من

عرف نفسه ووقف بها عند قدرها، فمن كان كذلك فليدخل وإلا فليرجع حتى يكون بهذه الصفة، والله المستعان .

وانظر الفقرات والفوائد برقم :

(١٥ - ٥٧ - ١٦٨ - ٤٤٩ - ٤٦٥ - ٤٦٨ - ٤٦٩ - ٤٨٦ - ٤٨٧ - ٤٨٨ - ٤٩٦ - ٤٩٨ - ٤٩٩ - ٥٠٤ - ٥٦٢ - ٥٦٨ - ٥٦٩ - ٥٩٠ - ٥٩٥ - ٥٩٦ - ٥٩٧ - ٦٠١ - ٦٣٢ - ٦٣٧ - ٦٣٩ - ٦٤٤ - ٦٤٧).



الفصل الخامس عشر
محبة الله والأنس به والشوق إليه

١/ ٢٩٥ - المحبون إذا خربت منازل أحبائهم قالوا : سقيًا لسكناها .

وكذلك المحب إذا أتت عليه الأعوام تحت التراب ذُكر حينئذ حسن طاعته له في الدنيا وتودده إليه وتجدد رحمته وسقياه لمن كان ساكنًا في تلك الأجسام البالية .

٢/ ٢٩٦ - الغيرة غيرتان : غيرة على الشيء وغيرة من الشيء، فالغيرة على المحبوب: حرصك عليه، والغيرة من المكروه: أن يزاحمك عليه .

فالغيرة على المحبوب لا تتم إلا بالغيرة من المزاحم، وهذه تحمد حيث يكون المحبوب تقبح المشاركة في حبه كالمخلوق، وأما من تحسن المشاركة في حبه كالرسول والعَالِم، بل الحبيب القريب سبحانه لا يُتصور غيرة المزاحمة عليه بل هو حسد .

والغيرة المحمودة في حقه (سبحانه): أن يغار المحب على محبته له أن يصرفها إلى غيره أو يغار عليها أن يطلع عليها الغير فيفسدها عليه، أو يغار على أعماله أن يكون فيها شيء لغير محبوبه أو يغار عليها أن يشوبها ما يكره محبوبه من رياء أو إعجاب أو محبة لإشراف غيره عليها أو غيبته عن شهود منته عليه فيها .

وبالجملة : فغيرته تقتضي أن تكون أحواله وأعماله وأفعاله كلها لله .

وكذلك يغار على أوقاته أن يذهب منها وقت في غير رضا محبوبه، فهذه الغيرة من جهة العبد وهي غيرة من المُزاحم له، المعوق القاطع له عن مرضاة محبوبه، وأما غيرة محبوبه عليه : فهي كراهية أن ينصرف قلبه عن محبته إلى محبة غيره، بحيث يشاركه في حبه ولهذا كانت غيرة الله أن يأتي العبد ما حرم عليه، ولأجل غيرته سبحانه حرم الفاحشة ما ظهر منها وما بطن، لأن الخلق عبيده وإماؤه فهو يغار على إمائه كما يغار السيد على جواريه، ولله المثل الأعلى، ويغار على

عبيده أن تكون محبتـهم لغيره، بحيث تحملهم تلك المحبة عـلى عشق الصور ونيل الفاحشة منها .

٣/ ٢٩٧ - إذا علقت شروش المعرفة فى أرض القلب، ونبتت فيه شجرة المحبة، فإذا تمكنـت وقويت أثمرت الطـاعة، فلا تزال الشجـرة تؤتي أُكلها كـل حين بإذن ربها .

٤/ ٢٩٨ - ليس العجب مـن مملوك يتذلل لله ويتعبد له ولا يمـل من خدمته مع حاجته وفقره إليه، إنمـا العجب من ملك يتحبب إلى مملوكه بـصنوف إنعامه ويتودد إليه بأنواع إحسانه مع غناه عنه :

كـفـى بك عـزًا أنك له عـبـد   وكـفـى بك فـخـرًا أنه لك ربُ

٥/ ٢٩٩ - يا بائعًا نفسه بهوى مَن حُبه ضنًى، ووصله أذًى، وحسنه إلى فناء لقد بعت أنفس الأشياء بثمن بخس كأنك لم تـعرف قدر السلعة ولا خسة الثمن، حتى إذا قدمت يوم التغابن تبين لك الغُبن في عقد التبايع :

لا إله إلا الله سـلعة: الله مشـتريها، وثـمنهـا الجنة، والدَّلال الـرسول ﷺ، ترضى ببيعها بجزء يسير مما لا يساوى كله جناح بعوضة:

إذا كان شيء لا يساوى جـميـعه   جناح بعوضٍ عند من صـرت عبـده

ويـملك جـزء منه كلك ما الذى   يكون على ذى الحـال قدرك عنـده

وبعت به نفـسًا قـد استامـهـا   بـما لديه من الحـسنى وقد زال وده

٦/ ٣٠٠ -

تقول سليمى لو أقمت بأرضنا   ولـم تدر أنـى للمـقـام أطوف

٧/ ٣٠١ - من فقد أنسه بالله بين الناس ووجده في الوحدة فهو صادق ضعيف.

ومن وجده بين الناس وفقده في الخلوة فهو معلول .

ومن فقده بين الناس وفى الخلوة فهو ميت مطرود .

ومن وجده في الخلوة (وبين) الناس فهو المحب الصادق القوي في حاله.

ومن كان فتحه في الخلوة لم يكن مزيده إلا منها .

ومن كان فتحه بين الناس (وعند) نصحهم وإرشادهم، كان مزيده معهم.

ومن كان فتحه في وقوفه مع مراد الله حيث أقامه وفي أي شيء استعمله كان مزيده في خلوته ومع الناس .

فأشرف الأحوال أن لا تختار لنفسك حالة سوى ما يختاره لك ويقيمك فيه فكن مع مراده منك ولا تكن مع مرادك منه .

٨/٣٠٢ - من أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة، وأن تعرف قدر الربح فى معاملته ثم تعامل غيره، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له، وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته، وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض في غير حديثه والحديث عنه، ثم لا تشتاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره ولا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه .

وأعجب من هذا علمك أنك لابد لك منه، وأنك أحوج شيء إليه وأنت عنه مُعرِض، وفيما يبعدك عنه راغب .

٩/٣٠٣ - اللَّذة تابعة للمحبة، تقوى بقوتها وتضعف بضعفها، فكلما كانت الرغبة في المحبوب والشوق إليه أقوى كانت اللَّذة بالوصول إليه أتم، والمحبة والشوق تابع لمعرفته والعلم به، فكلما كان العلم به أتم كانت محبته أكمل، فإذا رجع كمال النعيم في الآخرة، وكمال اللَّذة إلى العلم والحب، فمن كان يؤمن بالله وأسمائه وصفاته وبه أعرف، كان له أحب وكانت لذته بالوصول إليه ومجاورته والنظر إلى وجهه وسماع كلامه أتم، وكل لذة ونعيم وسرور وبهجة بالإضافة إلى ذلك كقطرة في بحر . فكيف يؤثر من له عقل لذة ضعيفة قاصرة مشوبة بالآلام على لذة عظيمة دائمة أبد الآباد ؟!

وكمال العبد بحسب هاتين القوتين : العلم، والحب .

وأفضل العلم العلم بالله، وأعلى الحب الحب له، وأكمل اللذة بحسبهما، والله المستعان .

١٠/ ٣٠٤ - أعلى الهمم في باب الإرادة أن تكون الهمة متعلقة بمحبة الله والوقوف مع مراده الدينى الأمري، وأسفلها أن تكون الهمة واقفة مع مراد صاحبها من الله، فهو إنما يعبده (سبحانه) لمراده منه لا لمراد الله منه، فالأول يريد الله ويريد مراده، والثاني يريد من الله وهو فارغ عن إرادته.

١١/ ٣٠٥ - إذا كان الله وحده حظك ومرادك، فالفضل كله تابع لك يزدلف إليك، أي أنواعه تبدأ به، وإذا كان حظك ما تنال منه فالفضل موقوف عنك لأنه بيده تابع له فعل من أفعاله، فإذا حصل لك حصل لك الفضل بطريق الضمن والتبع، وإذا كان الفضل مقصودك لم يحصل الله بطريق الضمن والتبع فإن كنت قد عرفته وأنست به ثم سقطت إلى طلب الفضل حرمك إياه عقوبة لك ففاتك الله وفاتك الفضل .

١٢/ ٣٠٦ - سبحان الله، تزينت الجنة للخطاب فجدُّوا في تحصيل المهر، وتعرف رب العزة إلى المحبين بأسمائه وصفاته فعملوا على اللقاء، وأنت مشغول بالجيف :

لا كان من لسواك منه قلبه ولك اللسان مع الوداد الكاذب

١٣/ ٣٠٧ - المعرفة بساط لا يطأ عليه إلا مُقرب، والمحبة نشيد لا يُطرب عليه إلا محب مغرم .

١٤/ ٣٠٨ - الحُب غدير في صحراء ليست عليه جادة، فلهذا قلَّ وارده.

١٥/ ٣٠٩ - المُحب يهرب إلى العزلة والخلوة بمحبوبه والأنس بذكره، كهرب الحوت إلى الماء، والطفل بأمه :

وأخرج من بين البيوت لعلنى أحدث عنك القلب بالسر خاليا

١٦/ ٣١٠ - ليس للعابد مستراح إلا تحت شجرة طوبى، ولا للمحب قرار إلا يوم المزيد .

١٧/ ٣١١ - اشتغل به في الحياة يكفك ما بعد الموت .

١٨/ ٣١٢ - يا منفقًا بضاعة العمر في مخالفة حبيبه والبعد منه، ليس في

أعدائك أضرُّ عليك منك :

مـا تبلـغ الأعـداء من جاهل ما يبلغ الجـاهل مـن نـفسـه

١٩/ ٣١٣ - اصدق في الطلب وقد جاءتك المعونة .

٢٠/ ٣١٤ - قال رجل لمعروف : علمني المحبة، فقال : المحبة لا تجيء بالتعليم:

هو الشوق مدلولا على مقتل الفتى إذا لم يعد صبا بلقيا حبيبه

٢١/ ٣١٥ - ليس العجب من قوله ﴿يحبونه﴾ إنما العجب من قوله ﴿يحبهم﴾ . وليس العجب من فقير مسكين يحب محسنًا إليه، إنما العجب من محسن يحب فقيرًا مسكينًا .

٢٢/ ٣١٦ - من خُلق فيه قوة واستعداد لشيء ، كانت لذته في استعمال تلك القوه فيه :

- فلذة من خلقت فيه قوة واستعداد للجماع، استعمال قوته فيه .

- ولذة من خلقت فيه قوة الغضب والتوثب استعمال قوته الغضبية فى متعلقها .

- ومن خلقت فيه قوة الأكل والشراب فلذته باستعمال قوته فيها .

- ومن خلقت فيه قوة العلم والمعرفة فلذته باستعمال قوته وصرفها إلى العلم.

- ومن خلقت فيه قوة الحب لله والإنابة إليه والعكوف بالقلب عليه والشوق إليه ، والأنس به فلذته ونعيمه استعمال هذه القوة في ذلك .

وسائر اللَّذات دون هذه اللذة مضمحلة فانية، وأحمد عاقبتها أن تكون لا له ولا عليه .

٢٣/ ٣١٧ -

أحن بأطراف النهار صبابة وبالليل يدعونى الهوى فأجيب

٢٤/ ٣١٨ -

وإذا لم يكن من العشق بدٌّ فمن العجز عشق غير الجميل

٢٥/٣١٩ - لو عرفت قدر نفسك عندنا ما أهنتها بالمعاصي، إنما أبعدنا إبليس إذ لم يسجد لك وأنت في صُلب أبيك، فواعجبًا كيف صالحته وتركتنا ! .

(★) لو كان في قلبك محبة لبان أثرها على جسدك :

ولما ادعيتُ الحُب قالت كذبتني ألستُ أرى الأعضاء منك كواسيا

٢٦/ ٣٢٠ - لو تغذي القلب بالمحبة لذهبت عنه بطنة الشهوات:

ولو كنت عذرى الصبابة لم تكن بطينًا وأنساك الهوى كثرة الأكل

٢٧ / ٣٢١ - لو صحت محبتك لاستوحشت ممن لا يُذكركَ بالحبيب .

٣٢٢ - واعجبًا لمن يدعى المحبة ويحتاج إلى من يُذكِّرُهُ حتى يتذكر .

٣٢٣ - أقل ما في المحبة أنها لا تُنسيك تذكر المحبوب :

ذكرتُك لأني نسيتُك ساعة وأيسر ما في الذكر ذِكرُ لساني

٢٨/ ٣٢٤ - إذا سافر المحبوب للقاء محبوبه ركبت جنوده معه، فكان الحُب في مقُدمة العسكر، والرجاء يحدو بالمطي، والشوق يسوقها، والخوف يجمعها على الطريق فإذا شارف قدوم بلد الوصل خرجت تقادم الحبيب باللقاء :

فداو سُقمًا بجسم أنت مُتلفهُ وأبردِ غرامًا بقلبٍ أنت مُضرِمه

ولا تكلني على بُعد الديار إلى صبري الضعيف فصبري أنت تعلمهُ

تلق قلبي- فقد أرسلته - عجلا إلى لقائك والأشواقُ تقدمهُ

فإذا دخل على الحبيب أفيضت عليه الخُلع من كل ناحيةٍ ليُمتحن أيسكن إليها فتكون حظه، أم يكون التفاته إلى من ألبسه إياها .

٢٩/ ٣٢٥ - ملئوا مراكب القلوب متاعًا لا تُنفق إلا على الملك ، فلمَّا هبت رياح السَّحَر أقلعت تلك المراكب، فما طلع الفجر إلا وهي بالميناء.

٣٠/ ٣٢٦ - قطعوا بادية الهوى بأقدام الجد، فما كان إلا القليل حتى قدموا من السفر فأعقبهم الراحة في طريق التلقي، فدخلوا بلد الوصل وقد حازوا ربح الأبد .

٣١/ ٣٢٧ - فَرَّغَ القوم قلوبهم من الشواغل، فضُرِبت فيها سُرادقات المحبة، فأقاموا العيون تحرس تارة وترش أخرى .

٣٢/ ٣٢٨ - سُرْادق المحبة لا يُضرب إلا في قاع نزهٍ فارغ :

نزه فؤادك من سوانا والقنا … فجنابنا حِلٌ لكل منزه

الصبرُ طلسمٌ لكنز وصالنا … من حَلَّ ذا الطلسَمَ فاز بِكَنزِه

٣٣/ ٣٢٩ - من استطال الطريق ضعف مشيه:

وما أنت بالمشتاق إن قُلت بيننا … طوال الليالي أو بعيد المفاوز

٣٤/ ٣٣٠ - قد علمت أين المنزل فاحْدُ لها تَسِر[1] .

٣٥/ ٣٣١ - وقدم التقادم بين يدى الملتقى فاستبشر بالرضا عند القدوم: ﴿وَقَدِّمُوا لأنفُسِكُمْ﴾ « البقرة : ٢٢٣ ».

٣٦/ ٣٣٢ - الجنة ترضى منك بأداء الفرائض، والنار تندفع عنك بترك المعاصي، والمحبة لا تقنع منك إلا ببذل الروح .

٣٧/ ٣٣٣ - لله ما أحلى زمان تسعى فيه أقدام الطاعة على أرض الاشتياق .

٣٨/ ٣٣٤ - لَمَّا سلَّم القوم النفوس إلى رائض الشرع، علَّمها الوفاق في خلاف الطبع فاستقامت مع الطاعة كيف دارت، دارت معها :

وإني إذا اصطكت رقاب مطيهم … وثور حاد بالرفاق عجولُ

أخالف بين الراحتين على الحشا … وأنظر أني ماثم فأميلُ

---

(١) هذه فائدة جليلة، ولفتة جميلة جدًا، ومعناها : أن النفس بعد أن علمت الحق وميزته عن الباطل، وعرفت طريق الآخرة والجنة التى هى منزلها الأصلي، التي عنه تاهت في هذه الحياة الدنيا، يقول : بعد أن علمت النفس ذلك، فربما تقاعست عن السير، أو ركنت إلى الحياة الدنيا وتكاسلت، فَاحْدُ لها وذكرها بالوصل وبالمحبة تارة، وبالخوف والشوق تارة . . وهكذا إلى أن تصل، كما يحدو حادي الإبل لها كي يقويها على المسير في سفرها الطويل، والله أعلم بالمراد.

٣٩/ ٣٣٥ - إذا استغنى الناس بالدنيا فاستغن أنت بالله، وإذا فرحوا بالدنيا فافرح أنت بالله ، وإذا أنسوا بأحبابهم فاجعل أُنسك بالله، وإذا تعرّفوا إلى ملوكهم وكبرائهم وتقربوا إليهم لينالوا بهم العزة والرفعة فتعرف أنت إلى الله وتودد إليه تنل بذلك غاية العز والرفعة .

٤٠/ ٣٣٦ - العارف في الأَرْضِ ريحانة من رياحين الجنة، إذا شمها المُريد اشتاقت نفسه إلى الجنة .

٤١/ ٣٣٧ - قال الأسود بن سالم : رَكْعَتَيْنِ أصليهما لله أحب إليَّ من الجنة بما فيها .فقيل له : هذا خطأ .

فقال : دعونا من كلامكم، الجنة رضا نفسى، والركعتين رضا ربى، ورضا ربي أحب إليَّ من رضا نفسي .

٤٢/ ٣٣٨ - قلب المُحِب موضوع بين جلال محبوبه وجماله، فإذا لاحظ جلاله هابه وعظمه، وإذا لاحظ جماله أحبه واشتاق إليه .

٤٣/ ٣٣٩ - إذا أصبح العبد وأمسى وليس همه إلا الله وحده تحمل الله سبحانه حوائجه كلها، وحمل عنه كل ما أهمه، وفرَّغ قلبه لمحبته، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته .

وإن أصبح وأمسى والدنيا همه حمله الله همومها وغمومها وأنكادها، ووكله إلى نفسه، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق، ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم، فهو يكدح كدح الوحش فى خدمة غيره، كالسكير ينفخ بطنه ويعصر أضلاعه فى نفع غيره، فكل من أعرض عن عبودية الله وطاعته ومحبته بُلي بعبودية المخلوق ومحبته وخدمته .

قال تعالى : ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ «الزخرف : ٣٦» قال سفيان بن عُيينة : لا تأتون بمثل - مشهور للعرب - إلا جئتكم به من القرآن !

فقال له قائل : فأين فى القرآن : «اعط أخاك تمرة فإن لم يقبل فأعطه جمرة»؟!

فقال : فى قولـه تعالى : ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا ...﴾ الآية .

٣٤٠/٤٤ - الناس فى هذه الدار على جناح سفر كلهم، وكل مسافر فهو ظاعن إلى مقصده، ونازل على من يسر بالنزول عليه .

وطالب الله والدار الآخرة إنما هو ظاعن إلى الله فـى حال سفره ونازل عليه عند القدوم عليـه، فهذه همته في سفره وفـي انقضائه : ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ «الفجر : ٢٧ : ٣٠» .

وقالت امرأة فرعون: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ «التحريم: ١١» .

فطلبت كون البيت عنده قبل طلبها أن يكون فى الجنة، فإن الجار قبل الدار .

٣٤١/٤٥ - لا يزال العبد منقطعًا عن الله حتى تصل إرادته ومحبته بوجهه الأعلى والمراد بهذا الاتصال أن تفضى المحبة إليه وتتعلق به وحده فلا يحجبها شيء دونه ، وأن تتصل المعرفة بأسمائه وصفاته وأفعاله فلا يطمس نورها ظلمة التعطيل ، كما لا يطمس نور المحبة ظلمة الشرك، وأن يتصل ذكره به سبحانه فيزول بين الذاكر والمذكور حجاب الغفلة والتفاته فى حال الذكر إلى غير مذكوره ، فحينئذ يتصل الذكر به ويتصل العمل بأوامره ونواهيه فيفعل الطاعة ؛ لأنه أمر بها وأحبها ، ويترك المناهى لكونه نهى عنها وأبغضها .

فهذا معنى اتصال العمل بأمره ونهيه ، وحقيقته زوال العلل الباعثة على الفعل والترك من الأغراض والحظوظ العاجلة ، ويتصل التوكل والحب به بحيث يصير واثقًا به سبحانه مطمئنًا إليه راضيًا بحسن تدبيره له غير متهم له في حال من الأحوال، ويتصل فقره وفاقته به سبحانه دون من سواه ، ويتصل خوفه ورجاؤه وفرحه وسروره وابتهاجه به وحده فلا يخاف غيره ولا يرجوه ولا يفرح به كل الفرح ولا يسر به غاية السرور .

وإن ناله بالمخلوق بعض الفرح والسرور فليس الفرح التام والسرور الكامل ، والابتهاج ، والنعيم ، وقرة العين ، وسكون القلب إلا به سبحانه ، وما سواه إن أعان على هذا المطلوب فرح به وسر به ، وإن حجب عنه فهو بالحزن به والوحشة منه واضطراب القلب بحصوله أحق منه بأن يفرح به - فلا فرحة ولا سرور إلا به أو بما أوصل إليه وأعان على مرضاته .

٣٤٢ - وقد أخبر سبحانه أنه لا يحب الفرحين بالدنيا وزينتها، وأمر بالفرح بفضله ورحمته - وهو الإسلام والإيمان والقرآن - كما فسره الصحابة والتابعون .

والمقصود : أن من اتصلت له هذه الأمور بالله سبحانه فقد وصل، وإلا فهو مقطوع عن ربه، متصل بحظه ونفسه، مُلَبَّس عليه في معرفته وإرادته وسلوكه .

٤٦/ ٣٤٣ - قدر السِلعة يُعرف بقدر مشتريها والثمن المبذول فيها، والمنادى عليها.

فإذا كان المشترِي عظيمًا والثمن خطيرًا، والمنادى جليلا، كانت السلعة نفيسة .

٤٧/ ٣٤٤ - أرباب الحوائج على باب الملك يسألون قضاء حوائجهم، وأولياؤهم المحبون له الذين هو همهم ومرادهم، جلساؤه وخواصه، فإذا أراد قضاء حاجة واحد من أولئك أذن لبعض جلسائه وخاصته أن يشفع فيه رحمة له وكرامة للشافع، وسائر الناس مطرودون عن الباب، مضروبون بسياط البعد .

وانظر الفقرات والفوائد برقم :

(٥٨ - ٥٩ - ٩٣ - ١٢٠ - ١٤٠ - ١٩٤ - ١٩٧ - ١٩٨ - ١٩٩ - ٢٠٢ - ٢٣٣ - ٢٤٧ - ٢٤٨ - ٢٦٧ - ٢٦٨ - ٢٦٩ - ٢٧٠ - ٢٧١ - ٣٦٢ - ٣٦٨ - ٣٧٤ - ٤٢٢ - ٤٥٢ - ٤٩٢ - ٥٧٥ - ٥٩٤ - ٦٣٣ - ٦٤٣ - ٦٤٤ - ٦٤٧).

الباب الثانى
الفضائل والمذمومات

١ - فضل العلم والعلماء وآداب طالب العلم .

٢ - فضل العزلة والتفكير وذكر الله تعالى .

٣ - فضل الزهد .

٤ - فضل الحلم والعفو .

٥ - ذم الدنيا .

٦ - ذم الكذب وخطر اللسان .

٧ - ذم البخل والحرص .

الفصل الأول
فضل العلم وذم علماء السوء وآداب طالب العلم وذم الجهل

١/ ٣٤٥ - من لم يباشر حر الهجير في طُلاب المجد ، لـم يَقِل[1] فى ظلال الشرف .

٢/ ٣٤٦ - أعلى الهمم في طلب العلم : الكتاب والسنة ، والفهم عن الله ورسوله نفس المراد، وعلم حدود المنزل .

وأخس همم طلاب العلم: قصر همته على تتبع شواذ المسائل وما لم ينزل ولا هو واقع، أو كانت همته معرفة الاختلاف وتتبع أقوال الناس، وليس له همة إلى معرفة الصحيح من تلك الأقوال، وقل أن ينتفع واحد من هؤلاء بعلمه .

٣/ ٣٤٧ - علماء السوء جلسوا على باب الجنة ، يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم ، فكلما قالت أقوالهم للناس هلموا ، قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم فلو كان ما دعوا إليه حقًا كانوا أول المستجيبين له، فهم فى الصورة أدلاء وفي الحقيقة قطاع الطرق.

٤/ ٣٤٨ - العلم : نقل صورة المعلوم من الخارج وإثباتها فى النفس.

والعمل : نقل صورة علمية من النفس وإثباتها في الخارج .

فإن كان الثابت فى النفس مطابقًا للحقيقة في نفسها، فهو علم صحيح.

وكثيرًا ما يثُبت ويتراءى فى النفس صور ليس لها وجود حقيقى، فيظنها الذى قد أثبتها فى نفسه علمًا، وإنما هي مقدرة لا حقيقة لها، وأكثر علوم الناس من هذا الباب، وما كان منها مطابقًا للحقيقة في الخارج فهو نوعان:

---

(١) القيلولة : نومة نصف النهار ، أو الاستراحة فيه وإن لم يكن نومًا ، والمعنى واضح.

- نوع تكمل النفس بإدراكه والعلم به : وهو العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وكتبه وأمره ونهيه .

- ونوع لا يحصل للنفس به كمال، وهو كل علم لا يضر الجهل به، فإنه لا ينفع العلم به، وكان النبيُّ ﷺ يستعيذ بالله من علم لا ينفع .

وهذا حال أكثر العلوم الصحيحة المطابقة التى لا يضر الجهل بها شيئًا كالعلم بالفلك ودقائقه، ودرجاته، وعدد الكواكب ومقاديرها، والعلم بعدد الجبال وألوانها، ومساحاتها، ونحو ذلك .

فشرف العلم بحسب شرف معلومه وشدة الحاجة إليه، وليس ذلك إلا العلم بالله وتوابع ذلك.

وأما العلم فآفته عدم مطابقته لمراد الله الدينى الذى يحبه الله ويرضاه، وذلك يكون من فساد العلم تارة، ومن فساد الإرادة تارة .

ففساده من جهة العلم : أن يعتقد أن هذا مشروع محبوب لله وليس كذلك، أو يعتقد أنه يقربه إلى الله وإن لم يكن مشروعًا، فيظن أنه يتقرب إلى الله بهذا العمل وإن لم يعلم أنه مشروع .

وأما فساده من جهة القصد : فأن لا يقصد به وجه الله والدار الآخرة، بل يقصد به الدنيا والخلق، وهاتان الآفتان في العلم والعمل لا سبيل إلى السلامة منها إلا بمعرفة ما جاء به الرسول ﷺ في باب العلم والمعرفة، وإرادة وجه الله والدار الآخرة في باب القصد والإرادة، فمتى خلا من هذه المعرفة وهذه الإرادة فسد علمه وعمله .

٣٤٩ - والإيمان واليقين: يورثان صحة المعرفة وصحة الإرادة، وهما يورثان الإيمان ويمدانه، ومن هنا يتبين انحراف أكثر الناس عن الإيمان، لانحرافهم عن صحة المعرفة وصحة الإرادة، ولا يتم الإيمان إلا بتلقي المعرفة من مشكاة النبوة، وتجريد الإرادة عن شوائب الهوى وإرادة الخلق، فيكون علمه مقتبسًا من مشكاة

الوحي، وإرادته لله والدار الآخرة، فهذا أصح الناس علمًا وعملا، وهو من الأئمة الذين يهدون بأمر الله، ومن خلفاء رسوله ﷺ في أمته .

٥/ ٣٥٠ - كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها؛ فلابد أن يقول على الله غير الحق في فتواه وحكمه، فى خبره وإلزامه؛ لأن أحكام الرب سبحانه كثيرًا ما تأتى على خلاف أغراض الناس ولا سيما أهل الرياسة، والذين يتبعون الشهوات فإنهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيرًا، فإذا كان العالم والحاكم محبين للرياسة، متبعين للشهوات لم يتم لهما ذلك إلا بدفع ما يضاده من الحق، ولا سيما إذا قامت له شبهة، فتتفق الشبهة والشهوة ويثور الهوى، فيخفى الصواب وينطمس وجه الحق، وإن كان الحق ظاهرًا لا خفاء به ولا شبهة فيه، أقدم على مخالفته وقال : لى مخرج بالتوبة وفي هؤلاء وأشباههم قال تعالى : ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ «مريم: ٥٩»، وقال تعالى فيهم أيضًا : ﴿فَخَلَفَ من بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ «الأعراف: ١٦٩» .

فأخبر سبحانه أنهم أخذوا العرض الأدنى مع علمهم بتحريمه عليهم وقالوا سيغفر لنا ، وإن عرض لهم عرض آخر أخذوه فهم مصرون على ذلك ، وذلك هو الحامل لهم على أن يقولوا على الله غير الحق ، فيقولون هذا حكمه وشرعه ودينه وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك ، أو لا يعلمون أن ذلك دينه وشرعه وحكمه فتارة يقولون على الله ما لا يعلمون ، وتارة يقولون عليه ما يعلمون بطلانه .

٣٥١ - وأما الذين يتقون فيعلمون أن الدار الآخرة خير من الدنيا ، فلا يحملهم حب الرياسة والشهوة على أن يؤثروا الدنيا على الآخرة، وطريق ذلك أن يتمسكوا بالكتاب والسنة، ويستعينوا بالصبر والصلاة، ويتفكروا فى الدنيا وزوالها

وخستها، والآخرة وإقبالها ودوامها، وهؤلاء[١] لابد أن يبتدعوا فى الدين مع الفجور فى العمل فيجتمع لهم الأمران .

٣٥٢ - فإن اتباع الهوى يعمى عين القلب فلا يميز بين السنة والبدعة، أو ينكسه فيرى البدعة سنة والسُّنة بدعة، فهذه آفة العلماء إذا آثروا الدنيا واتبعوا الرياسات والشهوات، وهذه الآيات[٢] فيهم، إلى قوله تعالى :

٣٥٣ - ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ «الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦» .

فهذا مثل عالم السوء الذى يعمل بخلاف علمه، وتأمل ما تضمنته هذه الآية من ذمه :

أ - أنه ضل بعد العلم، واختار الكفر على الإيمان عمدًا لا جهلا .

ب - أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبدًا ؛ فإنه انسلخ من الآيات بالجملة كما تنسلخ الحية من قشرها، ولو بقي معه منها شيء لم ينسلخ منها .

ج - أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه ؛ ولهذا قال: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ ولم يقل تبعه، فإن فى معنى أتبعه أدركه ولحقه، وهو أبلغ من تبعه لفظًا ومعنًى .

د - أنه غوى بعد الرشد، والغي : «الضلال فى العلم والقصد»، وهو أخص بفساد القصد والعمل، كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، وإن اقترنا فالفرق ما ذكر.

هـ - أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم فكان سبب هلاكه ؛ لأنه لم يرفع به فصار وبالا عليه، فلو لم يكن عالـمًا كان خيرًا له وأخف لعذابه.

---

(١) يعني بهم الذين ذُكروا في الآية السابقة .

(٢) أي الآيات في سورة الأعراف الآية (١٦٩ وما بعدها) .

و - أنه سبحانه أخبر عن خسة همته، وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى .

ز - أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض وميل بكليته إلى ما هناك.

وأصل الإخلاد : «اللزوم على الدوام» كأنه قيل : لزم الميل إلى الأرض، ومن هذا يقال : أخلد فلان بالمكان إذا لزم الإقامة به .

قال مالك بن نويرة :

بأبناء حي من قبائل مالك وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا

وعبر عن ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض، لأن الدنيا هى الأرض وما فيها، وما يستخرج منها من الزينة والمتاع .

ح - أنه رغب عن هداه واتبع هواه، فجعل هواه إمامًا له يقتدى به ويتبعه .

ط - أنه شبهه بالكلب الذي هو أخس الحيوانات همة وأسقطها نفسًا، وأبخلها وأشدها كَلبًا ولهذا سُمى «كلب» .

ى - أنه شبه لهثه على الدنيا، وعدم صبره عنها، وجزعه لفقدها وحرصه على تحصيلها : بلهث الكلب في حالتي تركه والحمل عليه بالطرد، وهكذا . . . ، هذا إن ترك فهو لهثان على الدنيا، وإن وعظ وزجر فهو كذلك، فاللهث لا يفارقه في كل حال كلهث الكلب .

قال ابن قتيبة : كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال، وحال الراحة، وحال الري وحال العطش، فضربه الله مثلا لهذا الكافر فقال : إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال .

كالكلب إن طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث، وهذا التمثيل لم يقع بكل كلب، وإنما وقع بالكلب اللاهث، وذلك أخس ما يكون وأشنعه.

فهذا حال العالم المؤثر الدنيا على الآخرة .

٣٥٤ - أما العابد الجـاهل فآفته من إعراضه عـن العلم وأحكامه، وغلـبة خياله وذوقه ووجده وما تهـواه نفسه، ولهذا قال سفـيان بن عيينة وغيـره : «احذروا فتنة العالم الفاجر، وفتنة العابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، فهذا بجهله يصد عن العلم وموجبه، وذاك ببغيه يدعو إلى الفجور» .

وقد ضرب الله سبحانه مثل النوع الآخر بقوله : ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ «الحشر: ١٦، ١٧»، وقـصته معروفة .

فإنه بني أمره على عبادة الله بجهل، فأوقعه الـشيطان بجهله وكفره بجهله، فهذا إمام كل عابد جاهل يـكفر ولا يدري، وذاك إمام كل عالم فاجر يختـار الدنيا على الآخرة .

وقد جعل سبحانه رضا الـعبد بالدنيا وطمأنينته وغفلته عـن معرفة آياته وتدبرها والعمل بها سبب شقائه وهلاكه ولا يجتمع هذان - أعني الرضا بالدنيا والغفلة عن آيات الرب - إلا في قلب من لا يؤمن بالمعـاد ولا يرجو لقاء رب العباد ، وإلا فلو رسخ قدمه في الإيمـان بالمعاد لما رضي الدنيا ولا اطمأن إلـيها ولا أعرض عن آيات الله .

٣٥٥ - وأنت إذا تأمـلت أحوال النـاس وجدت هذا الضـرب هو الغالـب على الناس، وهم عـمَّار الدنيا، وأقل النـاس عدداً من هو على خـلاف ذلك، وهو من أشد الـناس غربة بـينهم لـهم شأن وله شـأن، علمـه غير علـومهم، وإرادته غـير إرادتهم، وطريقه غير طريقهـم، فهو في واد وهم في واد، قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ «يونس : ٧، ٨» .

ثم ذكر وصف ضد هـؤلاء ومآلهم وعاقبتهـم بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ «يونس : ٩» ، فهؤلاء إيمانهم بلقاء الله أورثهم عدم الرضا بالدنيا ، والطمأنينة إليها ، ودوام ذكر آياته، فهذه مواريث الإيمان بالمعاد ، وتلك مواريث عدم الإيمان به والغفلة عنه.

٣٥٦/٦ - أفضل ما اكتسبته النفوس وحصلته القلوب، ونال به العبد الرفعة فى الدنيا والآخرة هو : «العلم والإيمان»، ولهذا قرن بينهما سبحانه فى قوله : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ «الروم : ٥٦»، وقوله سبحانه : ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ «المجادلة : ١١» .

وهؤلاء هم خلاصة الوجود ولُبُّه ، والمؤهلون للمراتب العالية ، ولكن أكثر الناس غالطون في حقيقة مسمى العلم والإيمان اللذين بهما السعادة والرفعة ، وفي حقيقتهما ، حتى أن كل طائفة تظن أن ما معها من العلم والإيمان هو الذى به تنال السعادة ، وليس كذلك ، بل أكثرهم ليس معهم إيمان ينجي ولا علم يرفع بل قد سدوا على نفوسهم طرق العلم والإيمان اللذين جاء بهما الرسول ﷺ ودعا إليهما الأمة، وكان عليها هو وأصحابه من بعده وتابعوهم على منهاجهم وآثارهم .

٣٥٧ - فكل طائفة اعتقدت أن العلم ما معها وفرحت به : ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ «المؤمنون : ٥٣»، وأكثر ما عندهم كلام وآراء وخرص، والعلم وراء الكلام، كما قال حماد بن زيد : قلت لأيوب[1] : العلم اليوم أكثر أو فيما تقدم؟ فقال : الكلام اليوم أكثر والعلم فيما تقدم أكثر .

ففرّق هذا الراسخ بين العلم والكلام، فالكتب كثيرة جدًا والكلام والجدال والمقدرات الذهنية كثيرة، والعلم بمعزل عن أكثرها، وهو ما جاء به الرسول ﷺ عن الله سبحانه .

---

(١) أيوب : هو السختياني أبو بكر البصري (توفي سنة :١٣١ هـ) .

قال تعالى : ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ «آل عمران: ٦١» .

وقال : ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ «البقرة : ١٢٠»

وقال في القرآن: ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ «النساء : ١٦٦»، أي : وفيه علمه.

٣٥٨ - ولما بعُد العهد بهذا العلم آل الأمر بكثير من الناس إلى أن اتخذوا هواجسَ الأفكار وسوانح الخواطر والآراء علمًا ، ووضعوا فيها الكتب ، وأنفقوا فيها الأنفاس ، فضيعوا فيها الزمان ، وملئوا بها الصحف مِداداً ، والقلوب سواداً ، حتى صرح كثير منهم أنه ليس في القرآن والسنة علم ، وأن أدلتهما لفظية لا تفيد يقينًا ولا علمًا ، وصرخ الشيطان بهذه الكلمة فيهم ، وأذَّن بها بين أظهرهم ، حتى أسمعها دانيهم لقاصيهم ، فانسلخت بها القلوب من العلم والإيمان كانسلاخ الحية من قشرها ، والثوب عن لابسه.

قال الإمام العلامة شمس الدين ابن القيم : ولقد أخبرني بعض أصحابنا عن بعض أتباع تلاميذ هؤلاء أنه رآه يشتغل فى بعض كُتبهم ولم يحفظ القرآن، فقال له: لو حفظت القرآن أولا كان أولى، فقال : وهل في القرآن علم ؟!

وقال ابن القيم : وقال لي بعض أئمة هؤلاء : إنَّما نسمع الحديث لأجل البركة لا لنستفيد منه العلم، لأن غيرنا قد كفانا هذه المئونة، فعُمْدَتُنَا على ما فهموه وقرروه، ولا شك أن من كان هذا مبلغه من العلم فهو كما قال القائل :

نزلوا بمكة في قبائل هاشم ونزلت بالبطحاء أبعد منزل

قال : وقال لي شيخنا[1] مرة في وصف هؤلاء : إنهم طافوا على أرباب المذاهب ففازوا بأخس المطالب، ويكفيك دليلا على أن هذا الذي عندهم ليس من عند الله، ما ترى فيه من التناقض والاختلاف ومصادمة بعضه لبعض، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ «النساء : ٨٢»، وهذا يدل على أن ما كَانَ مِنَ عندَه سبحانه لاَ يَختلفَ، وأنَ ما اختلف وتناقض فليس من عنده، وكيف

(١) لعله يقصد شيخ الإسلام : ابن تيمية - رحمه الله - .

تكون الآراء والخيالات وسوانح الأفكار دينًا يدان به ويحكم بـه على الله ورسوله، سبحانك هذا بهتان عظيم .

٣٥٩ - وقد كان علم الصحابة الَّذِين يتذاكرون فيه غير علوم هؤلاء المختلفين الخراصين كما حكى الحاكم في ترجمة أبي عبد الله البخارى، قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا إِنَّما يتذاكرون كتاب ربهم وسنة نبيهم، ليس بينهم رأي ولا قياس .

٣٦٠ - ولقد أحسن القائل :

العلم قال الله قال رسوله ... قال الصحابة ليس بالتمويه

ما العلم نصبك للخلاف سفاهة ... بين الرسول وبين رأي فقيه

كلا ولا جحد الصفات ونفيها ... حذرا من التمثيل والتشبيه

٣٦١ - وأما الإيمان فأكثر الناس - أو كلهم - يدَّعونه : ﴿**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ «يوسف : ١٠٣»، وأكثر المؤمنين إنما عندهم إيمان مجمل ، وأما الإيمان المفصل بما جاء به الرسول ﷺ معرفةً وعلمًا وإقراراً ومحبةً ومعرفةً بضده وكراهيته وبغضه ، فهذا إيمان خواص الأمة وخاصة الرسول ﷺ ، وهو إيمان الصديق ﵁ وحزبه .

وكثير من الناس حظهم من الإيمان : الإقرار بوجود الصانع وأنه وحده هو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما ، وهذا لم يكن ينكره عُبَّاد الأصنام من قريش وغيرهم .

وآخرون الإيمان عندهم : هو التكلم بالشهادتين ، سواء كان معه عمل أو لم يكن، وسواء وافق تصديق القلب أو خالفه .

وآخرون عندهم الإيمان : مجرد تصديق القلب بأن الله سبحانه خالق السماوات والأرض، وأن محمداً ﷺ عبده ورسوله، وإن لم يقر بلسانه ولم يعمل شيئًا، بل ولو سب الله - سبحانه - ورسوله ﷺ وأتى بكل عظيمة، وهو يعتقد وحدانية الله ونبوة رسوله فهو مؤمن .

وآخرون عندهم الإيمان هو جحد صفات الرب تعالى من : علوه على عرشه ، وتكلمه بكلماته ، وكتبه وسمعه وبصره ومشيئته وقدرته وإرادته وحبه وبغضه ، وغير ذلك مما وصف به نفسه ، ووصفه به رسوله ﷺ ، فالإيمان عندهم إنكار حقائق ذلك كله وجحده ، والوقوف مع ما تقتضيه آراء المتهوكين وأفكار المخرصين ، الذين يرد بعضهم على بعض ، وينقض بعضهم قول بعض ، الذين هم كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه والإمام أحمد - رحمه الله- مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، متفقون على مفارقة الكتاب [(١)] .

وآخرون عندهم الإيمان : عبادة الله بحكم أذواقهم ومواجيدهم، وما تهواه نفوسهم من غير تقييد بما جاء به الرسول ﷺ .

وآخرون الإيمان عندهم: ما وجدوا عليه آباءهم وأسلافهم بحكم الاتفاق كائنًا ما كان، بل إيمانهم مبنى على مقدمتين :

أ - أن هذا قول أسلافنا وآبائنا .

ب - أن ما قالوه فهو الحق .

وآخرون عندهم الإيمان : مكارم الأخلاق، وحسن المعاملة، وطلاقة الوجه، وإحسان الظن بكل أحد وتخلية الناس وغفلاتهم .

وآخرون عندهم الإيمان : التجرد من الدنيا وعلائقها، وتفريغ القلب منها والزهد فيها، فإذا رأوا رجلا هكذا جعلوه من سادات أهل الإيمان، وإن كان منسلخًا من الإيمان علمًا وعملا .

وأعلى من هؤلاء من جعل الإيمان : هو مجرد العلم وإن لم يقارنه عمل.

وكل هؤلاء لم يعرفوا حقيقة الإيمان، ولا قاموا به ولا قام بهم، وهم أنواع :

منهم من جعل الإيمان ما يضاد الإيمان .

ومنهم من جعل الإيمان ما لا يعتبر في الإيمان .

---

(١) انظر مقدمة الإمام أحمد في كتابه « الرد على الزنادقة » بتحقيقنا .

ومنهم من جعله ما هو شرط فيه ولا يكفي في حصوله .

ومنهم من اشترط في ثبوته ما يناقضه ويضاده .

ومنهم من اشترط فيه ما ليس منه بوجه .

والإيمان وراء ذلك كله : وهو حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول ﷺ والتصديق به عقداً ، والإقرار به نطقًا ، والانقياد له محبةً وخضوعًا، والعمل به باطنًا وظاهرًا، وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الإمكان.

٣٦٢ - وكماله[1] : في الحب في الله، والبغض في الله، والعطاء لله، والمنع لله، وأن يكون الله وحده إلهه ومعبوده .

٣٦٣ - والطريق إليه : تجريد متابعة الرسول ﷺ ظاهرًا وباطنًا، وتغميض عين القلب عن الالتفات إلى سوى الله ورسوله ﷺ .

وبالله التوفيق .

وانظر الفقرات والفوائد برقم :

(٩٣ - ٢٧٦ - ٢٩٤ - ٣٦٦ - ٣٨٦ - ٤٩٦ - ٥٧١ - ٥٧٨ - ٥٧٩ - ٦٣٠ - ٦٤٦) .



(١) وكماله : أي كمال الإيمان .

الفصل الثاني
العزلة والتفكر والذكر

١/ ٣٦٤ - للعبد ربٌّ هو ملاقيه ، وبيت هو ساكنه، فينبغى له أن يسترضى ربه قبل لقائه، ويعمر بيته قبل انتقاله إليه.

٢/ ٣٦٥ - أول منازل القوم: ﴿اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ «الأحزاب: ٤١، ٤٢».

وأوسطها: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ «الأحزاب: ٤٣».

وآخرها: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ «الأحزاب: ٤٤».

٣/ ٣٦٦ - لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة، والمحاكمة إليهما، واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما وعدلوا إلى الآراء والقياس والاستحسان وأقوال الشيوخ، عرض لهم من ذلك فساد في فطرهم وظُلمة فى قلوبهم، وكدر فى أفهامهم، ومحق في عقولهم، وعمتهم هذه الأمور، وغلبت عليهم حتى رُبِّيَ فيها الصغير وهَرِمَ عليها الكبير، فلم يروها منكرًا، فجاءتهم دولة أخرى قامت فيها البدع مقام السنن، والنفس مقام العقل، والهوى مقام الرشد، والضلال مقام الهدى، والمنكر مقام المعروف، والجهل مقام العلم ، والرياء مقام الإخلاص، والباطل مقام الحق والكذب مقام الصدق، والمداهنة مقام النصيحة، والظلم مقام العدل، فصارت الدولة والغلبة لهذه الأمور، وأهلها هم المشار إليهم، وكانت قبل ذلك لأضدادها وكان أهلها هم المشار إليهم.

فإذا رأيت دولة هذه الأمور قد أقبلت، وراياتها قد نصبت، وجيوشها قد ركبت، فبطن الأرض والله خير من ظهرها، وقُلل الجبال خير من السهول، ومخالطة الوحوش أسلم من مخالطة الناس.

٤/ ٣٦٧ - إذا حملت على القلب هموم الدنيا وأثقالها، وتهاونت بأوراده التي هي قوته وحياته، كنت كالمسافر الذى يُحمِّل دابته فوق طاقتها، ولا يوفيها علفها، فما أسرع ما تقف به:

ومشتت العزمات ينفق عمره   حيران لا ظفر ولا إخفاق

٥/ ٣٦٨ - غرس الخلوة يُثمِر الأنس.

٦/ ٣٦٩ - استوحش مما لا يدوم معك، واستأنس بمن لا يفارقك.

٧/ ٣٧٠ - عزلة الجاهل فساد، وأما عزلة العالم فمعها حذاؤها وسقاؤها.

٨/ ٣٧١ - إذا اجتمع العقل واليقين في بيت العزلة، واستحضر الفكر وجرت بينهم مناجاة:

أتاك حديث لا يمل سماعه   شهيٌّ إلينا نثره ونظامه

إذا ذكرته النفس زال غناؤها   وزال عن القلب المعنىّ ظلامه

٩/ ٣٧٢ - ما فى هذه الدار موضع خلوة فاتخذه فى نفسك.

٣٧٣ - لابد أن تجذبك الجواذب فاعرفها وكن منها على حذر، ولاتضرك الشواغل إذا خلوت منها وأنت فيها.

١٠/ ٣٧٤ -

ما فى الخيام أخو وجد يريحك إن   بثثته بعض شأن الحب، فاغترب

وسر فى غمرات الليل مهتديًا   بنفحة الطيب لا بالعود والحطب

وعاد كل أخي جُبن ومعجزة   وحارب النفس لا تلقيك فى الحرب

وخذ لنفسك نورًا تستضىء به   يوم اقتسام الورى الأنوار بالرتب

١١/ ٣٧٥ - إذا غذي القلب بالتذكر، وسُقي بالتفكر، ونُقى من الدغل[1]، رأى العجائب، وأُلهم الحكمة.

---

(١) الداغل: الذي يبغي أصحابه الشر، يضمره لهم ويحسبونه يريد لهم الخير، والدغل: الشجر الكثيف الملتف.

١٢/ ٣٧٦ - إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه[1]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُم تُفْلِحُونَ﴾ «الأنفال: ٤٥».

١٣/ ٣٧٧ - من الذاكرين من يبتدئ بذكر اللسان وإن كان على غفلة، ثم لا يزال فيه حتى يخضر قلبه فيتواطآ على الذكر، ومنهم من لا يرى ذلك، ولا يبتدئ على غفلة، بل يسكن حتى يحضر قلبه فيشرع في الذكر بقلبه، فإذا قوي استتبع لسانه فتواطآ جميعًا.

فالأول ينتقل الذكر من لسانه إلى قلبه، والثاني ينتقل من قلبه إلى لسانه، من غير أن يخلو قلبه منه، بل يسكن أولا حتى يحس بظهور الناطق فيه، فإذا أحس بذلك نطق قلبه، ثم انتقل النطق القلبي إلى الذكر اللساني، ثم يستغرق في ذلك حتى يجد كل شيء منه ذاكراً.

وأفضل الذكر وأنفعه ما تواطأ فيه القلب واللسان، وكان من الأذكار النبوية وشهد الذاكر معانيه ومقاصده.

١٤/ ٣٧٨ - مبدأ كل علم نظري وعمل اختياري هو: الخواطر والأفكار، فإنها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل، وكثرة تكراره تعطي العادة.

فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادها بفسادها، فصلاح الخواطر بأن تكون مُراقبة لوليها وإلاهها، صاعدة إليه، دائرة على مرضاته ومحابه، فإنه سبحانه به كل صلاح ومن عنده كل هدى، ومن توفيقه كل رشد، ومن توليه لعبده كل حفظ، ومن توليه وإعراضه عنه كل ضلال وشقاء، فيظفر العبد بكل خير وهدى ورشد بقدر إثبات عين فكرته في آلائه ونعمه وتوحيده، وطرق معرفته، وطرق عبوديته، وإنزاله إياه حاضراً معه، مشاهداً له، ناظراً إليه رقيبًا عليه مطلعًا على خواطره وإراداته وهمه، فحينئذ يستحي منه ويجله أن يطلعه منه على عورة يكره أن يطلع عليها مخلوق مثله أو يرى في نفسه خاطراً يمقته عليه.

---

(١) القرن للإنسان: مثله في الشجاعة والعلم وغير ذلك.

فمتى أنزل ربه هذه المنزلة منه رفعه وقربه منه، وأكرمه واجتباه ووالاه، وبقدر ذلك يبعد عن الأوساخ والدناءات والخواطر الرديئة والأفكار الدنيئة، كما أنه كلما بعد منه وأعرض عنه، قرب من الأوساخ والدناءات والأقذار، ويقطع عن جميع الكمالات، ويتصل بجميع النقائص.

٣٧٩ - فالإنسان خير المخلوقات إذا تقرب من بارئه، والتزم أوامره ونواهيه، وعمل بمرضاته وآثره على هواه، وشر المخلوقات إذا تباعد عنه، ولم يتحرك قلبه لقربه وطاعته، وابتغاء مرضاته، فمتى اختار التقرب إليه وآثره على نفسه وهواه، فقد حكَّم قلبه وعقله وإيمانه على نفسه وشيطانه، وحكَّم رشده على غيِّه، وهداه على هواه، ومتى اختار التباعد منه فقد حكَّم نفسه وهواه وشيطانه على عقله وقلبه ورشده.

٣٨٠ - واعلم أن الخطرات والوساوس تؤدي متعلقاتها إلى الفكر، فيأخذها الفكر فيؤديها إلى التذكر، فيأخذها الذكر فيؤديها إلى الإرادة، فتأخذها الإرادة فتؤديها إلى الجوارح والعمل، فتستحكم فتصير عادة، فردها من مبادئها أسهل من قطعها بعد قوتها وتمامها.

ومعلوم أنه (إذا) لم يُعطَ الإنسان أمانة الخواطر ولا القوة على قطعها، فإنها تهجم عليه هجوم النفس، إلا أن قوة الإيمان والعقل تعينه على قبول أحسنها ورضاه به ومساكنته له وعلى دفع أقبحها، وكراهته له ونفرته منه، كما قال الصحابة: «يارسول الله، إن أحدنا يجد فى نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممةً أحب إليه من أن يتكلم به، فقال ﷺ : أوقد وجدتموه، قالوا: نعم، قال: ذلك صريح الإيمان »[1]، وفي لفظ: «الحمد لله الذى رد كيده إلى الوسوسة»، وفيه قولان: أحدهما : أن رده وكراهته صريح الإيمان، والثانى: أن وجوده وإلقاء الشيطان له في النفس صريح الإيمان، فإنه إنما ألقاه في النفس طلبًا لمعارضة الإيمان وإزالته.

---

(١) أخرجه مسلم (كتاب الإيمان/ باب: بيان الوسوسة في الإيمان، وما يقوله من وجدها. حديث (٢٠٩ / ١٣٢)، ورواه أحمد (١/ ٣٤٠، ٢/ ٤٤١) وانظر كتابنا « الحرز الرباني ».

خلق الله سبحانه النفس شبيهة بالرحى الدائرة التي لا تسكن، ولابد لها من شيء تطحنه، فإن وضع فيها حبًا طحنته، وإن وضع فيها ترابًا أو حصى طحنته.

فالأفكار والخواطر التى تجول في النفس هي بمنزلة الحَب الذي يوضع في الرحى، ولاتبقى تلك الرحى معطلة قط، بل لابد لـها من شيء يوضع فيها فمن الناس من تطحن رحاه حَـبًا يخرج دقيقًا ينفع بـه نفسه وغيره، وأكثرهم يطـحن رملا وحصًى وتبنًا ونحو ذلك، فإذا جاء وقت العجن والخبز تبين له حقيقة طحينه.

٣٨١ - فإذا دفعت الخاطر الوارد عليك اندفع عنك ما بعده، وإن قبلته صار فكرًا جوالا، فاستخدم الإرادة فـتساعدت هى والفكر على استـخدام الجوارح، فإن تعذر استخدامها رجعا إلى القلب بالتمني والشهوة، وتوجهه إلى جهة المراد، ومن المعلوم أن إصلاح الخواطر أسهل من إصلاح الأفكـار، وإصلاح الأفكار أسهل من إصلاح الإرادات، وإصلاح الإرادات أسهل من تدارك فساد العمل، وتداركه أسهل من قطع العوائد، فأنفع الدواء أن تشغل نفسك بالفكر فيما يعنيك دون ما لا يعنيك، فالفكر فيما لا يعـني باب كل شر ومن فكر فـيما لا يعنيه فاتـه مايعنيه واشتغـل عن أنفع الأشياء له بما لامنفعة له فيه، فالـفكر والخواطر والإرادة والهمة أحق شيء بإصلاحه من نفسك، فإن هذه خاصتك وحقيقتك التـي تبتعد بها أو تقرب من إلهك معبودك الذي لاسعادة لـك إلا في قربه ورضاه عنك، وكل الـشقاء في بعدك عنـه وسخطه عليك، **ومن كان في خواطره ومجالات فكره دنيئًا خسيسًا لم يكن في سائر أمره إلا كذلك.**

٣٨٢ - وإياك أن تُمكِّن الشيـطان من بيت أفكارك وإرادتك، فإنه يفـسدها عليك فسادًا يصعب تداركه، ويُلقي إليك أنـواع الوساوس والأفكار المضرة، ويحول بينك وبين الفكر فيما ينفعك، وأنت الذى أعنته على نفسك بتمكينه من قلبك وخواطرك فملكـها عليك، فمثالـك معه مثال صاحب رحى يـطحن فيها جيِّدَ الحـبوب، فأتاه شخص معه حِمْل تـراب وبعر وفحم وغثاء؛ ليطحنه في طـاحونته، فإن طرده ولم يمكنه من إلـقاء ما معه في الطاحون؛ استـمر على طحن ما ينفعـه، وإن مكنه من

إلقاء ذلك في الطاحون؛ أفسد ما فيها من الحَب، وخرج الطحين كله فاسدًا.

والذي يلقيه الشيطان في النفس لا يـخرج عن الفكر فيما كان ودخل في الوجود لو كان على خلاف ذلك، وفـيما لم يكن لو كان كيف كان يكـون، أو فيما يملك الفكر فيه من أنواع ما طـوى عنه علمه، فيلقيه في تلك الخواطر الـتي لا يبلغ منها غاية، ولايقف منها على نهاية فيجعل ذلك مجال فكره ومسرح همه.

٣٨٣ - **وجماع إصـلاح ذلك**: أن تشغـل فكرك في بـاب العلوم والـتصورات بمعرفة ما يلزمك من التوحيد وحقوقه، وفي الموت وما بعده إلى دخول الجنة والنار، وفي آفات الأعمال وطرق التحرز منها، وفى باب الإرادات والعزوم أن تشغل نفسك بإرادة ما ينفعك إرادته، وطرح إرادة ما يضرك إرادته، وعند العارفين أن تمني الخيانة وإشغال الفكر والقلب بها، أضرّ على القلب من نفس الخيانة، ولا سيما إذا فرغ قلبه منها بعد مباشرتها، فإن تمنيها يشغل القلب، ويملؤه منها ويجعلها همه ومراده.

وأنت تجد فى الشاهـد أن الملك من البشر إذا كان في بعض حاشـيته وخدمه من هو مُتَمَنٍّ لخيانته، مشغول القلب والفكـر بها، ممتلئ منها، وهو مع ذلك في خدمته وقضاء أشـغاله، فإذا اطلع عـلى سره وقصده مـقته غاية المـقت وأبغضه وقابـله بما يستحقه، وكان أبغـض إليه من رجل بعيد عنه، جنى بعض الجـنايات وقلبه وسره مع الملك غير منطوٍ على تمنِّي الخيانة ومحـبتها والحرص عليها، فالأول يتركها عجزًا واشتغالا بما هو فيه وقلـبه ممتلئ بها، والثاني يفعله وقلبه كـارهٌ لها ليس فيه إضمار الخيانة ولا الإصرار عليها، فهذا أحسن حالا وأسلم عاقبة من الأول.

٣٨٤ - وبالجـملة: فـالقلـب لا يخلـو قط من الـفكر: إمَّـا في واجب آخـرته ومصالحهـا، وَإِمَّا في مصالح دنـياه ومعاشه، وإما فـي الوساوس والأماني البـاطلة والمقدرات المفروضة.

وقد تقدم أن النفس مثـلها كمثل رحى تدور بما يُلقى فيها، فإن ألـقيت فيها حبًا دارت به، وإن ألقيـت فيها زجاجًا وحصًـى وبعرًا دارت به، والله سبحانـه هو قيِّم تلك الرحى ومالكها ومـصرفها، وقد أقام لها مَلَكًا يلقي فيها مـا ينفعها فتدور به،

وشيطانًا يلقى فيها ما يضرها فتدور به، فالـمَلك يلم بها مرة، والشيطان يلم بها مرة فالحَبُّ الذي يلقيه المَـلك إيعاد بالخير وتصديق بالوعد، والحب الذي يـلقيه الشيطان إيعاد بالشر وتكـذيب بالوعد، والطحين على قدر الحَـب، وصاحب الحَبِّ المضر لا يتمكن مـن إلقائه إلا إذا وجد الرحى فارغـة من الحَبِّ وَقِيِّمها قد أهـملها وأعرض عنها، فحينئذ يبادر إلى إلقاء ما معه فيها.

وبالجملة: فـقيم الرحى إذا تخلى عنهـا وعن إصلاحها وإلقاء الحَب النـافع فيها وجد الـعدو السـبيل إلـى إفسادهـا وإدارتها بمـا معه، وأصـل صلاح هذه الـرحى بالاشتغال بمـا يعنيك، وفسادها كله فـي الاشتغال بما لايعنيك، ومـا أحسن ما قال بعض العقـلاء: لما وجدت أنواع الذخائر منـصوبة غرضًا للمتـألف، ورأيت الزوال حاكمًا عليها مدركًا لها انصرفت عن جـميعها إلى ما لا ينازع فيه ذو الحجا (العقل) أنه أنفع الذخائر وأفضل المكاسب وأربح المتاجر، والله المستعان.

١٥/ ٣٨٥ - أصل الخير والشر من قبل التفـكر، فإن الفكر مبدأ الإرادة والطلب فى الزهد والترك والحب والبغض.

وأنفع الفكـر: الفكر في مصالح المـعاد، وفي طرق اجتلابها، وفـي دفع مفاسد المعاد وفي طرق اجتنابها.

فهذه أربعة أفكار هي أجلُّ الأفكار، ويليها أربعة:

فكر في مصالح الـدنيا وطرق تحصيلها، وفكر في مفاسـد الدنيا وطرق الاحتراز منها، فعلى هذه الأقسام الثمانية دارت أفكار العقلاء.

ورأس القسم الأول: الفكر فى آلاء الله ونعمـه، وأمره ونهيه، وطرق العلم به، وبأسمائه وصفاته من كتابه وسنة نبيه ﷺ وما والاهما، وهذا الفكر يثمر لصاحبه المحبة والمعرفة، فإذا فـكر في الآخرة وشرفها ودوامها وفي الدنيا وخسـتها وفنائها، أثمر لـه ذلك الرغبة فـي الآخرة والزهد في الـدنيا، وكلـما فكر في قـصر الأمل، وضيق الوقـت؛ أورثه ذلك الجدُّ والاجتهاد وبـذل الوسع فى اغتنـام الوقت، وهذه الأفكار تعلى همته وتحييها بعد موتها وسفولها وتجعله فى وادٍ والناس فى وادٍ.

٣٨٦ - وبإزاء هذه الأفكار - الأفكار الرديئة - التي تجول في قلوب أكثر هذا الخلق:

- كالفكر فيما لم يكلف الفكر فيه، ولا أعطى الإحاطة به من فضول العلم الذي لا ينفع: كالفكر في كيفية ذات الرب وصفاته، مما لا سبيل للعقول إلى إدراكه.

- ومنها: الفكر في الصناعات الدقيقة التي لا تنفع بل تضر: كالفكر في الشطرنج والموسيقى وأنواع الأشكال والتصاوير.

- ومنها: الفكر في العلوم التى لو كانت صحيحة لم يعطِ الفكر فيها النفس كمالا ولا شرفًا: كالفكر في دقائق المنطق، والعلم الرياضي والطبيعي، وأكثر علوم الفلاسفة التي لو بلغ الإنسان غاياتها لم يكمل بذلك، ولم يُزَكِّ نفسه.

- ومنها: الفكر في الشهوات واللذات وطرق تحصيلها، وهذا وإن كان للنفس فيه لذة، لكن لا عاقبة له، ومضرته في عاقبة الدنيا قبل الآخرة أضعاف مسرته.

- ومنها : الفكر فيما لم يكن لو كان كيف كان يكون، كالفكر فيما إذا صار ملكًا أو وجد كنزًا، أو ملك ضيعة ماذا يصنع؟! وكيف يتصرف؟! ويأخذ ويعطى وينتقم، ونحو ذلك من أفكار السفل.

- ومنها : الفكر في جزئيات أحوال الناس، ومجرياتهم، ومداخلهم، ومخارجهم، وتوابع ذلك من فكر النفوس المبطلة الفارغة من الله ورسوله والدار الآخرة.

- ومنها: الفكر في دقائق الحيل والمكر التى يتوصل بها إلى أغراضه وهواه، مباحة كانت أو محرمة.

- ومنها: الفكر في أنواع الشعر، وصروفه وأفانينه، في المدح والهجاء، والغزل والمراثي ونحوها، فإنه يشغل الإنسان عن الفكر فيما فيه سعادته، وحياته الدائمة.

- ومنها: الفكر في المقدرات الذهنية التي لا وجود لها في الخارج، ولا بالناس حاجة إليها البتة، وذلك موجود في كل علم حتى فى علم الفقه والأصول والطب.

فكل هذه الأفكار مضرتها أرجح من منفعتها، ويكفى فى مضرتها شغلها عن الفكر فيما هو أولى به وأعود عليه بالنفع عاجلا وآجلا.

١٦/ ٣٨٧ - من اشتغل بالله عن نفسه كفاه الله مئونة نفسه، ومن اشتغل بالله عن الناس كفاه الله مئونة الناس، ومن اشتغل بنفسه عن الله وكله الله إلى نفسه، ومن اشتغل بالناس عن الله وكله الله إليهم.

١٧/ ٣٨٨ - اللذة المحرمة ممزوجة بالقبح حال تناولها، مثمرة للألم بعد انقضائها فإذا اشتدت الداعية منك (إليها) ففكر في انقطاعها وبقاء قبحها وألمها ثم وازن بين الأمرين وانظر ما بينهما من التفاوت.

والتعب بالطاعة ممزوج بالحسن، مثمر للذة والراحة، فإذا ثقلت على النفس، ففكر في انقطاع تعبها وبقاء حسنها ولذتها وسرورها، ووازن بين الأمرين، وآثر الراجح على المرجوح، فإن تألمت بالسبب فانظر إلى ما في المسبب من الفرحة والسرور واللذة، يهن عليك مقاساته، وإن تألمت بترك اللذة المحرمة فانظر إلى الألم الذي يعقبه ووازن بين الألمين.

وخاصية العقل تحصيل أعظم المنفعتين،بتفويت أدناهما واحتمال أصغر الألمين لدفع أعلاهما وهذا يحتاج إلى علم بالأسباب ومقتضياتها، وإلى عقل يختار به الأولى والأنفع له منها، فمن وفر قسمه من العقل والعلم اختار الأفضل وآثره، ومن نقص حظه منهما أو من أحدهما اختار خلافه، ومن فكر فى الدنيا والآخرة عَلِم أنه لا ينال واحدًا منهما إلا بمشقة فليتحمل المشقة لخيرهما وأبقاهما .

وانظر الفقرات والفوائد برقم:

(٥٧ - ٩٣ - ٢٦٣- ٢٦٥ - ٢٧١ - ٢٧٤ - ٢٨١ - ٣٠١ - ٣٠٩ - ٣٩٩ - ٤٢٢ - ٤٥١ - ٤٥٣ - ٤٨٦ -٥١٤ - ٥٣٠ - ٥٤٥ - ٥٨٤ - ٥٨٥ - ٦١٦ - ٦٥٦).



الفصل الثالث
فضل الزهد

١/ ٣٨٩ - الزهد أقسام :

أ - زهد في الحرام : وهو فرض عين .

ب - وزهد في الشبهات : وهو بحسب مراتب الشبهة : فإن قويت التحقت بالواجب، وإن ضعفت كان مستحبًا .

جـ - وزهد في الفضول .

د - وزهد فيما لا يعنى من الكلام، والنظر، والسؤال، واللقاء . . . وغيره .

هـ - وزهد في الناس .

و - وزهد في النفس : بحيث تهون عليه نفسه في الله .

ز - وزهد جامع لذلك كله : وهو الزهد فيما سِوى الله، وفي كل ما شغلك عنه .

ح - وأفضل الزهد : إخفاء الزهد .

ط - وأصعبه : الزهد في الحظوظ .

- والفرق بينه وبين الورع :

أن الزهد : ترك ما لا ينفع في الآخرة .

والورع : ترك ما يخشى ضرره في الآخرة .

٢/ ٣٩٠ - القلب المعلق بالشهوات لا يصح له زهد ولا ورع .

٣/ ٣٩١ - سُئِل سهل التسترى : الرجل يأكل في اليوم أكلة ؟!

قال: أكل الصدِّيقين .

قيل له : فأكلتين ؟! .

قال : أكل المؤمنين .

قيل له : فثلاث أكلات ؟! .

فقال : قل لأهله يبنوا له معلفًا .

٤/ ٣٩٢ - كل ذي لُب يعلم أنه لا طريق للشيطان عليه إلا من ثلاث جهات :

أحدها : التزيد والإسراف : فيزيد على قدر الحاجة، فتصير فضلة، وهى حظ الشيطان، ومدخله إلى القلب .

وطريق الخلاص منه : الاحتراز من إعطاء النفس تمام مطلوبها من غذاء أو نوم أو لذة أو راحة. فمتى أغلقت هذا الباب حصل الأمان من دخول العدو منه .

الثانية : الغفلة : فإن الذاكر في حصن الذكر، فمتى غفل فتح باب الحصن فولجه العدو، فيسرع عليه أو يصعب إخراجه .

الثالثة : تكلف ما لا يعنيه من جميع الأشياء .

وانظر الفقرات والفوائد برقم :

(٣٣٥ - ٤٢٣ - ٤٤٣ - ٤٥٣ - ٥٣٠ - ٥٨٥) .



الفصل الرابع
فضل الحِلمِ والعفو

١/ ٣٩٣ - إذا خرجت من عدوك لفظة سفه، فلا تلحقـها بمثلها تلحقها، ونسل الخصام نسل مذموم .

٢/ ٣٩٤ - حميتـك لنفسك أثر الجهـل بها، فلو عرفـتها حق معرفتـها، أعنت الخصم عليها .

٣/ ٣٩٥ - إذا اقتدحت نار الانتقام من نار الغضب، ابتدأت بإحراق القادح .

٤/ ٣٩٦ - أوثق غضبك بسلسلة الحِلْمِ، فإنه كلب إن أفلت أتلف .

وانظر الفائدة برقم :

(٥٧٩) .



الفصل الخامس
ذم الدنيا

١/ ٣٩٧ - الدنيا من أولها إلى آخرها لا تساوى غم ساعة، فكيف بغم العمر ؟

٢/ ٣٩٨ - محبوب اليوم يعقب المكروه غداً، ومكروه اليوم يعقب المحبوب غداً.

٣/ ٣٩٩ - أعظم الربح فى الدنيا أن تشغل نفسك كل وقت بما هو أولى بها وأنفع لها فى معادها .

٤/ ٤٠٠ - إضاعة الوقت أشد من الموت؛ لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها .

٥/ ٤٠١ - عرائس الموجودات قد تزينت للناظرين ليبلوهم أيهم يؤثرهن على عرائس الآخرة ، فمن عرف قدر التفاوت آثر ما ينبغي إيثاره :

وحسان الكون لما أن بدت ... أقبلت نحوى وقالت لي إلي

فتعاميت كأن لم أرها ... عندما أبصرت مقصودي لدي

٦/ ٤٠٢ - الدنيا كامرأة بغي لا تثبت مع زوج إنما تخطب الأزواج ليستحسنوا عليها، فلا ترضى بالدياثة .

ميزت بين جمالها وفعالها ... فإذا الملاحة بالقباحة لا تفي

حلفت لنا أن لا تخون عهودنا ... فكأنها حلفت لنا أن لا تفي

٧/ ٤٠٣ - السير في طلبها سيرٌ في أرض مسبعة[1]، والسباحة فيها سباحة في غدير التمساح . المفروح به منها هو عين المحزون عليه، آلامها متولدة من لذاتها، وأحزانها من أفراحها .

(١) السير في طلبها: أي في طلب الدنيا، ومعنى أرض مسبعة: مليئة بالسباع والوحوش.

٨/ ٤٠٤ - تزخرفت الشهوات لأعيُن الطباع، فغَض عنها الذين يؤمنون بالغيب، ووقع تابـوعها في بيداء الحـسرات، فـ**﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** «لقمان: ٥»، وهؤلاء يقال لهم: **﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾** «المرسلات : ٤٦» .

٩/ ٤٠٥ - شهوات الدنيا كلعب الخيال، ونظر الجاهل مقصور على الظاهر، فأما ذو العقل فيرى ما وراء الستر .

١٠ / ٤٠٦ - لاح لهـم المشتهى ، فلما مـدوا أيدي التناول بان لأبصار البـصائر خبط الفخ ، فطـاروا بأجنـحة الحـذر وصـوبوا إلى الرحيل الثانى : **﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾** «يس : ٢٦».

تلمح القوم الوجـود ففـهموا المقـصود فأجمـعوا الرحـيل وشـمروا للسيـر فـي سـواء السـبيل ، فالنـاس مشتغلون بـالفضلات، وهم فى قطع الفلوات، وعصـافير الهوى في وثائق الشبكة ينتظرون الذبح .

٤٠٧/١١ - وقع ثعـلبان في شبكـة، فقال أحدهما لـلآخر : أين الملتقـى بعد هذا؟! فقال : بعد يومين في الدباغة .

٤٠٨/١٢ - اشتر نفسك الـيوم، فإن السوق قائمة، والثمن مـوجود، والبضائع رخيصة، وسيأتي على تلك السوق والبضـائع يوم لا تصل فيه إلى قليل ولا كثير : **﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾** «التغابن :٩» **﴿يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾** «الفرقان: ٢٧».

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... وأبصرت يوم الحشر من قد تزودا

ندمت على أن لا تكون كمـثله ... وإنك لم ترصد كما كان أرصـدا

٤٠٩/١٣ - الدنيا مضمار سباق، وقد انعقـد الغبار وخفى السابق، والناس فى المضمار بين فارس وراجل، وأصحاب حُمرٍ معقرة :

سـوف نرى إذا انجلى الغـبار ... أفـرس تحـتك أم حمـار ؟!

١٤/ ٤١٠ - كن من أبناء الآخرة ولا تكن من أبناء الدنيا، فإن الولد يتبع الأم.

١٥ / ٤١١ - الدنيـا لا تساوي نقل أقدامك إليها، فكيف تعدو خلفها؟!

١٦/ ٤١٢ - الدنيا جيفة، والأسد لا يقع على الجيف .

١٧/ ٤١٣ - الدنيا مجاز والآخرة وطن، والأوطار إنما تطلب فى الأوطان.

١٨/ ٤١٤ - تزينت الدنيا لعليٍّ ﷺ فقال : «أنت طالق ثلاثًا لا رجعة لى فيك» .

وكانت تكفيه واحدة للسنة، لكنه جمع الثلاث؛ لئلا يتصور الهوى جواز المراجعة، ودينه الصحيح وطبعه السليم يأنفان من المحلل، كيف وهو أحد رواة حديث : «لعن الله المحلل» .

١٩/ ٤١٥ - جمع النبى ﷺ في قوله : «فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب»[1] : بين مصالح الدنيا والآخرة، ونعيمها ولذاتها إنما ينال بتقوى الله، وراحة القلب والبدن وترك الاهتمام والحرص الشديد، والتعب والعناد والكد والشقاء فى طلب الدنيا إنما ينال بالإجمال فى الطلب، فمن اتقى الله فاز بلذة الآخرة ونعيمها، ومن أجمل فى الطلب استراح من نكد الدنيا وهمومها، فالله المستعان .

٢٠/ ٤١٦ -

قد نادت الدنيا على نفسها لو كان فى ذا الخلق من يسمع

كم واثق بالعيش أهلكته وجامع فرقت ما يجمع

٢١/ ٤١٧ - إذا رأيت الرجل يشترى الخسيس بالنفيس، ويبيع العظيم بالحقير، فاعلم أنه سفيه .

(١) (صحيح لغيره) أخرجه ابن ماجه (٢١٤٤)، والحاكم (٢/ ٤، ٤/ ٣٢٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٦، ٢٧)، وقال البوصيري: هذا إسناد ضعيف، والوليد بن مسلم وابن جريج وأبو الزبير، كل منهم كان يدلس، وقد رووه بالعنعنة. اهـ.

قلت: لم ينفرد ابن ماجه بإخراجه من هذا الوجه، فقد رواه ابن حبان (٢٦٧- موارد) ، وله شاهد رواه البزار في «مسنده» ، أفاده البوصيري، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٧١) وعزاه للبزار وقال : وفيه قدامة بن زائدة بن قدامة ولم أجد من ترجمه ، وبقية رجاله ثقات.ا هـ، قلت: وذكر الألباني للحديث شواهد وصححه بها انظر «الصحيحة» (٨٩٨-٢٦٠٧) ، و«المشكاة» بتحقيق الألباني (٥٣٠٠).

٤١٨/٢٢ - لذات الدنيا كسوداء[1]، وقد غلبت عليك، والحور العين يعجبن من سوء اختيارك عليهن، غير أن زوبعة الهوى إذا ثارت سفت فى عين البصيرة، فخُفيت الجادة .

٤١٩/٢٣ -

يا بائعاً نفسه بيع الهوان لو استر جعت ذا البيع قبل الفوت لم تخب
وبائعاً طيب عيش ما له خطر بطيف عيش من الآلام منتهب
غبنت والله غبناً فاحشًا ولدى يوم التغابن تلقى غاية الخرب
وواردًا صفو عيشٍ كله كدر أمامك الورد حقاً ليس بالكذب
وحاطب الليل فى الظلماء منتصباً لكل داهية تدني من العطب
ترجو الشفاء بأحداق بها مرضٌ فهل سمعت ببُرءٍ جاء من عطب؟!
ومفنّيا نفسه فى إثر أقبحهم وصفًا للطخ جمال فيه مستلب
وواهبًا نفسه من مثل ذا سفهًا لو كنت تعرف قدر النفس لم تهب

٤٢٠ -

شاب الصبا والتصابى بعدُ لم يشب وضاع وقتك بين اللهو واللعب
وشمس عمرك قد حان الغروب لها والفيء فى الأفق الشرقى لم يغب
وفاز بالوصل من قد جد وانقشعت عن أفقه ظلمات الليل والسحب
كم ذا التخلف والدنيا قد ارتحلت ورُسُل ربك قد وافتك فى الطلب
ما في الديار وقد سارت ركائب من تهواه للصب من شكر ولا أرب

٤٢١ -

فافرش الخد ذياك التراب وقل ما قاله صاحب الأشواق والحقب
ربع مية محفوفاً يطيف به غيلان أشهى له من ربعك الخرب
منازلاً كان يهواها ويألفها أيام كان منال الوصل عن كثب
ولا الخدود ولو أدمين من ضرجٍ أشهى إلى ناظرى من ربعك الخرب

---

(١) أي كامرأة سوداء .

وكلمـا جليـت تلـك الربـوع له يهوي إلـيها هوي الماء في الـصبب
أحيى له الشوق تذكـار العهود بها فلو دعى القلب لـلسلوان لم يجب
هذا وكم منزل فـى الأرض يألـفه وما له فـى سواها الدهـر من رغب

- ٤٢٢

ما فى الخيام أخو وجد يريحك إن بثـته بعض شـأن الحب فاغتـرب
وسر فى غمـرات الليـل مهتدياً بنفحة الطيب لا بالعود والحطـب
وعاد كل أخى جبـن ومعجـزة وحارب النفس لا تلقيك فى الحرب
وخذ لنفسك نوراً تسـتضىء بـه يوم اقتسام الورى الأنـوار بالـرتـب

٢٤/ ٤٢٣ - لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد فى الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين :

(**النظر الأول**) : النظر في الدُّنيا : وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخستها، وألم المزاحمة عليها والحرص عـليها، وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد، وآخر ذلك الزوال والانـقطاع مع ما يعقب من الحسرة والأسـف، فطالبها لا ينفك من همٍّ قبل حصولها، وهمٍّ في حـال الظفر بها، وغمٍّ وحزنٍ بعد فواتها - فهذا أحد النظرين .

(**والنظر الثاني**) : النظر في الآخرة: وإقبالها ومجيئها ولابد، ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات والتفاوت الـذى بينه وبين ما هاهنا، فهى كما قال سبحانه: ﴿وَالآخِرَةُ خَيْـرٌ وَأَبْقَى﴾ «الأعلى: ١٧»، فهى خيـرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة.

فإذا تم له هذان النظـران آثـر ما يقتضي العقل إيثاره ، وزهد فيما يقتضي الزهد فيه ، فكل أحد مطبوع على أن لا يتـرك النفع العاجل واللـذة الحـاضـرة إلى النفـع الآجـل والـلذة الغائبـة المنتـظـرة ، إلا إذا تبـين لـه فضل الآجل على الـعاجل ، وقويت رغبته في الأعـلى الأفضل، فإذا آثر الفاني الناقص كان ذلـك إما لعدم تبين الفضـل له ، وإما لعـدم رغبته فـي الأفضل ، وكل واحـد من الأمرين يـدل على

ضعف الإيمان ، وضعف العقل والبصيرة ، فإن الراغب فى الدنيا الحريص عليها المؤثر لها إما أن يصدق بأن ما هناك أشرف وأفضل وأبقى، وإما أن لا يصدق ، فإن لم يصدق بذلك كان عادمًا للإيمان رأسًا، وإن صدق بذلك ولم يؤثره كان فاسد العقل ، سيء الاختيار لنفسه .

٤٢٤ - وهذا تقسيم حاصر ضرورى لا ينفك العبد من أحد القسمين منه ، فإيثار الدنيا على الآخرة إمَّا مِنْ فَسَادٍ في الإيمان ، وإما من فساد في العقل ، وما أكثر ما يكون منهما ، ولهذا نبذها رسول الله ﷺ وراء ظهره هو وأصحابه وصرفوا عنها قلوبهم، وأطرحوها ولم يألفوها ، وهجروها ولم يميلوا إليها، وعدُّوها سجنًا لا جنة ، فزهدوا فيها حقيقة الزهد ، ولو أرادوها لنالوا منها كل محبوب ولوصلوا منها إلى كل مرغوب، فقد عرضت عليه مفاتيح كنوزها فردها ، وفاضت على أصحابه فآثروا بها ولم يبيعوا حظهم من الآخرة بها، وعلموا أنها معبر وممر لا دار مقام ومستقر ، وإنها دار عبور لا دار سرور ، وإنها سحابة صيف تنقشع عن قليل، وخيال طيف ما استتم الزيارة حتى أذن بالرحيل.

قال النبيُّ ﷺ : «مالي وللدنيا، إنما أنا كراكب قال[1] فِي ظل شجرة ثم راح وتركها»[2] .

---

(١) قال : أي استراح للحظات، من نومة القيلولة .

(٢) **(حسن الإسناد وهو صحيح لغيره)** أخرجه الترمذى (٢٣٧٧) عن ابن مسعود قال : نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبيه، فقلنا : يا رسول الله ، لو اتخذنا لك وطاءً، فقال : مالي وللدنيا . . . فذكره إلا أنه قال : «استظل» بدل: «قال»، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. اهـ. قال الألباني: وهو كما قال فإن له شاهدًا يأتي بعده - يعني في «الصحيحة»- وانظرها برقم (٤٣٩, ٤٤٠) والحديث رواه الإمام أحمد (١/ ٣٩١، ٤٤١و٢/ ٧٠)، والحاكم (٤/ ٣١٠)، وابن ماجه (٤١٠٩)، وأبو داود الطيالسي (٢٧٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٠٢ و٤/ ٢٣٤)، قال الهيثمي : رجال أحمد رجال الصحيح غير هلال بن جناب وهو ثقة .اهـ.

وقال ﷺ : «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بم ترجع»(١) .

وقال خالقها سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ «يونس :٢٤ ، ٢٥» ، فأخبر سبحانه عن خسة الدنيا وزهد فيها، وأخبر عن دار السلام ودعا إليها .

قال تعالى : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا * الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ «الكهف : ٤٥ ، ٤٦» .

وقال تعالى : ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ . وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ «الحديد : ٢٠» .

وقال تعالى ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي

---

(١) (حديث صحيح) أخرجه أحمد (٤/٢٢٩)، والترمذي (٢٣٢٣) وقال: حسن صحيح. اهـ، وأخرجه الحاكم (٤/٣١٩) بنحوه والحميدي في «مسنده» (٨٥٥) والحديث صححه الألباني في «صحيح الجامع» وأشار إلى أن له أصلا عند مسلم. اهـ، قلت : رواه مسلم (٢٨٥٨) بألفاظ متقاربة .

من تَحتِهَا الأنهَارُ خَالدِينَ فِيهَا، وأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ورِضوَانٌ مِّنَ اللهِ واللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ «آل عمران : ١٤ ، ١٥» .

وقال تعـالى : ﴿وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا مَتَاعٌ﴾ «الرعد : ٢٦» .

وقد توعد سبحانه أعظم الوعيد لمن رضـي بالحياة الدنيا واطمأن بها، وغفل عن آياته ولم يَرْجُ لقاءَه سـبحانه، فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ «يونس : ٧ ، ٨» .

وعير سبحانه من رضى بالـدنيا من المؤمنين فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ﴾ «التوبة: ٣٨» .

وعلى قدر رغبة العبد في الدنيا، ورضاه بـها يكون تثاقله عن طاعة الله، وطلب الآخرة، ويكفي في الزهد في الدنيا قوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ «الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧»، وقوله : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ «يونس: ٤٥»، قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ «الأحقاف: ٣٥»، وقولـه تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ «النازعات: ٤٢-٤٦»، وقولـه : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ «الروم: ٥٥»، وقوله : ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلا قَلِيلا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ «المؤمنون : ١١٢

- ١١٤»، وقوله : ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا﴾ «طه: ١٠٢ : ١٠٤» .

والله المستعان، وعليه التكلان .

٢٥/ ٤٢٥ - من عشق الدنيا نظرت إلى قدرها عنـده فصيرته من خدمها وعبيدها وأذلته .

ومن أعرض عنها نظرت إلى كبر قدره فخدمته وذلت له .

٢٦/ ٤٢٦ - قال بعض الزهاد : ما علمت أن أحدًا سمع بالجنة والنار تأتى عليه ساعة لا يطيع الله فيها بذكر أو صلاة أو قراءة أو إحسان .

فقال له رجل : إنى أكثر البكاء ! فقال : إنك إن تضحك وأنت مقر بخطيئتك، خير من أن تبكى وأنت مدل بعملك، وإن المدل لا يصعد عمله فوق رأسه .

فقال : أوصني، فقال : دع الدنيا لأهلهـا، كما تركوا هم الآخرة لأهلها، وكن فى الدنيا كالنحلة إن أكلت أكلت طيبًا وإن أطعمت أطعمت طيبًا، وإن سقطت على شىء لم تكسره ولم تخدشه .

٢٧/ ٤٢٧ - إذا رأيت النفوس المبطلة الفارغـة من الإرادة والطلب لهذا الشأن قد تشبث بها هذا العالـم السفلى، وقد تشبثت به، فكلها إليه، فـإنه اللائق بها لفساد تركيـبها ولا تنقش عـليها ذلك فـإنه سريع الانحـلال عنها، ويبقـى تشبثهـا به مع انقطاعه عنها عذابًـا عليها بحسب ذلك التعلق، فتبقى شهـواتها وإرادتها فيها، وقد حيل بينها وبين مـا تشتهى على وجه يئست معه من حصول شـهواتها ولذاتها، فلو تصور العاقل ما فى ذلك من الألم والحسرة لبادر إلى قطع هذا التعلق كما يبادر إلى حسم مواد الفساد، ومع هـذا فإنه ينال نصيبه من ذلك وقلبه وهمه مـتعلق بالمطلب الأعلى، والله المستعان .

٢٨/ ٤٢٨ - الدراهم أربعة :

درهم اكتُسِب بطاعة الله وأُخرج في حق الله فذاك خير الدراهم .

ودرهم اكتسب بمعصية الله وأخرج في معصية الله فذاك شر الدراهم .

ودرهم اكتسب بأذى مسلم وأخرج في أذى مسلم فهو كذلك .

ودرهم اكتسب بمباح وأنفق فى شهوة مباحة فذاك لا لَهُ ولا عليه .

هذه أصول الدراهم، ويتفرع عليها دراهم أخر :

منها : درهم اكتسب بحق وأنفق في باطل، ودرهم اكتسب بباطل وأنفق في حق فإنفاقه كفارته، ودرهم اكتسب من شبهة فكفارته أن ينفق في طاعة .

وكما يتعلق الثواب والعقاب، والمدح والذم بإخراج الدرهم، فكذلك يتعلق باكتسابه، وكذلك يسأل عن مستخرجه ومصروفه من أين اكتسبه وفيما أنفقه؟

٢٩/٤٢٩ - اللذة من حيث هى مطلوبة للإنسان بل ولكل حى فلا تذم من جهة كونها لذة ، وإنما تذم ويكون تركها خيراً من نيلها وأنفع ، إذا تضمنت فوات لذة أعظم منها وأكمل، أو أعقبت ألمًا حصوله أعظم من ألم فواتها ، فهاهنا يظهر الفرق بين العاقل الفطن ، والأحمق الجاهل ، فمتى عرف العقل التفاوت بين اللذتين والألمين ، وأنه لا نسبة لأحدهما إلى الآخر ، هان عليه ترك أدنى اللذتين لتحصيل أعلاهما ، واحتمال أيسر الألمين لدفع أعلاهما .

وإذا تقررت هذه القاعدة ، فلذة الآخرة أعظم وأدوم ، ولذة الدنيا أصغر وأقصر ، وكذلك ألم الآخرة وألم الدنيا ، والمعول فى ذلك على الإيمان واليقين ، فإذا قوى اليقين وباشر القلب آثر الأعلى على الأدنى فى جانب اللذة واحتمل الألم الأسهل على الأصعب، والله المستعان .

٣٠/ ٤٣٠ - الناس في الدنيا معذبون على قدر هممهم بها .

وانظر الفقرات والفوائد برقم :

(٩٥ - ٩٨ - ١٠٢ - ٢٦٦ - ٢٩٣ - ٣٣٥ - ٣٤٢ - ٤٢٤ - ٤٤٣ - ٤٨١ - ٥٠٢ - ٥٠٩ - ٥٣٠ - ٥٨٧ - ٦٠٥ - ٦٠٦) .



الفصل السادس
ذم الكذب وخطر اللسان

١/ ٤٣١ - في «السنن» من حديث أبي سعيد الخدري يرفعه : «إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضـاء كلها تكـفر اللسان، تـقول: اتق الله فإنما نـحن بك، فإن استـقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا»[1].

قوله : «تكفر اللـسان» ، قيل : معناه تخضع له ، وفي الحـديث : أن الصحابة لما دخلوا على النجاشى لم يكفـروا له - أي : لم يسجدوا ولم يخضعوا - ولذلك قال عمرو بن العاص : أيها الملك ، إنهم لايكفرون لك.

وإنما خضعت للسان: لأنه بريد القلب وتـرجمانه والواسطة بينه وبين الأعضاء ، وقولها : إنما نحن بك ، أي : نجاتنا بك وهلاكنا بك ، ولهذا قالت: فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا.

٢/ ٤٣٢- إياك والكذب ، فإنه يفسد عليك تصور المعلومات على ما هى عليه، ويفسـد علـيك تصويرهـا وتعليمها لـلناس ، فإن الكاذب يصور المـعدوم موجودًا والموجود معدومًـا ، والحق باطلا والباطل حقًـا ، والخير شرًا والشر خيرًا، فـيفسد عليه تصوره وعلمه عقوبة له ، ثم يصور ذلك فى نفس المخاطب المغتر به ، الراكن إليه ، فيفـسد عليه تصوره وعلمه ، ونـفس الكاذب مُعرضة عن الحقـيقة الموجودة نزاعة إلى العدم مؤثرة لـلباطل ، وإذا فسـدت عليـه قوة تصـوره وعـلـمه التى هـي

---

(١) (حسن لغيره) أخرجه التـرمذى (٢٤٠٧) وقال: هذا حديث لا نـعرفه إلا من حديث حـماد بن زيد، وقد رواه غيـر واحد عن ابن زيد ولم يرفـعوه. اهـ. وأخرجه أيضًـا أحمد (٣/ ٩٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٠٩)، وابن السني في أول كتاب «عمل اليوم والليلة».
قال الشيـخ البنا: رواه ابن خزيمة فـي «صحيحه»، والبيـهقي في «الشعب»، وابن أبـي الدنيا، ورواه الترمذي مرفوعًا وموقوفًا وقال: الموقوف أصح. اهـ. بتصرف. والحديث حسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي»، قلت: ولعله لشواهده. والله أعلم.

مبدأ كل فعل إرادى ، فسدت عليه تلك الأفعال وسرى حكم الكذب إليها ، فصار صدورها عنه كمصدر الكذب عن اللسان، فلا ينتفع بلسانه ولا بأعماله.

ولهذا كان الكذب أساس الفجور، كما قال النبي ﷺ : «إن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار»[1]. وأول ما يسرى الكذب من النفس إلى اللسان فيفسده، ثم يسرى إلى الجوارح فيفسد عليها أعمالها كما أفسد على اللسان أقواله، فيعم الكذب أقواله وأعماله وأحواله فيستحكم عليه الفساد ويترامى داؤه إلى الهلكة إن لم يتداركه الله بدواء الصدق يقلع تلك المادة من أصلها.

ولهذا كان أصل أعمال القلوب كلها الصدق ، وأضدادها من : الرياء ، والعُجْب ، والكبر ، والفخر ، والخيلاء ، والبطر ، والأشر ، والعجز ، والكسل، والجبن ، والمهانة ، وغيرها ، أصلها الكذب ، فكل عمل صالح ظاهر أو باطن فمنشؤه الصدق ، وكل عمل فاسد ظاهر أو باطن فمنشؤه الكذب ، والله تعالى يعاقب الكذاب بأن يقعده ويثبطه عن مصالحه ومنافعه ، ويثيب الصادق بأن يوفقه للقيام بمصالح دنياه وآخرته .

فما استجلبت مصالح الدنيا والآخرة بمثل الصدق ولا مفاسدهما ومضارهما بمثل الكذب ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ «التوبة : ١١٩» ، وقال تعالى : ﴿هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ «المائدة : ١١٩» ، وقال تعالى : ﴿فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ «محمد : ٢١» ، وقال : ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ «التوبة : ٩٠».

وانظر الفقرات والفوائد برقم:

(٢٥ - ٤٨٤ - ٤٨٦ - ٥٠٧).

---

(١) أخرجه البخاري (كتاب الأدب / باب قوله تعالي : وكونوا مع الصادقين) ، ومسلم في (البر والصلة / ١٠٣ , ١٠٤)، والإمام أحمد (١/ ٣٨٤ - ٤٣٢).

الفصل السابع

ذم البخل والحرص

١/ ٤٣٣ - البخيل فقير، لايؤجر على فقره.

٢/ ٤٣٤ - لو قدمت لقمة وجدتها [١]، ولكن يؤذيك الشره[٢].

وانظر الفقرات والفوائد برقم:

(١٧ - ٤١ - ٤٢ - ٤٣ - ٤٨ - ٩٣ - ٢٨٨ -٢٩٢ - ٥٦١ - ٥٦٥).



(١) أي وجدت ثوابها في الآخرة.

(٢) شره شرهًا: اشتد حرصه على الشيء واشتهاؤه له وهو في الطعام وغيره.

الباب الثالث
فقه العبودية والدعوة

١ - فقه العبودية.

٢ - متابعة الرسول ﷺ والذب عن الحق.

٣ - أسباب التوفيق والخذلان.

٤ - فضائل الصحابة ﷺ.

٥ - حرمة المسلم.

٦ - فقه الدعوة.

٧ - أسباب الهداية.

٨ - فوائد متنوعة.

٩ - فوائد للخطب.



الفصل الأول
فقـــه العبودية

١/ ٤٣٥ -

هل السـائق العجلان يمـلك أمره فمـا كل سيـر اليـعملات وخـيدُ
رويـدًا بـأخـفاف المـطى فـإنمـا تـداس جبـاه تحـتـهـا وخـدودُ

٢/ ٤٣٦ - الغايـة أول في التقديـر ، آخر في الوجود ، مـبدأ في نظر الـعقل، منتهى في منازل الوصول[١].

٣/ ٤٣٧ - لله سبحانه على عبده أمرٌ أمره به، وقضاءٌ يـقضيه عليه، ونعمةٌ ينعم بها عليه فلا ينفك من هذه الثلاثة.

والقضاء نوعان: إما مصائب، وَإِمًّا معايب .

وله (سبحانه) عليه عبودية في هذه المـراتب كلها، فأحب الخلق إليه من عرف عبوديته في هذه المراتب ووفاها حقها، فهذا أقرب الخلق إليه.

وأبعدهم منه من جهل عبوديته في هذه المراتب فـعطلها علمًا وعملا فعبوديته في الأمر: امتثاله إخلاصًا واقتداءً برسول الله ﷺ .

وفي النهي: اجتنابه خوفًا منه وإجلالا ومحبة.

وعبوديته في قضاء المـصائب: الصبر عليها، ثم الرضا بهـا، وهو أعلى منه، ثم الشكر عـليها وهو أعلى مـن الرضا، وهذا إنما يتأتـى منه إذا تمكن حبه مـن قلبه، وعِلم حسن اختياره له، وبره به، ولطفه به، وإحسانه إليه بالمصيبة وإن كره المصيبة.

٤٣٨ - وعبوديته فى قضاء المعايب: المبادرة إلـى التوبة منها والتنصل، والوقوف

(١) ولي في نفس المعنى : إذا وضح الهدف بان الطريق وهان.

فى مقام الاعتذار والانكسار، عالـمًا بأنه لايرفعها عنه إلا هو، ولا يقيه شرها سواه وأنها إن استمرت أبعدته من قُربه وطردته مـن بابه، فيراها من الضُر الذي لايكشفه غيره، حتى إنه ليـراها أعظم من ضُر البدن، فهو عائذ برضاه مـن سخطه، وبعفوه من عقوبته، وبه منه، مستجير وملتجىء منه إليه، يعلم أنه إن تخلى عنه وخلَّى بينه وبين نفسه فعنـده أمثالها وشر منها، وأنه لاسبيل له إلى الإقلاع والـتوبة إلا بتوفيقه وإعانته، وأن ذلك بيده سبحانه لا بيد العبد، فهو أعجز وأضعف وأقل من أن يوفق نفسه أو يأتي بمـرضاة سيده بدون إذنه ومشيئتـه وإعانته، فهو ملتجىء إلـيه متضرع ذليل مسكين، مُلق نفسه بين يديـه، طريح ببابه، مستخذٍ له، أذل شيء وأكسره له، وأفقره وأحوجه إليه، وأرغـبه فيه وأحبه له، بدنه متصرف في أشغـاله، قلبه ساجد بين يديه، يـعلم يقينًا أنه لاخـير فيه، ولا له ولابه ولامنه، وأن الخـير كله لله وفي يديه، وبه ومنه، فهو ولي نعمته، ومبتدئه بها من غير استحقاق، ومجريها عليه مع تمقته إليه، بإعراضه وغفلته ومعصيته.

فحظه سـبحانه الحمد والشـكر والثناء، وحظ الـعبد الذم والنقص والـعيب، قد استأثر (سبحانـه) بالمحامد والمدح والثناء، وولى العبد الملامة والـنقائص والعيوب، فالحمد كله له، والخيـر كله في يديه، والفضل كله له ، والثناء كـله له، والمنة كلها له، فمنه الإحسان ، ومـن العبد الإساءة، ومنه التودد إلى العبد بنـعمه، ومن العبد التبغض إليه بمعاصيه، ومنه النصح لعبده، ومن العبد الغش له في معاملته.

٤٣٩ - وأما عبودية النعـم: فمعرفتها، والاعتراف بها أولا، ثم الـعياذ به أن يقع في قلبه نسبتها وإضافتها إلى سواه ، وإن كان سـببًا من الأسباب فهو مسببه ومقيمه فالنعمة منه وحده بـكل وجه واعتبار، ثم الثناء بها عليه ومحـبته عليها، وشكره أن يستعملها في طاعته.

ومن لطائف الـتعبد بالنعم أن يسـتكثر قليله علـيه، ويستقل كثير شكـره عليها، ويعلم أنها وصلت إليه من سيده من غير ثـمن بذله فيها، ولا وسيلة منه توسل بها إليه ولا استحقاق منه لها، وأنها لله فى الحقيقة لا للعبد فلا تزيده النعم إلا انكساراً

وذلا وتواضعًا ومحبة للمنعم، وكلما جدد له نعمة أحدث لها عبودية ومحبة وخضوعًا وذلا، وكلما أحدث له قبضًا أحدث له رضًا، وكلما أحدث ذنبًا أحدث له توبة وانكسارًا واعتذاراً، فهذا هو العبد الكيس، والعاجز بمعزل عن ذلك، وبالله التوفيق.

٤٤٠/٤- الجهل بالطريق - وآفتها - وبالمقصود: يوجب التعب الكثير مع الفائدة القليلة، فإن صاحبه: إمَّا أن يجتهد في نافلة مع إضافة الفرض، أو في عمل بالجوارح لم يواطئه عمل القلب أو عملٌ بالباطن والظاهر لم يتقيد بالاقتداء، أو همة إلى عمل لم تَرْقَ بصاحبها إلى ملاحظة المقصود أو عملُ لم يحترز من آفاته المفسدة له حال العمل وبعده، أو عملُ غفل فيه عن مشاهدة المنة فلم يتجرد عن مشاركة النفس فيه، أو عملُ لم يشهد تقصيره فيه فيقوم بعده فى مقام الاعتذار منه، أوعمل لم يوفه حقه من النصح والإحسان وهو يظن أنه وفاه فهذا كله مما ينقص الثمرة مع كثرة التعب، والله الموفق.

٤٤١/٥- إذا عزم العبد على السفر إلى الله تعالى وإرادته، عرضت له الخوادع والقواطع.

فينخدع أولا بالشهوات والرياسات والملاذ والمناكح والملابس، فإن وقف معها انقطع، وإن رفضها ولم يقف معها وصدق في طلبه:

- ابتلي بوطء عقبه، وتقبيل يده، والتوسعة له في المجلس، والإشارة إليه بالدعاء ورجاء بركته، ونحو ذلك، فإن وقف معه انقطع به عن الله وكان حظه منه، وإن قطعه ولم يقف معه:

- ابتُلي بالكرامات والكشوفات، فإن وقف معها انقطع بها عن الله وكانت حظه، وإن لم يقف معها:

- ابتُلي بالتجريد والتخلي، ولذة الجمعية، وعزة الوحدة، والفراغ من الدنيا، فإن وقف مع ذلك انقطع به عن المقصود، وإن لم يقف معه وسار ناظرًا إلى مراد الله منه، وما يحبه منه، بحيث يكون عبده الموقوف على محابه ومراضيه، أين

كانت وكيف كانت، تعب بها أو استراح، تنعم أو تألم، أخرجته إلى الناس أو عزلته عنهم، لا يختار لنفسه غير ما يختاره له وليه وسيده، واقف مع أمره ينفذه بحسب الإمكان، ونفسه عنده أهون عليه أن يقدم راحتها ولذتها على مرضاة سيده وأمره .

هذا هو العبد الذي قد وصل ونفذ، ولم يقطعه عن سيده شيء ألبتة، وبالله التوفيق.

٦/ ٤٤٢- أقام الله سبحانه هذا الخلق بين الأمر والنهي، والعطاء والمنع فافترقوا فرقتين:

- فرقة قابلت أمره بالترك،ونهيه بالارتكاب، وعطاءه بالغفلة عن الشكر، ومنعه بالسُّخط : وهؤلاء أعداؤه، وفيهم من العداوة بحسب ما فيهم من ذلك .

- وقسم قالوا: إنما نحن عبيدك، فإن أمرتنا سارعنا إلى الإجابة، وإن نهيتنا أمسكنا نفوسنا وكففناها عما نهيتنا عنه، وإن أعطيتنا حمدناك وشكرناك، وإن منعتنا تضرعنا إليك وذكرناك، فليس بين هؤلاء وبين الجنة إلا ستر الحياة الدنيا، فإذا مزقه عليهم الموت صاروا إلى النعيم وقرة الأعين، كما أن أولئك ليس بينهم وبين النار إلا ستر الحياة، فإذا مزقه الموت ساروا إلى الحسرة و الألم.

٤٤٣- فإذا تصادمت جيوش الدنيا والآخرة في قلبك، وأردت أن تعلم من أي الفريقين أنت: فانظر مع من تميل منهما ومع من تقاتل إذ لايمكنك الوقوف بين الجيشين، فأنت مع أحدهما لا محالة.

فالفريق الأول استغشوا الهوى فخالفوه، واستنصحوا العقل فشاوروه، وفرغوا قلوبهم للفكر فيما خلقوا له، وجوارحهم للعمل بما أمروا به، وأوقاتهم لعمارتها بما يعمر منازلهم فى الآخرة، واستظهروا على سرعة الأجل بالمبادرة إلى الأعمال، وسكنوا الدنيا وقلوبهم مسافرة عنها، واستوطنوا الآخرة قبل انتقالهم إليها، واهتموا بالله وطاعته على قدر حاجتهم إليه، وتزودوا للآخرة على قدر مقامهم فيها، فعجل لهم سبحانه من نعيم الجنة وروحها أن آنسهم بنفسه. وأقبل بقلوبهم إليه، وجمعها

على محبته وشوقه إلى لقائه ونعمهم بـقربه، وفرغ قلوبهم مما ملأ قلوب غيرهم من محبة الدنيا والهم والحزن على فوتها والـغم من خوف ذهابها،فاستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلـون، صحبوا الدنيا بأبدانهم. والملأ الأعلى بأرواحهم.

وانظر الفقرات والفوائد برقم:

(٢٣٦-٢٩٤-٣٠١-٥٣٠-٥٣٢).



الفصل الثالث
التوفيق والخذلان

١/ ٤٥٦- وَحَّدَ قس[1] وما رأى النبي ﷺ، وكـفر ابن أُبى[2] وقد صلى معه في المسجد.

٢/ ٤٥٧- مع الصبِّ ريٌّ ولا ماء، وكم من عطشان في اللجة.

٣/ ٤٥٨- كيف يسلم من له زوجة لا ترحـمه، وولد لا يعذره، وجار لا يأمنه، وصاحب لا ينصحـه، وشريك لا ينصفه، وعدو لا ينام عن مـعاداته، ونفس أمارة بالسـوء، ودنيا متزيـنة، وهوى مُردٍ، وشهـوة غالبة لـه، وغضب قاهر، وشـيطان مزين، وضعف مستولٍ عليه، فإن تولاه الله وجـذبه إليه انقهرت له هذه كلها، وإن تخلى عنه ووكله إلى نفسه اجتمعت عليه، فكانت الهلكة.

٤/ ٤٥٩- إذا أراد القدر شخـصًا بُذر في أرض قلبـه بذر التوفيق، ثـم سقاه بماء الرغبة والرهبة، ثم أقام عليه بأطوار المـراقبة، واستخدم له حارس العلم، فإذا الزرع قائم على سوقه.

٥/ ٤٦٠- الأرواح في الأشباح كالأطيار في الأبراج، ولـيس ما أعد للاستفراخ كمن هيء للسباق.

٦/ ٤٦١- من أراد من العمال أن يـعرف قدره عند السلطان، فليـنـظر ماذا يوليه من العمل، وبأي شغل يشغله.

٧/ ٤٦٢- تالله ما عدا علـيك العدو إلا بعد أن تولى عنك الـولى، فلا تظن أن الشيطان غلب، ولكن الحافظ أعرض.

---

(١) هو قس بن ساعدة، مات في الجاهلية وهو القائل: ألا كل شيء ما خلا الله باطل.

(٢) هو عبد الله بن أبي بن سلول، رأس المنافقين في المدينة.

فلما تجرد للسير إلى الرسول جرده عمه من الثياب، فناولته الأم بجادًا فقطعه لسفر الوصل نصفين، ائتزر بأحدهما وارتدى الآخر، فلما نادى صائح الجهاد قنع أن يكون في ساقة الأحباب. والمحب لا يرى طول الطريق، لأن المقصود يعينه.

ألا بلّغ الله الحمى من يريده وبلّغ أكناف الحمى من يريدها

فلما قضى نحبه، نزل الرسول ﷺ يمهد له لحده وجعل يقول: «اللهم إني أمسيت عنه راضيًا فارضَ عنه».

فصاح ابن مسعود رضي الله عنه: ياليتني كنت صاحب القبر [١].

٥/ ٤٤٨ - اجتنب من يُعادي أهل الكتاب والسنة لئلا يعُديك خسرانه.

٦/ ٤٤٩ - احترز من عدوين هلك بهما أكثر الخلق: صادٌّ عن سبيل الله بشبهاته وزخرف قوله، ومفتون بدنياه ورئاسته.

٧/ ٤٥٠ - إذا كان الله ورسوله ﷺ في جانب، فاحذر أن تكون في الجانب الآخر، فإن ذلك يفضي إلى المشاقة والمحادة [٢]، وهذا أصلها ومنه اشتقاقها. فإن المشاقة أن يكون في شق، ومن يخالفه في شق، والمحادة أن يكون في حد وهو في حد، ولاتستسهل هذا فإن مبادئه تجر إلى غايته، وقليله يدعو إلى كثيره.

٤٥١ - وكن في الجانب الذى فيه الله ورسوله ﷺ وإن كان الناس كلهم في الجانب الآخر، فإن لذلك عواقب هي أحمد العواقب وأفضلها، وليس للعبد أنفع من ذلك في دنياه قبل آخرته، وأكثر الخلق إنما يكونون في الجانب الآخر، ولا

---

(١) أورده الحافظ ابن حجر في «الإصابة» (٤٧٩٥) وعزاه للبغوي وقال: ورجاله ثقات إلا أن فيه انقطاعًا، وأخرجه ابن منده من طريقين ساقهم. اهـ، ورواه ابن إسحاق فى «السيرة» (٤/ ١٧١ - ١٧٢)، وذو البجادين هو عبد الله بن عبد نهم المزني، وفي خبره وتخريج هذه الرواية بتوسع راجع «مختصر زاد المعاد»، بتحقيقي ط/ نزار البار - مكة المكرمة.

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾ «الأنفال: ١٣» وقوله: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى﴾ «النساء: ١١٥» وغيرها من الآيات.

سيما إذا قويت الرغبة والرهبة، فهناك لا تكاد تجد أحدًا في الجانب الذي فيه الله ورسوله ، بل يعده الناس ناقص العقل ، سيء الاختيار لنفسه ، وربما نسبوه إلى الجنون ، وذلك من مواريث أعداء الرسل ، فإنهم نسبوهم إلى الجنون لما كانوا في شق وجانب والناس فى شق وجانب آخر ، ولكن من وطن نفسه على ذلك فإنه يحتاج إلى:

أ - علم راسخ بما جاء به الرسول ﷺ يكون يقينًا له، لا ريب عنده فيه .

ب - صبر تام على معاداة من عاداه، ولومة من لامه.

٤٥٢ - ولا يتم له ذلك إلا برغبة قوية في الله والدار الآخرة ، بحيث تكون الآخرة أحب إليه من الدنيا ، وآثر عنده منها ، ويكون الله ورسوله ﷺ أحب إليه مما سواهما ، وليس شيء أصعب على الإنسان من ذلك في مبادىء الأمر ، فإن نفسه وهواه وطبعه وشيطانه وإخوانه ومعاشريه من ذلك الجانب يدعونه إلى العاجل ، فإذا خالفهم تصدوا لحربه ، فإن صبر وثبت جاءه العون من الله وصار ذلك الصعب سهلا ، وذلك الألم لذة، فإن الرب شكور ، فلابد أن يذيقه لذة تحيزه إلى الله وإلى رسوله ويريه كرامة ذلك ، فيشتد به سروره وغبطته، ويبتهج به قلبه ، ويظفر بقوته وفرحه وسروره ، ويبقى من كان محاربًا له - على ذلك - بين هائب له ، ومسالم له ومساعد، وتارك، ويقوى جنده، ويضعف جند عدوه.

٤٥٣- ولا تستصعب مخالفة الناس والتحيز إلى الله ورسوله ﷺ ولو كنت وحدك، فإن الله معك، وأنت بعينه وكلاءته وحفظه لك، وإنما امتحن يقينك وصبرك.

وأعظم الأعوان لك على هذا بعد عون الله التجرد من الطمع والفزع، فمتى تجردت منهما هان عليك التحيز إلى الله ورسوله، وكنت دائمًا فى الجانب الذى فيه الله ورسوله، ومتى قام بك الطمع والفزع؛ فلا تطمع فى هذا الأمر ولا تحدث نفسك به، فإن قلت: فبأي شيء أستعين على التجرد من الطمع ومن الفزع ؟

قلت: بالتوحيد والتوكل، والثقة بالله، وعلمك بأنه لا يأتي بالحسنات إلا هو ولا يذهب بالسيئات إلا هو، وأن الأمر كله لله، ليس لأحد مع الله شيء.

٨/ ٤٥٤- لما كمل الرسول ﷺ مقام الافتقار إلى الله سبحانه ، أحوج (سبحانه) الخلائق كلها إليه في الدنيا والآخرة ، أما حاجتهم إليه في الدنيا ، فأشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب والنفس الذي به حياة أبدانهم ، وأما حاجتهم إليه في الآخرة فإنهم يستشفعون بالرسل إلى الله حتى يريحهم من ضيق مقامهم ، فكلهم يتأخر عن الشفاعة فيشفع هو لهم ﷺ ، وهو الذي يستفتح لهم باب الجنة.

٩/ ٤٥٥- نور الحق أضوأ من الشمس، فيحق لخفافيش البصائر أن تعشو عنه.

وانظر الفقرات والفوائد برقم:

(١٥ - ٨٧ - ١٩٠ - ٣٥٨ - ٣٦٠ - ٣٦٣ - ٤٦٣ - ٤٨٤ - ٤٨٥ - ٥٠٥ - ٥١٠ - ٥١١ - ٥١٢ - ٥٢٠ - ٥٣٠ - ٥٣٦ - ٥٤٠ - ٥٧٧).



الفصل الثالث
التوفيق والخذلان

١/ ٤٥٦- وَحَّدَ قس[1] وما رأى النبي ﷺ، وكفر ابن أُبي[2] وقد صلى معه في المسجد.

٢/ ٤٥٧- مع الصبِّ ريٌّ ولا ماء، وكم من عطشان في اللجة.

٣/ ٤٥٨- كيف يسلم من له زوجة لا ترحمه، وولد لا يعذره، وجار لا يأمنه، وصاحب لا ينصحه، وشريك لا ينصفه، وعدو لا ينام عن معاداته، ونفس أمارة بالسوء، ودنيا متزينة، وهوى مُردٍ، وشهوة غالبة له، وغضب قاهر، وشيطان مزين، وضعف مستولٍ عليه، فإن تولاه الله وجذبه إليه انقهرت له هذه كلها، وإن تخلى عنه ووكله إلى نفسه اجتمعت عليه، فكانت الهلكة.

٤/ ٤٥٩- إذا أراد القدر شخصًا بُذر في أرض قلبه بذر التوفيق، ثم سقاه بماء الرغبة والرهبة، ثم أقام عليه بأطوار المراقبة، واستخدم له حارس العلم، فإذا الزرع قائم على سوقه.

٥/ ٤٦٠- الأرواح في الأشباح كالأطيار في الأبراج، وليس ما أعد للاستفراخ كمن هيء للسباق.

٦/ ٤٦١- من أراد من العمال أن يعرف قدره عند السلطان، فلينظر ماذا يوليه من العمل، وبأي شغل يشغله.

٧/ ٤٦٢- تالله ما عدا عليك العدو إلا بعد أن تولى عنك الولي، فلا تظن أن الشيطان غلب، ولكن الحافظ أعرض.

---

(١) هو قس بن ساعدة، مات في الجاهلية وهو القائل: ألا كل شيء ما خلا الله باطل.

(٢) هو عبد الله بن أبي بن سلول، رأس المنافقين في المدينة.

٨/ ٤٦٣- العقـول المؤيدة بالـتوفيق ترى أن مـا جاء به الرسـول ﷺ هو الحق الموافق لـلعقل والحـكمة، والعـقول المضروبة بـالخذلان ترى المعـارضة بين الـعقل والنقل، وبين الحكمة والشرع.

٩/ ٤٦٤- ربٌّ ذو إرادة أمر عـبدًا ذا إرادة، فإن وفقـه وأراد من نفـسه أن يعيـنه ويلهـمه: فعل ما أمر بـه، وإن خذله وخلاه وإرادته ونفـسه، وهو من هذه الحيـثية لايختـار إلا ما تهواه نـفسه وطبعـه، فهو من حيـث هو إنسان لا يـريد إلا ذلك، ولذلك ذمه الله في كتابه من هذه الحيثية ولم يمدحه إلا بأمر زائد على تلك الحيثية، وهو كونه مسـلمًا ومؤمنًا وصابرًا ومحـسنًا وشكورًا وتقيًا وبـرًا، ونحو ذلك، وهذا أمر زائد على مجرد كونه إنسانًا وإرادته صالحة، ولكن لا يكفي مجرد صلاحيتها إن لم تؤيد بقدر زائد على ذلك وهو « التوفيق ».

كما أنه لا يكـفي في الرؤية مجرد صلاحـية العين للإدراك إن لم يحـصل سبب آخر من النور المنفصل عنها.

١٠/ ٤٦٥- أساس كل خير أن تـعلم أن ما شاء الله كان، ومالم يـشأ لم يكن، فتيقن حينئذ أن الحسنات من نعمه فتشكره عليها، وتتضرع إليه أن لا يقطعها عنك، وأن السيئات من خذلانه وعقوبته، فتبتهل إليه أن يحول بينك وبينها، ولا يكلك في فعل الحسنات وترك السيئات إلى نفسك.

٤٦٦- وقد أجمع العارفون على أن كل خير فأصـله بتوفيق الله للعبد، وكل شر فأصله خذلانه لعبده، وأجمعوا أن التوفيق أن لايكلك الله إلى نفسك، وأن الخذلان هو أن يخلي بينـك وبين نفسك، فإذا كان كل خيرفأصله الـتوفيق، وهو بيد الله لا بيد العبد، فمفتاحه الدعاء والافتقار وصدق اللجء والرغبة والرهبة إليه، فمتى أعطى العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح له، ومتـى أضله عن المفتاح بقي باب الخير مرتجًا دونه.

٤٦٧- قال أمير المـؤمنين عمر بـن الخطاب ﷺ: «إني لا أحمل هـم الإجابة، ولكن هم الدعاء».

فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه وعلى قدر نية العبد وهمته ومراده ورغبته في

ذلك يكــون توفيقه سبــحانه وإعانته، فــالمعونة من الله تنــزل على العباد عــلى قدر هممهم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم. والخذلان ينزل عليهم على حسب ذلك.

فالله سبحانه أحكم الحــاكمين وأعلم العالمين، يضع التوفيــق في مواضعه اللائقة به، والخذلان في مواضعه اللائقة به، وهو العليم الحكيم.

٤٦٨- وما أوتي من أتــي إلا من قبل إضاعة الــشكر وإهمال الافتــقار والدعاء، ولاظفر من ظفر بمشيئة الله وعونه إلا بقيــامه بالشكر وصدق الافتقار والدعاء وملاك ذلك الصــبر فإنه مــن الإيمان بمنزلــة الرأس من الجسد، فــإذا قطع الرأس فــلا بقاء للجسد.

١١/٤٦٩- قال شقيق بن إبراهيم: أغلق باب التوفيق عن الخلق من ستة أشياء:

- اشتغالهم بالنعمة عن شكرها.
- ورغبتهم في العلم وتركهم العمل.
- والمسارعة إلى الذنب وتأخير التوبة.
- والاغترار بصحبة الصالحين وترك الاقتداء بفعالهم.
- وإدبار الدنيا عنهم وهم يتبعونها.
- وإقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها.

قلت : وأصل ذلك عدم الرغبة والرهبة ، وأصله ضعف اليقين ، وأصله ضعف البصيرة ، وأصله مهانة النفس ودناءتها واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير.

وإلا فلو كانت النفس شريفة كبيرة لم تَرْضَ بالدون، فأصل الخير كله بتوفيق الله ومشيئته، وشرف النفس ونبلها وكبرهــا، وأصل الشر خستها ودناءتها وصغرها. قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَــن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَــن دَسَّاهَا﴾ «الشمس: ٩، ١٠»: أي أفلح من كبرها وكثرها ونماها بطاعة الله، وخاب من صغرها وحقرها بمعاصي الله.

فالنفوس الــشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بــأعلاها وأفضلها وأحمــدها عاقبة، والنفوس الــدنيئة تحوم حول الــدناءات وتقع عليهــا كما يقع الذبــاب على الأقذار، فالنفس الشريفة العلية لا ترضى بالــظلم ولا بالفواحش ولا بالسرقة والخيانة، لأنها

أكبر من ذلك وأجلّ، والنفس الحقيرة الخسيسة بالضد من ذلك، فكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِه﴾ «الإسراء: ٨٤». أى على ما يشاكله ويناسبه فهو يعمل على طريقته التي تناسب أخلاقه وطبيعته، وكل إنسان يجري على طريقته ومذهبه وعاداته التي ألفها وجبُل عليها، فالفاجر يعمل بما يشبه طريقته من مقابلة النعم بالمعاصي والإعراض عن المنعم، والمؤمن يعمل بما يشاكله من شكر المنعم ومحبته والثناء عليه وإليه والحياء منه، والمراقبة له وتعظيمه وإجلاله.

١٢/ ٤٧٠- فكرت هل للتوفيق والخذلان سبب ؟ أم هما بمجرد المشيئة لا سبب لهما؟!

فإذا سببهما أهلية المحل وعدمها، فهو سبحانه خالق المحال (وهي) متفاوتة في الاستعداد والقبول أعظم تفاوت، فالجمادات لا تقبل ما يقبله الحيوان، وكذلك النوعان كل منهما متفاوت في القبول، فالحيوان البهيم متفاوت في القبول، لكن ليس بين النوع الواحد من التفاوت كما بين النوع الإنساني.

فإذا كان المحل قابلا للنعمة بحيث يعرفها ويعرف قدرها وخطرها، ويشكر المنعم بها ويثني عليه بها، ويعلم أنها من محض الجود وعين المنة، من غير أن يكون هو مستحقًا لها، ولا هي له ولا به، وإنما هي لله وحده وبه وحده، فوحده بنعمته إخلاصًا، وصرفها في محبته شكرًا، وشهدها من محض جوده منة، وعرف قصوره وتقصيره فى شكرها عجزًا وضعفًا وتفريطًا، وعلم أنه إن أدامها عليه فذلك محض صدقته وفضله وإحسانه، وإن سلبه إياها فهو أهل لذلك مستحق له.

وكلما زاده من نعمه ازداد ذلا له وانكسارًا وخضوعًا بين يديه، وقيامًا بشكره وخشيته له سبحانه أن يسلبه إياها، لعدم توفيته شكرها كما سلب نعمته عمن لم يعرفها ولم يرعها حق رعايتها، فإن لم يشكر نعمته وقابلها بضد ما يليق أن يقابل به سلبه إياها ولابد، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم من بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾. «الأنعام: ٥٣».

وهم الذين عرفوا قدر النعمة وقبلوها وأحبوها وأثنوا على المنعم بها وأحبوه وقاموا بشكره، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ «الأنعام: ١٢٤».

٤٧١ - وسبب الخذلان: عدم صلاحية المحل، وأهليته وقبوله للنعمة، بحيث لو وافته النعم لقال هذا لي، إنما أوتيته لأني أهله ومستحقه كما قال تعالى (عن قارون): ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ «القصص:٧٨» أي: على علم علمه الله عندي أستحق به ذلك وأستوجبه وأستأهله.

قال الفراء: أي على فضل عندي أني كنت أهله ومستحقًا له إذ أعطيته وقال مقاتل: يقول على خير علمه الله عندى.

وذكر عبد الله بن الحارث بن نوفل: سليمان بن داود النبي (عليهما السلام) فيما أوتي من الملك ثم قرأ قوله تعالى: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ «النمل: ٤٠». ولم يقل هذا من كرامتي ثم ذكر قارون وقوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ «القصص:٧٨» يعنى أن سليمان رأى ما أوتيه من فضل الله عليه ومنته وأنه ابتلى به فشكره، وقارون رأى ذلك من نفسه واستحقاقه.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ «فصلت: ٥٠».

أي: أنا أهله وحقيق به فاختصاصي به كاختصاص المالك بملكه، والمؤمن يرى ذلك ملكًا لربه وفضلا منه مَنَّ به على عبده من غير استحقاق منه، بل صدقة تصدق بها على عبده، وله أن يتصدق بها، فلو منعه إياها لم يكن قد منعه شيئًا هو له يستحقه عليه، فإذا لم يشهد ذلك رأى فيه أهلا ومستحقًا فأعجبته نفسه وطغت بالنعمة وعلت بها واستطالت على غيرها، فكان حظها منها الفرح والفخر، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي، إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ «هود: ٩،

١٠». فذمه باليأس والكفر عند الامتحان بالبلاء، وبالفرح والفخر عند الابتلاء بالنعماء، واستبدل بحمد الله وشكره والثناء عليه إذ كشف عنه البلاء قوله: ﴿**ذهب السيئات عني**﴾، ولو أنه قال: أذهب الله السيئات عني برحمته ومنِّه، لما ذم على ذلك، بل كان محمودًا عليه، ولكنه غفل عن المنعم بكشفها ونسب الذهاب إليها وفرح وافتخر. فإذا علم الله سبحانه هذا من قلب عبد، فذلك من أعظم أسباب خذلانه وتخليه عنه، فإن محله لاتناسبه النعمة المطلقة التامة، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ**﴾ «الأنفال : ٢٢ ، ٢٣».

فأخبر سبحانه أن محلهم غير قابل لنعمته ، ومع عدم القبول ففيهم مانع آخر يمنع وصولها إليهم ، وهو توليهم وإعراضهم إذا عرفوها وتحققوها.

ومما ينبغي أن يعلم : أن أسباب الخذلان من بقاء النفس على ما خلقت عليه فى الأصل وإهمالها وتخليتها، فأسباب الخذلان منها وفيها، وأسباب التوفيق من جعل الله سبحانه لها قابلة للنعمة، فأسباب التوفيق منه ومن فضله وهو الخالق لهذه وهذه، كما خلق أجزاء الأرض، هذه قابلة لنبات وهذه غير قابلة له، وخلق الشجر هذه تقبل الثمرة وهذه لاتقبلها، وخلق النحلة قابلة لأن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه، والزنبور غير قابل لذلك، وخلق الأرواح الطيبة قابلة لذكره وشكره وحجته وإجلاله وتعظيمه وتوحيده ونصيحة عباده، وخلق الأرواح الخبيثة غير قابلة لذلك بل لضده، وهو الحكيم العليم.

وانظر الفقرات والفوائد برقم:

(١١٠ - ١٣٩ - ٢٨٥ - ٢٩١ - ٥٣٦ - ٥٨٢).

الفصل الرابع
فضـائل الصحابة

١/ ٤٧٢ - فضل أهل بدر :

قول النبي ﷺ لـعمر رضي الله عنه : «وما يدريك أن الله اطلع علـى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[1].

أشكل على كثير من الناس معناه، فإن ظـاهره إباحة كل الأعمال لهم وتخييرهم فيما شاءوا منها، وذلك ممتنع :

فقالت طائفة - منهم ابن الجوزي : ليـس المراد من قوله : «اعملوا» الاستقبال، وإنما هو للماضي، وتقديره : أي عمل كان لكم فقد غفرته، قال : ويدل على ذلك شيئان :

أحدهما : أنه لو كان للمستقبل كان جوابه قوله : فسأغفر لكم .

والثانـي : أنه كان يكـون إطلاقًا في الـذنوب، ولا وجه لذلـك، وحقيقـة هذا الجواب : أني قد غفرت لكم بهذه الغزوة ما سلف من ذنوبكم .

لكنه ضعيف من وجهين :

أ - أن لفظ «اعملوا» يأباه، فإنه للاستقبال دون الماضي .

وقوله : «قـد غفرت لكم» لا يـوجب أن يكون اعملـوا مثله، فإن قـوله : «قد غفرت» تحقيـق لوقوع المغفرة فى المستقـبل كقوله : ﴿أتى أمر الله﴾ و﴿جـاء ربك﴾ ونظائره .

ب- أن نفس الحديـث يرده، فإن سببه قصـة حاطب وتجسسه علـى النبي ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٨٣) ، ومسلم (٢٤٩٤) مطولا فى قصة حاطب بن أبي بلتعة بلفظ : «لعل الله اطلع على أهل بدر . . .» الحديث فانظره، وغيرهما .

وذلك ذنب واقع بعد غزوة بدر لا قبلها، وهو سبب الحديث فهو مراد منه قطعًا .

فالذي نظن في ذلك - والله أعلم - أن هذا خطاب لقوم قد علم الله سبحانه أنهم لا يفارقون دينهم، بل يموتون على الإسلام، وأنهم قد يقارفون بعض ما يقارفه غيرهم من الذنوب، ولكن لا يتركهم سبحانه مصرين عليها، بل يوفقهم لتوبة نصوح واستغفار وحسنات تمحو أثر ذلك، ويكون تخصيصهم بهذا دون غيرهم؛ لأنه قد تحقق ذلك فيهم، وأنهم مغفور لهم، ولا يمنع ذلك كون المغفرة حصلت بأسباب تقوم بهم، كما لا يقتضى ذلك أن يعطلوا الفرائض وثوقًا بالمغفرة، فلو كانت قد حصلت بدون الاستمرار على القيام بالأوامر لما احتاجوا بعد تلك إلى صلاة ولا صيام ولا حج ولا زكاة ولا جهاد وهذا محال .

٤٧٣- ومن أوجب الواجبات : التوبة بعد الذنب، فضمان المغفرة لا يوجب تعطيل أسباب المغفرة، ونظير هذا قوله في الحديث الآخر : «أذنب عبدي ذنبًا فقال: أي رب أذنبت ذنبًا فاغفره لي، فغفر له، ثم مكث ما شاء الله أن يمكث ثم أذنب ذنبًا آخر فقال : رب أصبت ذنبًا فاغفره لي، فغفر له، ثم مكث ما شاء الله أن يمكث ثم أذنب ذنبًا آخر فقال : رب أصبتُ ذنبًا فاغفره لي، فقال الله : علم عبدي أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به، فقد غفرتُ لعبدي فليعمل ما شاء»[1] .

واختصاص هذا العبد بهذا؛ لأنه قد علم أنه لا يصر على ذنب، وأنه كلما أذنب تاب (وهذا) حكم يعم كل ما كانت حاله (مثل) حاله.

لكن ذلك العبد مقطوع له بذلك كما قطع به لأهل بدر، وكذلك كل من بشره رسول الله ﷺ بالجنة أو أخبره بأنه مغفور له، لم يفهم منه هو ولا غيره من الصحابة إطلاق الذنوب والمعاصي له ومسامحته بترك الواجبات، بل كان هؤلاء أشد اجتهادًا وحذرًا وخوفًا بعد البشارة منهم قبلها، كالعشرة المشهود لهم بالجنة، وقد كان الصديق رضي الله عنه شديد الحذر والمخافة وكذلك عمر، فإنهم علموا أن البشارة المطلقة مقيدة بشروطها والاستمرار عليها إلى الموت، ومقيدة بانتفاء موانعها، ولم يفهم أحد منهم من ذلك الإطلاق، الإذن فيما شاءوا من الأعمال .

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠٧) ، ومسلم (التوبة/ ٢٩) ، والإمام أحمد (٢/ ٤٩٢).

٢/ ٤٧٤- فضائل أبي بكر :

لما بايع الرسـول ﷺ أهل العقبة، أمر الصحـابة بالهجرة إلى المدينـة، فعلمت قريش أن أصحابه قد كثروا وأنهم سيمنـعونه، فأعملت آراءها في استخراج الحيل، فمنهم من رأى الحبس ، ومنهم من رأى النفي، ثم اجتمع رأيهم على القتل، فجاء البريد بـالخبر من السمـاء، وأمره أن يفارق المضجع ، فـبـات عليٌّ مكـانه، ونهض الصديق لـرفقة السفر ، فـلما فارقا بيـوت مكة اشتد الحذر بـالصديق فجعـل يذكر الرصد، فيسير أمامه، وتارة يذكر الطلب فيتأخر وراءه، وتارة عن يمينه ﷺ وتارة عن شماله، إلى أن انتـهيا إلى الغار، فبدأ الصديق بدخوله لـيكون وقاية له إن كان ثَمَّ مؤذٍ، وأنـبت الله شجرة لم تكـن قبل، فأظلـت المطلوب، وأضلت الـطالب ، وجاءت عنـكبوت فحازت وجـه الغار فحاكـت ثوب نسجهـا على منوال الـستر ، فأحكمت الشُّقة حتى عَمِى على القائف[1] المطلب، وأرسل (الله) حمامتين فاتخذتا هناك عُشًا جـعل على أبصار الطالبـين غشاوة، وهذا أبلغ في الإعجـاز من مقاومة القوم بالجنود . فلما وقف القوم على رؤوسهم وصار كلامهم بسمع الرسول ﷺ والصديق، قال الصديق وقد اشتد به الـقلق : يارسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصرنا تحت قدميـه، فقال رسول الله ﷺ :«يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟!»[2] .

لما رأى رسول الله ﷺ حزنه قد اشتد - لكن لا على نفسه- قَوَّى قلبه ببشارة: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ «التوبة : ٤٠»، فظهر سر هذا الاقتران في المعية لفظًا، كما ظهر حكـمًا ومعنًى، إذ يقـال: رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله، فلـما مات ﷺ قيل: خليفة رسول الله، ثم انقطعت إضـافة الخلافة بموته فقيل (بعده): أمير المؤمنين .

فأقاما في الـغار ثلاثًا، ثم خرج منه ولسـان القدر يقول : «لتدخلـنها دخولا لم

---

(١) القائف : مقتف الأثر .

(٢)اخرجه البخاري (٤٦٥٣-٤٦٦٣)، ومسلم (١٨٥٤)، وأحمد (١/ ٤) وغيرهم .

يدخله أحد قبلك، ولا ينبغي لأحد من بعدك»، فلما استقلا على البيداء لحقهما سراقة بن مالك فلما شارف الظفر أرسل عليه الرسول ﷺ سهمًا من سهام الدعاء، فساخت قوائم فرسه في الأرض إلى بطنها، فلما علم أنه لا سبيل له عليهما أخذ يعرض المال على من قد رد مفاتيح الكنوز، ويقدم الزاد إلى شبعان «أبيتُ عند ربى يُطعمنى ويسقينى»[1] .

كانت تُحفة ﴿ثاني اثنين﴾ مدخرة للصديق دون الجميع، فهو الثاني في الإسلام، وفي بذل النفس، وفي الزهد، وفي الصحبة، وفي الخلافة. وفي العمر، وفي سبب الموت؛ لأن رسول الله ﷺ مات على أثر السم، وأبو بكر سُم فمات.

أسلم على يديه من العشرة : عثمان، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وكان عنده يوم أسلم أربعون ألف درهم فأنفقها أحوج ما كان الإسلام إليها، فلهذا جلبت نفقته عليه «ما نفعني مال ما نفعني مال أبى بكر»[2] فهو خير من مؤمن آل فرعون، لأن ذلك كان يكتم إيمانه والصديق أعلن به، وخيرٌ من مؤمن آل ياسين، لأن ذلك جاهد ساعة والصديق جاهد سنين.

عاين طائر الفاقة يحوم حول حَب الإيثار ويصيح: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ «البقرة: ٢٤٥» فألقى له حب المال على روض الرضا، واستلقى على فراش الفقر، فنقل الطائر الحَب إلى حوصلة المضاعفة ثم علا على أفنان شجرة

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٦١-١٩٦٧) من حديث أبى سعيد يرفعه بلفظ : «إنى أبيت لى مُطعِمٌ يطعمنى وساقٍ يسقين»، وأخرجه مسلم برقم (١١٠٣) .

(٢) (صحيح) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٣-٣٦٦)، والترمذي (٣٦٦١)، وابن ماجه (٩٤)، وابن حبان (٢١٦١)، وابن أبي شيبة (١٢/ ٧)، والحميدي في « مسنده» (٢٥٠)، وابن أبى عاصم في «السنة» (٢/ ٥٧٧) بألفاظ مختلفة، قال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٥١): رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير إسحاق بن إسرائيل وهو ثقة مأمون. اهـ، وقال البوصيري: رواه أبو يعلى ورواته ثقات. اهـ، وذكره الحافظ في «المطالب العالية» (٣٨٨٩) وفي «الفتح» وسكت عنه، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي».

الصدق، يغرد بفنون المدح، ثم قام فى محاريب الإسلام يتلو : ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ «الليل :١٧ ,١٨» .

نطقت بفضله الآيات والأخبار، واجتمع على بيعته المهاجرون والأنصار، فيا مبغضيه في قلوبكم من ذكره نار، كلما تليت فضائله علا عليهم الصغار، أترى لم يسمع الروافض الكفار: ﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾ «التوبة : ٤٠» .

دُعي إلى الإسلام فما تلعثم ولا أبى، وسار على المحجة (بعد الرسول ﷺ) فما زَلَّ ولا كبا، وصبر في مدته من مُدى العدى[١] على وقع الشبا،وأكثر فى الإنفاق فما قلل حتى تخلل بالعبا[٢] .

تالله لقد زاد السُّك في كل دينار، دينار: ﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾.

مَن كان قرين النبى في شبابه ؟ من ذا الذي سبق إلى الإيمان من أصحابه ؟[٣].

مَن الذي أفتى بحضرته سريعًا في جوابه ؟ من أول من صلى معه ؟ مَن آخرِ من صلى به ؟ مَن الذى ضاجعه بعد الموت فى تُرابه ؟ فاعرفوا حق الجار !

كم وقى الرسول ﷺ بالمال والنفس، وكان أخص به في حياته، وهو ضجيعه في الرمس[٤]، فضائله جلية وهى خلية عن اللبس، ياعجبًا من يغطي عين ضوء الشمس في نصف النهار .

لقد دخلا غارًا لا يسكنه لابث، فاستوحش الصديق من خوف الحوادث فقال الرسول ﷺ : ما ظنك باثنين والله الثالث، فنزلت السكينة فارتفع خوف الحادث، فزال القلق وطاب عيش الماكث، فقام مؤذن النصر ينادي على رءوس منائر الأمصار : ﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾ .

---

(١) المُدى : جمع المدية وهي الشفرة (سكين أو مطواة أو ما شابهه) والعدى : أي الأعداء.

(٢) العبا : أي العباءة وهي نوع من الثياب معروف، وتخلل بالعبا : أي تكفن بها، والمعنى واضح .

(٣) انظر كتابنا «الأوائل من الصحابة » الباب الأول .

(٤) الرمس : القبر .

٤٧٥- حُبه والله رأس الحنيفية، وبُغضه يدل على خبث الطوية، فهو خير الصحابة والقرابة والحُجة على ذلك قوية، لولا صحة إمامته ما قيل ابن الحنفية، مهلا مهلا فإن دم الروافض قد فار .

والله ما أحببناه لهوانا، ولا نعتقد في غيره هوانًا، ولكن أخذنا بقول على وكفانا: «رضيك رسول الله لديننا، أفلا نرضاك لدنيانا» تالله لقد أخذت من الروافض بالثأر.

تالله لقد وجب حق الصديق علينا، فنحن نقضي بمدائحه ونقر بما نُقُر به من السُّنى عيناً، فمن كان رافضيًا فلا يعد إلينا وليقل لي أعذار .

٣/ ٤٧٦- سلمان الفارسي :

نجائب[1] النجاة مهيأة للمُراد، وأقدام المطرود موثوقة بالقيود، هبت عواصف الأقدار في بيداء الأكوان، فتقلب الوجود ونَجَم الخير، فلما ركدت الريح إذا أبو طالب (عم الرسول ﷺ) غريق في لجة الهلاك، وسلمان على ساحل السلامة، والوليد بن المغيرة يقدم قومه في التيه، وصهيب قد قَدم بقافلة الروم، والنجاشي في أرض الحبشة يقول : لبيك اللهم لبيك، وبلال ينادي : الصلاة خير من النوم، وأبو جهل في رقدة المخالفة .

لما قُضي في القدم بسابقة سلمان عَرَّج به دليل التوفيق عن طريق آبائه في التمجس[2]، فأقبل يناظر أباه في دين الشرك، فلما علاه بالحجة لم يكن له جواب إلا القيد، وهذا جواب يتداوله أهل الباطل من يوم حَرِفوه، وبه أجاب فرعون موسى : ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي﴾ «الشعراء: ٢٩» وبه أجاب الجهمية الإمام أحمد لما عرضوه على السياط، وبه أجاب أهل البدع شيخ الإسلام (ابن تيمية) حين استودعوه السجن - وها نحن على الأثر- فنزل به ضيف ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ فنال

(١) النجابة : النباهة وظهور الفضل للمرء على أترابه وقال في «المختار» نجائب الإبل : هي عتاقها التي يسابق عليها .

(٢) التمجس : دين المجوس وهم قوم كانوا يعبدون الشمس والقمر والنار.

بإكرامه مرتبة «سلمان منا أهل البيت»[1] فسمع أن ركبًا على نية السفر، فسرق نفسه من أبيه ولا قطع، فركب راحلة العزم يرجو إدراك مطلب السعادة، فغاص فى بحر البحث ليقع بدرة الوجود، فوقف نفسه على خدمة الأدلاء وقوف الأذلاء، فلما أحس الرهبان بانقراض دولتهم سلَّموا إليه أعلام الإعلام على نبوة نبينا ﷺ وقالوا : إن زمانه قد أظل فاحذر أن تضل، فرحل مع رفقة لم يرفقوا به: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ «يوسف: ٢٠» فابتاعه يهودي بالمدينة، فلما رأى الحِرة تَوقَّدَ حَراً شوقه ولم يعلم رب المنزل بوجد النازل، فبينما هو يكابد ساعات الانتظار قدم البشير بقدوم البشير، وسلمان فى رأس نخلة، وكاد القلق يلقيه لولا أن الحزن أمسكه كما جرى يوم ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ «القصص: ١٠» فعجل النزول للتلقى فى ركب البِشارة ولسان حاله يقول :

خليليَّ مِن نجدٍ قِفا بي على الرُّبى ... فقد هب من تلك الديار نسيم

فصاح به سيده: مَالَكَ ؛ انصرف إلى شغلك، فقال : كيف انصرافي ولى فى داركم شغل ؟!، ثم أخذ لسان حاله يترنم لو سمع الأطروش[2]:

خليليَّ لا والله ما أنا منكما ... إذا علم من آل ليلى بدا ليا

فلما لقي الرسول ﷺ عارض نسخة الرهبان بكتاب الأصل فوافقه.

يا محمد أنت تريد أبا طالب، ونحن نريد سلمان، أبو طالب إذا سِئل عن اسمه

---

(١) (ضعيف الإسناد) أخرجه الحاكم (٣/ ٥٩٨) قال الذهبي : سنده ضعيف .اهـ. قلت: فيه كثير ابن عبد الله، ورواه الطبراني في «الكبير» (٦/ ٢٦١) من طريقه أيضًا، وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١٣٠) : وفيه كثير بن عبد الله المزني وقد ضعفه الجمهور وحسن الترمذي حديثه وبقية رجاله ثقات .اهـ، وذكره أيضًا مطولا (المجمع: ٩/ ١١٨) وعزاه للبزار وقال : وفيه النضر ابن حميد الكندى وهو متروك. ا.هـ، والحديث ذكره الألباني في «ضعيف الجامع» وقال : ضعيف جداً وأشار إلى أنه في «الضعيفة» له (٣٧٠٤) وانظر قصة إسلام سلمان رضي الله عنه في «هداية الحيارى» للمصنف بتحقيقي ط/ نزار الباز ـ مكة . ففيه فوائد .

(٢) الأطروش : الأصم وثقيل السمع .

قال : عبد مناف، وإذا انتسب افتخر بالآباء، وإذا ذُكرت الأموال عد الإبل، وسلمان إذا سئُلِ عن اسمه؟ قال : عبد الله. وعن نسبه ؟ قال : ابن الإسلام، وعن ماله ؟ قال : الفقر، وعن حانوته؟ قال : المسجد، وعن كسبه؟ قال : الصبر، وعن لباسه؟ قال : التقوى والتواضع، وعن وساده؟ قال : السهر، وعن فخره؟ قال : سلمان منا، وعن قصده؟ قال : يريدون وجهه، وعن سيره؟ قال : إلى الجنة، وعن دليله في الطريق؟ قال : إمام الخلق وهادى الأئمة :

إذا نحن أدلجنا وأنت أمَامَنا كفى بالمطايا طيبُ ذكراك حاديا
وإن نحن أضللنا الطريق ولم نجد دليلاً كفانا نور وجهك هاديا

٤/ ٤٧٧- من كلام عبد الله بن مسعود ﷺ :

قال رجل عنده : ما أحب أن أكون من أصحاب اليمين، أحب أن أكون من المقربين .

فقال عبد الله : لكن ها هنا رجل وَدَّ أنه إذا مات لم يُبعث - يعنى نفسه .

٤٧٨- وخرج (ﷺ) ذات يوم، فاتبعه ناسٌ، فقال لهم : ألكم حاجة؟! قالوا : لا، ولكن أردنا أن نمشي معك، قال : ارجعوا، فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع .

٤٧٩- وقال : لو تعلمون مني ما أعلم من نفسي لحثوتم على رأسي التراب .

٤٨٠- وقال : حبذا المكروهان : الموت والفقر، وأيم الله إن هو إلا الغنى والفقر، وما أبالي بأيهما بليت، أرجو الله في كل واحد منهما، إن كان الغنى أن فيه للعطف، وإن كان الفقر أن فيه للصبر .

٤٨١- وقال : إنكم فى ممر الليل والنهار في آجال منقوصة، وأعمال محفوظة، والموت يأتى بغتة فمن زرع خيراً فيوشك أن يحصد رغبة، ومن زرع شراً فيوشك أن يحصد ندامة، ولكل زارع مثل ما زرع، لا يسبق بطيء بحظه، ولا يدرك حريص ما لم يقدر له .

٤٨٢- من أُعطي خيراً فالله أعطاه، ومن وُقى شراً فالله وقاه .

٤٨٣- المتقون سادة، والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة.

٤٨٤- إنما هما اثنتان : الهدى والكلام، فأفضل الكلام كلام الله، وأفضل

الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور مُحدثاتها، وكل محدثة بدعة، فلا يطولن عليكم الأمد، ولا يلهينكم الأمل، فإن كل ما هو آتٍ قريب، ألا وإن البعيد ما ليس آتيًا، ألا وإن الشقي من شقي في بطن أمه، وإن السعيد من وعظ بغيره، ألا وإن قتال المسلم كفر وسبابه فسوق، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام حتى يسلم عليه إذا لقيه، ويجيبه إذا دعاه ويعوده إذا مرض، ألا وإن شر الروايا روايا الكذب، ألا وإن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ولا أن يعد الرجل صبيه شيئًا ثم لا ينجزه، ألا وإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، والصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة، وإنه يقال للصادق صدق وبر، ويقال للكاذب كذب وفجر، وإن محمدًا ﷺ حدثنا أن الرجل ليصدق حتى يكُتب عند الله صديقًا، ويكذب حتى يكُتب عند الله كذابًا .

٤٨٥- إن أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العُرى كلمة التقى، وخير الملة ملة إبراهيم، وأحسن السنن سنة محمد ﷺ ، وخير الهدي هدي الأنبياء، وأشرف الحديث ذكر الله، وخير القصص القرآن، وخير الأمور عواقبها، وشر الأمور محدثاتها، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى، ونفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها، وشر المعذرة حين يحضر الموت، وشر الندامة ندامة يوم القيامة، وشر الضلالة الضلالة بعد الهدى، وخير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، وخير ما ألقي في القلب اليقين، والريب من الكفر، وشر العَمى عمى القلب، والخمر جماع الإثم، والنساء حبائل الشيطان، والشباب شُعبة من الجنون، والنوح من عمل الجاهلية .

٤٨٦- من الناس من لا يأتي الجمعة إلا دبرًا، ولا يذكر الله إلا هجرًا، وأعظم الخطايا الكذب، ومن يعفُ يعفُ الله عنه، ومن يكظم الغيظ يأجره الله، ومن يغفر يغفر الله له، ومن يصبر على الرزية يعقبه الله، وشر المكاسب كسب الربا، وشر المآكل مال اليتيم، وإنما يكفي أحدكم ما قنعت به نفسه، وإنما يصير إلى أربعة أذرع، والأمر إلى آخره، وملاك العمل خواتمه، وأشرف الموت قتل الشهداء، ومن يستكبر يضعه الله، ومن يعص الله يطع الشيطان .

٤٨٧- ينبغي لحامل القرآن أن يُعْرَفَ بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون، وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكيًا محزونًا حكيمًا حليمًا سكينًا، ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافيًا، ولا غافلاً، ولا سخابًا، ولا صياحًا، ولا حديدًا.

٤٨٨- من تطاول تَعَظُّمًا حطه الله، ومن تواضع تخشُّعًا رفعه الله، وإن للمَلَك لمة وللشيطان لمة، فلمة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق، فإذا رأيتم ذلك فاحمدوا الله ، ولمة الشيطان إيعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، فإذا رأيتم ذلك فتعوذوا بالله .

٤٨٩- إن الناس قد أحسنوا القول، فمن وافق قوله فعله فذاك الذى أصاب حظه، ومن خالف قوله فعله فذاك إنما يوبخ نفسه .

٤٩٠- لا ألفين أحدكم جيفة ليل، قطرب نهار، إنى لأبغض الرجل أن أراه فارغًا ليس في شيء من عمل الدنيا ولا عمل الآخرة، ومن لم تأمره الصلاة بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزدد بها من الله إلا بعدًا .

٤٩١- من اليقين أن لا تُرضي الناس بسخط الله، ولا (تحسد)[1] أحدًا على رزق الله، ولا تلوم أحدًا على ما لم يؤتك الله، فإن رزق الله لا يسوقه حرص حريص ولا يرده كراهة كاره، وإن الله بقسطه وحلمه وعدله جعل الروح والفرح فى اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط .

٤٩٢- ما دمت في صلاة فأنت تقرع باب الملِك، ومن يقرع باب الملِك يفُتح له.

٤٩٣- إني لأحسب الرجل ينسى العلم كان يعلمه بالخطيئة يعملها .

٤٩٤- كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدى، أحلاس البيوت، وسرج الليل، جُدُدَ القلوب، خلقان الثياب، تعرفون في السماء وتخفون على أهل الأرض .

٤٩٥- إن للقلوب شهوة وإدبارًا، فاغتنموها عند شهوتها وإقبالها، ودعوها عند فترتها وإدبارها .

---

(١) فى الأصل (تحمد) وهو واضح التحريف والخطأ، لأنه يرده الحديث المرفوع : لا يشكر الله من لا يشكر الناس أو ما معناه، والله أعلم .

٤٩٦- ليس العلم بكثرة الرواية، ولكن العلم الخشية .

٤٩٧- إنكم ترون الكافر من أصح الناس جسمًا وأمرضه قلبًا، وتلقون المؤمن من أصح الناس قلبًا وأمرضه جسمًا، وأيم الله لو مرضت قلوبكم وصحت أجسامكم لكنتم أهون على الله من الجعلان .

٤٩٨- لا يبلغ العبد حقيق الإيمان حتى يحل بذروته، ولا يحل بذروته حتى يكون الفقر أحب إليه من الغنى، والتواضع أحب إليه من الشرف، وحتى يكون حامده وذامه عنده سواء، وإن الرجل ليخرج من بيته ومعه دينه فيرجع وما معه من شيء، يأتي الرجل ولا يملك له ولا لنفسه ضرًا ولا نفعًا، فيقسم له بالله إنك لذيت وذيت[1]، فيرجع وما حبى من حاجته بشيء، ويُسخطُ الله عليه .

٤٩٩ - لو سَخِرْتُ من كلب لخشيت أن أحول كلبًا .

٥٠٠ - الإثم حواز القلوب .

٥٠١ - ما كان من نظرة فإن للشيطان فيها مطمعًا .

٥٠٢ - مع كل فرحة ترحة ، وما مُلِيء بيت حبرة إلا مُلِئ عبرة[2]، وما منكم إلا ضيف وماله عارية ، فالضيف مرتحل والعارية مؤداة إلى أهلها.

٥٠٣- يكون في آخر الزمان أقوام أفضل أعمالهم التلاوم بينهم، يسمون الأنتان.

٥٠٤- إذا أحب الرجل أن ينصف من نفسه فليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه .

٥٠٥- الحق ثقيل مريء، والباطل خفيف وبيء .

٥٠٦- رب شهوة تورث حزنًا طويلا .

---

(١) ذيت وذيت : كناية عن عبارات المدح، أي بما ليس فيه .وهو بمعنى المداهنة خاصة وإن كانت لغير تقي .

(٢) الترح : الحزن، والحبرة : السرور والنعمة، والعَبْرَة : الدمعة ومنها : العَبَرَات، والعِبْرَة: العظة والاعتبار والمعنى واضح في ذم الدنيا .

٥٠٧- ما على وجه الأرض شيءٌ أحوج إلى طول سجن من لسان .

٥٠٨- إذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن بهلاكها .

٥٠٩- من استطاع منكم أن يجعل كَنْـزَهُ في السماء حيث لا يأكله السوس، ولا يناله السراق فليفعل، فإن قلب الرجل مع كنزه .

٥١٠ - لا يقلدن أحدكم دينه رجلا ، فإن آمـــن آمن وإن كفر كفر ، وإن كنـتم لا بـد مقتـدين فاقتـدوا بالميـت ، فإن الحـي لا تؤمن علـيه الفتنة .

٥١١ - لا يكن أحدكم إمعة، قالوا : وما الإمَّعة ؟ قال : يقول أنا مع الناس ، إن اهتدوا اهتـديت وإن ضلوا ضللت ، ألا ليـوطن أحدكم نفسه علـى أنه إن كفر الناس لا يكفر .

٥١٢ - وقال له رجـل : علمنـي كلمات جوامـع نوافع ، فقـال : اعبد الله لا تشـرك به شيـئًا ، وزل مع القرآن حيـث زال ، ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيدًا بغيضًا ، ومن جاءك بالباطل فاردد عليه وإن كان حبيبًا قريبًا .

٥١٣ - يؤتى بالعبد يوم القيامة فيـقال له : أدِّ أمانتك . فيقول : يارب من أين وقد ذهبت الدنـيا، فتمثل على هـيئتها يوم أخذها فـي قعر جهنم، فينـزل فيأخذها فيضعها على عـاتقه فيصعد بها، حتى إذا ظن أنه خارج بـها هوت وهوى في أثرها أبد الآبدين .

٥١٤- اطلب قلبك في ثلاثة مواطن : عنـد سماع القرآن، وفي مجالس الذكر، وفي أوقات الخلـوة . فإن لم تجده في هذه المواطـن فسل الله أن يمن عليـك بقلب فإنه لا قلب لك .

وانظر الفقرات رقم : (٣٥٩-٤٤٨-٥٣٧) .

الفصل الخامس
الأخوة في الله وحرمة المسلم

١/ ٥١٥ - الاجتماع بالإخوان قسمان :

أحدهما : اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت، فهذا مضرته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب ويضيع الوقت .

الثاني : الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر، فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها، ولكن فيه ثلاث آفات :

أ- تزين بعضهم لبعض .

ب- الكلام والخلطة أكثر من الحاجة .

ج- أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود.

وبالجملة: فالاجتماع والخلطة لقاح إما للنفس الأمارة، وإما للقلب والنفس المطمئنة والنتيجة مستفادة من اللقاح، فمن طاب لقاحه طابت ثمرته، وهكذا الأرواح الطيبة لقاحها من المَلكِ، والخبيثة لقاحها من الشيطان، وقد جعل الله سبحانه بحكمته الطيبات للطيبين والطيبين للطيبات، وعكس ذلك .

٢/ ٥١٦ - المواساة للمؤمنين أنواع :

مواساة بالمال، ومواساة بالجاه، ومواساة بالبدن والخدمة، ومواساة بالنصيحة والإرشاد، ومواساة بالدعاء والاستغفار لهم، ومواساة بالتوجع لهم .

وعلى قدر الإيمان تكون هذه المواساة، فكلما ضعف الإيمان ضعفت المواساة، وكلما قوى قويت، وكان رسول الله ﷺ أعظم الناس مواساة لأصحابه بذلك كله، فلأتباعه من المواساة بحسب اتباعهم له .

٣/ ٥١٧- ودخلوا علـى بشر الحافي في يومٍ شـديد البرد وقد تجرد وهو يـنتفض فقالوا : ما هذا يا أبا نصر ؟!

فقال : ذكرت الفقـراء وبردهم وليس لي ما أواسيهم، فأحبـبت أن أواسيهم في بردهم .

وانظر الفوائد رقم :

(٣٥٦-٣٥٧-٤٨٤-٥٠٣) .



الفصل السادس
فقه الدعوة

١/٥١٨ - الرب تعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين:
أحدهما : النظر في مفعولاته، والثاني : التفكر في آياته وتدبرها .
فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة والمعقولة .

فالنوع الأول : كقوله سبحانه : ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ . . . إلى آخر الآية «البقرة : ١٦٤» . وقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِى الأَلْبَابِ﴾ «آل عمران : ١٩٠» . . .وهو كثير فى القرآن .

والثانى : كقوله سبحانه : ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ «النساء : ٨٢» .

وقوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ « المؤمنون : ٦٨»، قوله ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ «ص: ٢٩» . .وهو كثير أيضًا.

فأما المفعولات فإنها دالة على الأفعال، والأفعال دالة على الصفات .

فإن المفعول يدل على فاعل فعله، وذلك يستلزم وجوده وقدرته ومشيئته وعلمه لا ستحالة صدور الفعل الاختيارى من معدوم أو موجود لا قدرة له ولا حياة ولا علم ولا إرادة .

ثم ما في المفعولات من التخصيصات المتنوعة دال على إرادة الفاعل، وإن فعله ليس بالطبع بحيث يكون واحداً غير متكرر، وما فيها من المصالح والحكم والغايات المحمودة دال على حكمته تعالى، وما فيها من النفع والإحسان والخير دال على رحمته، وما فيها من البطش والانتقام والعقوبة دالٌ على غضبه، وما فيها من

الإكرام والتقريب والعناية دالٌ على محبته، وما فيها من الإهانة والإبعاد والخذلان دالٌ على بغضه ومقته، وما فيها من ابتداء الشيء في غاية النقص والضعف ثم سوقه إلى تمامه ونهايته دالٌ على وقوع المعاد، وما فيها من أحوال النبات والحيوان وتصرف المياه دليل على إمكان المعاد، وما فيها من ظهور آثار الرحمة والنعمة على خلقه دليل على صحة النبوات، وما فيها من الكمالات التي لو عد منها كانت ناقصة دليل على أن معطي تلك الكمالات أحق بها، فمفعولاته من أدل شيء على صفاته وصدق ما أخبرت به رسله عنه، فالمصنوعات شاهدة تُصدِّق الآيات المسموعة، منبهة على الاستدلال بالآيات المصنوعات .

٥١٩ - قال تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ «فصلت : ٥٣» .أي أن القرآن حق فأخبر أنه لابد أن يريهم من آياته المشهودة ما يبين لهم أن آياته المتلوة حق، ثم أخبر بكفاية شهادته على صحة خبره بما أقام من الدلائل والبراهين على صدق رسوله، فآياته شاهدة بصدقه، وهو شاهد بصدق رسوله بآياته، فهو الشاهد والمشهود له، وهو الدليل والمدلول عليه، فهو الدليل بنفسه على نفسه، كما قال بعض العارفين :

كيف أطلب الدليل على من هو دليل لى على كل شىء ؟! فأى دليل طلبته عليه فوجوده أظهر منه؛ ولهذا قال الرسل لقومهم : ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ؟!﴾ «إبراهيم : ١٠» . فهو أعرف من كل معروف، وأبين من كل دليل، فالأشياء عُرفت به في الحقيقة، وإن كان عرف بها في النظر والاستدلال بأفعاله وأحكامه عليه .

٢/ ٥٢٠ - الوصول إلى المطلوب موقوف على هجر العوائد وقطع العوائق .

فالعوائد : السكون إلى الدعة والراحة وما ألفه الناس واعتادوه من الرسوم والأوضاع التي جعلوها بمنزلة الشرع المتبع، بل هي عندهم أعظم من الشرع، فإنهم ينكرون على من خرج عنها وخالفها ما لا ينكرون على من خالف صريح الشرع، وربَّما كفَّروه أو بدَّعوه وضللوه، أو هجروه وعاقبوه لمخالفة تلك الرسوم، وأماتوا لها السنن ونصبوها أنداداً للرسول يوالون عليها ويعادون، فالمعروف عندهم ما وافقها، والمنكر ما خالفها .

وهذه الأوضاع والرسوم قد استولت على طوائف بنى آدم من الملوك والولاة والفقهاء والصوفية والفقراء والمطوعين والعامة، فربِّي فيها الصغير ونشأ عليها الكبير، واتخذت سننًا هي أعظم عند أصحابها من السنن، الواقف معها محبوس، والمتقيد بها منقطع، عم بها المصاب، وهُجِرَ لأجلها السنة والكتاب، من استنصر بها فهو عند الله مخذول، ومن اقتدى بها دون كتاب الله وسنة رسوله فهو عند الله غير مقبول، وهذه أعظم الحجب والموانع بين العبد وبين النفوذ إلى الله ورسوله ﷺ .

٥٢١ - وأما العوائق : فهي أنواع المخالفات، ظاهرها وباطنها، فإنها تعوق القلب عن سيره إلى الله، وتقطع عليه طريقه، وهي ثلاثة أمور :

شرك. وبدعة. ومعصية.

فيزول عائق الشرك بتجريد التوحيد، وعائق البدعة بتحقيق السنة، وعائق المعصية بتصحيح التوبة.

وهذه العوائق لا تتبين للعبد حتى يأخذ فى أهبة السفر ويتحقق بالسير إلى الله والدار الآخرة، فحينئذ تظهر له هذه العوائق و(يحس) بتعويقها له بحسب قوة سيره وتجرده للسفر، وإلا فما دام قاعدًا لا يظهر له كوامنها وقواطعها .

٥٢٢ - وأما العلائق : فهي كل ما تعلق به القلب دون الله ورسوله ﷺ ، من ملاذ الدنيا وشهواتها ورياستها وصحبة الناس، والتعلق بهم، ولا سبيل له إلى قطع الأمور الثلاثة ورفضها إلا بقوة التعليق بالمطلب الأعلى، وإلا فقطعها عليه بدون تعلقه بمطلوب ممتنع، فإن النفس لا تترك مألوفها ومحبوبها إلا لمحبوب هو أحب إليها منه وآثر عندها منه .

وكلما قوي تعلقه بمطلوبه ضعف تعلقه بغيره، وكذا بالعكس، والتعلق بالمطلوب هو شدة الرغبة فيه، وذلك على قدر معرفته به وشرفه على ما سواه .

٣/ ٥٢٣ - الجهال بالله وأسمائه وصفاته، المعطلون لحقائقها، يُبَغِّضُون الله إلى خلقه، ويقطعون عليهم طريق محبته والتودد إليه بطاعته من حيث لا يعلمون، ونحن نذكر من ذلك أمثلة تحتذى عليها :

فمنها : أنهم يقررون في نفوس الضعفاء أن الله سبحانه لا تنفع معه طاعة، وإن طال زمانها وبلغ العبد وأتى بها بظاهره وباطنه، وأن العبد ليس على ثقة ولا أمن من مكره، وإن طال شأنه سبحانه أن يأخذ المطيع المتقى من المحراب إلى الماخور، ومن التوحيد والمسبحة إلى الشرك والمزمار، ويقلب قلبه من الإيمان الخالص إلى الكفر ،ويروون فى ذلك آثاراً صحيحة لم يفهموها، وباطلة لم يقلها المعصوم (ﷺ)، ويزعمون أن هذا حقيقة التوحيد، ويتلون على ذلك قوله تعالى : ﴿**لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ**﴾ «الأنبياء : ٢٣»، وقوله تعالى : ﴿**أَفَأَمِنُوا مَكْرَ الله فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ الله إلا الْقَوْمُ الخَاسِرُونَ**﴾ «الأعراف : ٩٩»، وقوله سبحانه : ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ**﴾ «الأنفال : ٢٤» .

ويقيمون إبليس حجة لهم على هذه المعرفة وأنه كان طاووس الملائكة، وأنه لم يترك في السماء رقعة، ولا في الأرض بقعة إلا وله فيها سجدة أو ركعة، لكن جنى عليه جاني القدر، وسَطا عليه الحكم، فقلب عينه الطيبة وجعلها أخبث شيء حتى قال بعض عارفيهم : إنك ينبغي أن تخاف الله كما تخاف الأسد الذى يثب عليك بغير جُرم منك ولا ذنب آتيته إليه، ويحتجون بقول النبى (ﷺ) : «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»[1]. ويروون عن بعض السلف : أكبر الكبائر الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله .

٥٢٤ - وذكر الإمام أحمد بن حنبل عن عون بن عبد الله - أو غيره - أنه سمع رجلاً يقول : «اللهم لا تؤمني مكرك» فأنكر ذلك وقال : قل اللهم لا تجعلني ممن يأمن مكرك.

وبنوا هذا على أصلهم الباطل ، وهو : إنكار الحكمة والتعليل والأسباب ، وأن الله لا يفعل لحكمة ولا بسبب ، وإنما يفعل بمشيئة مجردة من الحكمة والتعليل

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨، ٦٥٩٤)، ومسلم في (القدر/ ح١)، وفي (السنة/ باب ١٦)، والإمام أحمد (١/ ٣٨٢-٤٣٠) وغيرهم ، وقد تقدم .

والسبب ، فلا يفعل لشيء ولا بشيء ، وإنه يـجوز عليه أن يعذب أهل طاعته أشد العذاب ، وينعـم أعداءه وأهل معصيته بجـزيل الثواب ، وأن الأمرين بالنـسبة إليه سواء ، ولا يعلـم امتناع ذلك إلا بخبـر من الصادق أنه لا يفـعله ، فحينئـذ يعلم امتناعه لوقوع الخـبر بأنه لا يكون ، لا لأنه في نفسه باطل وظـلم ، فإن الظلم في نفسه مستحيل فإنه غير ممكن ، بل هـو بمنزلة جعل الجسم الواحد في مكانين في آن واحد، والجمع بين الليل والنهار فى سـاعة واحدة، وجعل الشيء موجودًا ومعدومًا معًا في آن واحد .

فهذا حقيقة الظلم عندهم، فإذا رجع العامل إلى نفسه قال : مَن لا يستقر له أمر ولا يؤمن له مكر، كيف يوثق بالتقرب إليه؟! وكيف يعوّل على طاعته واتباع أوامره وليس لـنا سوى هذه المدة الـيسيرة ؟! فإذا هجـرنا فيها الـلذات، وتركنا الـشهوات وتكلفـنا أثقال العبادات، وكنـا مع ذلك على غير ثقـة منه أن يقلب علينـا الإيمان كفراً، والتوحيد شركًا، والطاعة معصية، والـبر فجوراً، ويديم علينا العقوبات، كنا خاسرين في الدنيا والآخرة .

فإذا استحكـم هذا الاعتقاد في قلوبـهم، وتخمر في نفوسـهم، صاروا إذا أُمِروا بالطـاعات وهجر الـلذات، بمنزلـة إنسان جعل يـقول لولده : مـعلمك إن كـتبت وأحسنـت وتأدبت ولم تعصـه، ربما أقام لك حجة وعـاقبك، وإن كسلت وبـطلت وتعطلت وتركت ما أمرك به ربما قربك وأكرمـك، فيودع بهذا القول قلب الصبى ما لا يثق بـعده إلى وعيـد المعلم عـلى الإساءة، ولا وعده عـلى الإحسان، وإن كـبر الصبى، وصَلُحَ للـمعاملات والمناصب قال له : هذا سلطان بلـدنا يأخذ اللص من الحبس، فيجعله وزيراً أميراً، ويأخذ الكيس المحسن لشغله فيخلده فى الحبس ويقتله ويصلبه .

فإذا قال له ذلك أوحشه مـن سلطانه، وجعله على غير ثـقة من وعده ووعيده، وأزال محبته من قلبـه وجعله يخاف الظالم الذى يأخذ المحسن بـالعقوبة ، والبرىء بالعذاب ، فأفلس هـذا المسكين من اعتقاد كون الأعمال نافـعة أو ضارة، فلا بفعل الخير يستأنس، ولا بفعل الشر يستوحش.

وهل فى التنفير عن الله وتبغيضه إلى عباده أكثر من هذا ؟!

ولو اجتهد الملاحدة على تبغيض الدين والتنفير عن الله لما أتوا بأكثر من هذا.

وصاحب هذه الطريقة يظن أنه يقرر التوحيد والقدر، ويرد على أصل البدع ، وينصر الدين ، ولعمر الله ؛ العدو العاقل أقل ضررًا من الصديق الجاهل ، وكُتب الله المنزلة كلها ورسله كلهم شاهدة بضد ذلك ولا سيما القرآن.

فلو سلك الدعاة المسلك الذى دعا الله ورسوله ﷺ به الناس إليه لصلح العالم صلاحًا لا فساد معه.

٥٢٥ - فالله سبحانه أخبر - وهو الصادق الوفى - أنه إنّما يعامل الناس بكسبهم ويجازيهم بأعمالهم ، ولا يخاف المحسن لديه ظلمًا ولا هضمًا، ولا يخاف بخسًا ولا رهقًا، ولا يضيع عمل محسن أبدًا ، ولا يضيع على العبد مثقال ذرة ولا يظلمها : ﴿**وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ «النساء: ٤٠» وإن كان مثقال حبة من خردل جازاه بها ولا يضيعها عليه ، وأنه يجزى بالسيئة مثلها ويحبطها بالتوبة والندم والاستغفار والحسنات والمصائب، ويجزى بالحسنة عشر أمثالها ، ويضاعفها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وهو (سبحانه) الذى أصلح الفاسدين ، وأقبل بقلوب المعرضين ، وتاب على المذنبين ، وهدى الضالين ، وأنقذ الهالكين، وعلّم الجاهلين ، وبصّر المتحيرين وذكّر الغافلين ، وآوى الشاردين ، وإذا أوقع عقابًا أوقعه بعد شدة التمرد والعتو عليه ، ودعوة العبد إلى الرجوع إليه والإقرار بربوبيته وحقه مرة بعد مرة، حتى إذا أيس من استجابته والإقرار بربوبيته ووحدانيته ، أخذه ببعض كفره وعتوه وتمرده بحيث يعذر العبد من نفسه ويعترف بأنه سبحانه لم يظلمه ، وأنه هو الظالم لنفسه كما قال تعالى عن أهل النار : ﴿**فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ «الملك: ١١». وقال تعالى عمن أهلكهم فى الدنيا أنهم لما رأوا آياته، وأحسوا بعذابه قالوا: ﴿**يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ**

حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ «الأنبياء: ١٤ ، ١٥»، وقال أصحاب الجنة[١] التى أفسدها (سبحانه) عليهم لما روأها : ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ «القلم : ٢٩». قال الحسن : لقد دخلوا النار وإن حمده لفى قلوبهم ما وجدوا عليه حجة ولا سبيلا ، ولهذا قال تعالى : ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ «الأنعام : ٤٥». فهذه الجملة فى موضع الحال، أى قطع دابرهم حال كونه سبحانه محمودًا على ذلك فقطع دابرهم قطعًا مصاحبًا لحمده ، فهو قطع وإهلاك يُحمد عليه الرب تعالى لكمال حكمته وعدله ، ووضعه العقوبة فى موضعها الذى لا يليق به غيرها، فوضعها فى الوضع الذى يقول من علم الحال: لا تليق العقوبة إلا بهذا المحل ، ولا يليق به إلا العقوبة، ولهذا قال عقيب إخباره عن الحكم بين عباده ومصير أهل السعادة إلى الجنة، وأهل الشقاء إلى النار: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ «الزمر : ٧٥». فحذف فاعل القول إشعارًا بالعموم وأن الكون كله قال: «الحمد لله رب العالمين»، لما شاهدوا من حكمة الحق وعدله وفضله، ولهذا قال فى حق أهل النار: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ «الزمر : ٧٢» كأن الكون كله يقول ذلك حتى تقوله أعضاؤهم وأرواحهم وأرضهم وسماؤهم ، وهو سبحانه يخبر أنه إذا أهلك أعداءه أنجى أولياءه ولا يعمهم بالهلاك بمحض المشيئة.

ولما سأله نوح نجاة ابنه أخبر أنه يغرقه بسوء عمله وكفره ، ولم يقل إنى أغرقه بمحض مشيئتى وإرادتى بلا سبب ولا ذنب.

٥٢٦ - وقد ضمن سبحانه زيادة الهداية للمجاهدين فى سبيله ، ولم يخبر أنه يضلهم ويبطل سعيهم. وكذلك ضمن زيادة الهداية للمتقين الذين يتبعون رضوانه ، وأخبر أنه لا يضل إلا الفاسقين الذين ينقضون عهده من بعد ميثاقه ، وأنه إنما يضل من آثر الضلال واختاره على الهُدى، فيطبع حينئذ على سمعه وقلبه ، وأنه يقلب قلب من لم يرض بهداه إذا جاءه ، ولم يؤمن به ودفعه ورده ، فيقلب فؤاده وبصره

(١) الجنة : البستان ، والعرب تسمي النخيل جنة - (المختار).

عقوبة له على رده ودفعه لما تحققه وعرفه ، وأنه سبحانه لو علم فى تلك المحال التى حكم عليها بالضلال والشقاء خيراً لأفهمها وهداها ، ولكنها لا تصلح لنعمته ولا تليق بها كرامته ، وقد أزاح سبحانه العلل وأقام الحجج ومكن من أسباب الهداية لا يضل إلا الفاسقين والظالمين ، ولا يطبع إلا على قلوب المعتدين ولا يركس فى الفتنة إلا المنافقين بكسبهم ، وأن الرين الذى غطى به قلوب الكفار هو عين كسبهم وأعمالهم ، كما قال : ﴿**كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ «المطففين : ١٤». وقال عن أعدائه من اليهود : ﴿**وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ**﴾ «النساء : ١٥٥»، وأخبر أنه لا يضل من هداه حتى يبين له ما يتقى ، فيختار لشقوته وسوء طبيعته الضلال على الهدى ، والغى على الرشاد ويكون مع نفسه وشيطانه وعدو ربه عليه.

٥٢٧ - وأمّا المكر الذى وصف به نفسه فهو مجازاته للماكرين بأوليائه ورسله، فيقابل مكرهم السيئ بمكْرِه الحسن ، فيكون المكر منهم أقبح شيء ومنه أحسن شيء لأنه عدلٌ ومجازاةٌ ، وكذلك المخادعة منه جزاء على مخادعة رسله وأوليائه، فلا أحسن من تلك المخادعة والمكر.

٥٢٨ - وأما كون الرجل يعمل بعمل أهل الجنة ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب ، فإن هذا عمل أهل الجنة فيما يظهر للناس، ولو كان عملاً صالحًا مقبولاً للجنة قد أحبه الله ورضيه لم يبطله عليه، وقوله: «لم يبق بينه وبينها إلا ذراع»[1] ، يُشكل على هذا التأويل!!.

فيقال: لمّا كان العمل بآخره وخاتمته لم يصبر هذا العامل على عمله حتى يتم له

---

(١) تقدم تخريجه مراراً ،وتأويل المصنف هنا يلاءم الحديث «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار» .

قال الحافظ ابن حجر : هو محمول على المنافق والمرائي بخلاف حديث الباب فإنه يتعلق بسوء الخاتمة. أ هـ (فتح الباري : ١١/ ٤٩٥) وانظر كتاب «الأحاديث الكلية» لابن الصلاح ، وتعليقنا عليه (حديث رقم / ٤) طبعة مكتبة التابعين بالقاهرة ، والصحابة بجدة.

بل كان فيه آفة كامنة ، ونكتة خُذِل بها فـى آخر عمره ، فخانته تلك الآفة والداهية الباطنة فى وقت الحاجـة ، فرجع إلى موجبها وعملت عملهـا ، ولو لم يكن هناك غش وآفة لم يقلب الله إيـمانه ، لقد أورده مع صدقه فيه وإخلاصه بـغير سبب منه يقتضى إفساده عليه، والله يعلم من سائر العباد ما لا يعلمه بعضهم من بعض.

وأما شأن إبليس : فإن الله سبحـانه قال للملائكة : ﴿إِنِّى أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ «البقرة: ٣٠». فالرب تعالى كان يعلم ما فى قـلب إبليس من الكفر والكبر والحسد مالا يعلمه المـلائكة ، فلما أمروا بالسجـود ظهر ما فى قلوبهم من الـطاعة والمحبة والخشية والانقياد فـبادروا إلى الامتثال، وظهر ما فى قلب عـدوه من الكبر والغش والحسد ، فأبى واستكبر وكان من الكافرين.

٥٢٩ - وأما خوف أوليائه من مـكره فحق، فإنهم يخافون أن يخذلـهم بذنوبهم وخطاياهم فيصيرون إلى الشقاء، فخوفهم من ذنوبهم ورجاؤهم لرحمته.

وقوله : ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ﴾ «الإعراف : ٩٩» إنما هو فى حق الـفجار والكفار ، ومعنى الآية : فلا يعصى ويأمن مقابلة الله لـه على مكر السيئات بمكره به إلا القوم الخاسرون ، والذى يـخافه العارفون بالله مـن مكره أن يؤخر عنهـم عذاب الأفعال فيحصل منهم نوع اغترار فيأنسوا بالذنوب فيجيئهم العذاب على غرة وفترة.

وأمر آخر : وهو أن يغفلـوا عنه وينسوا ذكره فيتخلى عنـهم إذا تخلوا عن ذكره وطاعته ، فيسرع إليهم البلاء والفتنة فيكون مكره بهم تخليه عنهم.

وأمر آخر : أن يعلم من ذنوبـهم وعيوبهم ما لا يعلمونه من أنفـسهم ، فيأتيهم المكر من حيث لا يشعرون.

وأمر آخر : أن يمتحنهم ويبتليهم بما لا صبر لهم عليه ، فيفتنون به وذلك مكر.

٤/ ٥٣٠ - طالب الـنفوذ إلى الله والـدار الآخرة ، بل وإلى كـل علم وصنـاعة ورئاسة بحيث يكون رأسًا فى ذلك، مقتدى به فيه ، يحتاج أن يكون شجاعًا مقدامًا حاكمًا على وهمه غير مقهور تحت سلطان تخيله ، زاهدًا فى كل ما سوى مطلوبه، عاشقـًا لما توجه إليـه، عارفًا بطريق الـوصول إليه والطـرق القواطع عنـه ، مقدام

الهمة، ثابت الجأش ، لا يثنيه عن مطلوبه لوم لائم ، ولا عذل عاذل ، كثير السكون ، دائم الفكر، غير مائل مع لذة المدح ولا ألم الذم ، قائمًا بما يحتاج إليه من أسباب معونته لا تستفزه المعارضات ، شعاره الصبر وراحته التعب، مُحبًا لمكارم الأخلاق، حافظًا لوقته ، لا يخالط الناس إلا على حذر كالطائر الذى يلتقط الحَب بينهم ، قائمًا على نفسه بالرغبة والرهبة، طامعًا فى نتائج الاختصاص على بنى جنسه ، غير مرسل شيئًا من حواسه عبثًا، ولا مسرحًا خواطره فى مراتب الكون.

وملاك ذلك : هجر العوائد ، وقطع العلائق الحائلة بينك وبين المطلوب .

وعند العوام أن لزوم الأدب مع الحجاب ، خير من إطراح الأدب مع الكشف.

٥/٥٣١ - أنفع الناس لك : رجل مكنك من نفسه حتى تزرع فيه خيرًا أو تصنع إليه معروفًا فإنه نعم العون لك على منفعتك وكمالك ، فانتفاعك به فى الحقيقة مثل انتفاعه بك أو أكثر، وأضر الناس عليك من مكن نفسه منك حتى تعصى الله فيه فإنه عون لك على مضرتك ونقصك.

٦/٥٣٢- لله على العبد فى كل عضو من أعضائه أمر ، وله عليه فيه نهى، وله فيه نعمة وله به منفعة ولذة ، فإن قام لله فى ذلك العضو بأمره واجتنب فيه نهيه فقد أدى شكر نعمته عليه فيه ، وسعى فى تكميل انتفاعه ولذته به، وإن عطل أمر الله ونهيه فيه عطله الله من انتفاعه بذلك العضو وجعله من أكبر أسباب ألمه ومضرته.

وله عليه فى كل وقت من أوقاته عبودية تقدمه إليه وتقربه منه ، فإن شغل وقته بعبودية الوقت تقدم إلى ربه، وإن شغله بهوى أو راحة وبطالة تأخر.

فالعبد لا يزال فى تقدم أو تأخر؛ ولا وقوف فى الطريق البتة ، قال تعالى : ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ «المدثر : ٣٧».

٧/٥٣٣ - الناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين ، وليس لهم حط عن رحالهم إلا فى الجنة أو النار ، والعاقل يعلم أن السفر مبنى على المشقة وركوب الأخطار ، ومن المحال عادة يُطلب فيه نعيم ولذة وراحة ، إنما ذلك بعد انتهاء السفر ، ومن

المعلوم أن كل وطأة قدم أو كل آن من آنات السفر غير واقفة ، ولا المكلف واقف ، وقد ثبت أنه مسافر على الحال التى يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصل وإذا نزل أو نام أو استراح فعلى قدم الاستعداد للسير.

٨/ ٥٣٤ - عند العارفين أن الاشتغال بالمشاهدة عن البر فى السير فى السر وقوف؛ لأنه فى زمن المشاهدة لو كان صاحب عمل ظاهر أو باطن أو ازدياد من معرفة وإيمان مفصل كان أولى به ، فإن اللطيفة الإنسانية تُحشر على صورة عملها ومعرفتها وهمتها وإرادتها ، والبدن يحشر على صورة عمله الحسن أو القبيح ، وإذا انتقلت من هذه الدار شاهدت حقيقة ذلك، وعلى قدر قرب قلبك من الله تبعد من الأُنس بالناس ومساكنتهم ، وعلى قدر صيانتك لسرك وإرادتك يكون حفظه ، وملاك ذلك صحة التوحيد، ثم صحة العلم بالطريق، ثم صحة الإرادة، ثم صحة العمل، والحذر كل الحذر من قصد الناس لك وإقبالهم عليك وأن يعثروا على موضع غرضك ، فإنها الآفة العظمى.

٩/ ٥٣٥ - العارف لا يأمر الناس بترك الدنيا ، فإنهم لا يقدرون على تركها ؛ ولكن يأمرهم بترك الذنوب مع إقامتهم على دنياهم، فترك الدنيا فضيلة وترك الذنوب فريضة ، فكيف يؤمر بالفضيلة من لم يقم الفريضة؟!

فإن صعب عليهم ترك الذنوب ، فاجتهد أن تحبب الله إليهم بذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وصفات كماله ، ونعوت جلاله ، فإن القلوب مفطورة على محبته فإذا تعلقت بحبه هان عليها ترك الذنوب والإصرار عليها والاستقلال منها.

وقد قال يحيى بن معاذ : «طلب العاقل للدنيا خير من ترك الجاهل لها».

العارف يدعو الناس إلى الله من دنياهم فتسهل عليهم الإجابة، والزاهد يدعوهم إلى الله بترك الدنيا فتشق عليهم الإجابة ، فإن الفطام عن الثدى الذى ما عقل الإنسان نفسه إلا وهو يرتضع منه شديد ، ولكن تخير من المرضعات أزكاهن وأفضلهن ، فإن للَّبن تأثيراً فى طبيعة المرتضع ، ورضاع المرأة الحمقى يعود بحمق الولد ، وأنفع الرضاعة ما كان من المجاعة، فإن قويت على مرارة الفطام وإلا

فارتضع بقدر ، فإن من البشم[١] ما يقتل.

وانظر الفقرات والفوائد رقم :

(٣٣٦ - ٣٧٨ - ٣٩٢ - ٤٤١ - ٤٩٤ - ٥٣٧ - ٥٤٥ - ٥٥١).



(١) بشم من الطعام بشمًا: أكثر من الطعام حتى أتخم وسئمه فهو بَشِمٌ (الوجيز) وانظر «الباب الخامس» من كتاب «الطب الروحانى» للإمام ابن الجوزى بتحقيقنا، باب : «فى دفع الشره».

الفصل السابع
أسبـــاب الهداية

١/ ٥٣٦ - قال الله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ «الأنعام : ٥٥»، وقال : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾ «النساء : ١١٥».

والله تعالى قد بين فى كتابه سبيل المؤمنين مفصلة ، وسبيل المجرمين مفصلة ، وعاقبة هؤلاء مفصلة ، وعاقبة هؤلاء مفصلة ، وأعمال هؤلاء وأعمال هؤلاء، وأولياء هؤلاء وأولياء هؤلاء، وخذلانه لهؤلاء، وتوفيقه لهؤلاء، والأسباب التى وفق بها هؤلاء ، والأسباب التى خذل بها هؤلاء، وجلا سبحانه الأمرين فى كتابه وكشفهما وأوضحهما، وبينهما غاية البيان، حتى شاهدتهما البصائر كمشاهدة الأبصار للضياء والظلام.

٥٣٧ - فالعالمون بالله وكتابه ودينه ، عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية ، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية ، فاستبانت لهم السبيلان ، كما يستبين للسالك الطريق الموصل إلى مقصوده ، والطريق الموصل إلى الهلكة.

فهؤلاء أعلم الخلق ، وأنفعهم للناس ، وأنصحهم لهم ، وهم الأدلاء الهداة وبذلك برز الصحابة على جميع من أتى بعدهم إلى يوم القيامة ، فإنهم نشئوا فى سبيل الضلال والكفر والشرك والسبل الموصلة إلى الهلاك، وعرفوها مفصلة ، ثم جاءهم الرسول فأخرجهم من تلك الظلمات إلى سبيل الهدى وصراط الله المستقيم، فخرجوا من الظلمة الشديدة إلى النور التام ، ومن الشرك إلى التوحيد ، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغى إلى الرشاد ، ومن الظلم إلى العدل ، ومن الحيرة والعمى إلى الهدى والبصائر ، فعرفوا مقدار ما نالوه وظفروا به ، ومقدار ما كانوا

فيه ، فإن الضد يظهر حسنه الضد ، وإنما تتبين الأشياء بأضدادها، فازدادوا رغبة ومحبة فيما انتقلوا إليه ، ونفرة وبغضًا لما انتقلوا عنه، وكانوا أحب الناس فى التوحيد والإيمان والإسلام ، وأبغض الناس فى ضده عالمين بالسبيل على التفصيل.

وأمّا من جاء بعد الصحابة ، فمنهم من نشأ فى الإسلام غير عالم تفصيل ضده فالتبس عليه بعض تفاصيل سبيل المؤمنين بسبيل المجرمين، فإن اللبس إنما يقع إذا ضعف العلم بالسبيلين ، أو أحدهما كما قال عمر بن الخطاب ﷺ : «إنما تنقض عُرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ فى الإسلام من لم يعرف الجاهلية» .

وهذا من كمال علم عمر ﷺ، فإنه إذا لم يعرف الجاهلية وحكمها - وهو كل ما خالف ما جاء به الرسول ﷺ - فإنه من الجاهلية، فإنها منسوبة إلى الجهل، وكل ما خالف الرسول ﷺ فهو من الجهل.

فمن لم يعرف سبيل المجرمين ، ولم تستبن له ، أوشك أن يظن فى بعض سبيلهم أنها من سبيل المؤمنين ، كما وقع فى هذه الأمة من أمور كثيرة فى باب الاعتقاد والعلم والعمل هى من سبيل المجرمين والكفار وأعداء الرسل ، أدخلها من لم يعرف أنها من سبيلهم فى سبيل المؤمنين ، ودعا إليه وكفّر من خالفها واستحل منه ما حرمه الله ورسوله ، كما وقع لأكثر أهل البدع من الجهمية والقدرية والخوارج والروافض وأشباههم ممن ابتدع بدعة ودعا إليها ، وكفّر من خالفها.

٥٣٨ - والناس فى هذا الموضع أربع فرق :

الفرقة الأولى : من استبان له سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين على التفصيل علمًا وعملاً - وهؤلاء أعلم الخلق.

الفرقة الثانية : من عميت عنه السبيلان من أشباه الأنعام - وهؤلاء بسبيل المجرمين أحضر ولها أسلك.

الفرقة الثالثة : من صرف عنايته إلى معرفة سبيل المؤمنين دون ضدها فهو يعرف ضدها من حيث الجملة والمخالفة ، وأن كل ما خالف سبيل المؤمنين فهو باطل وإن لم يتصوره على التفصيل ، بل إذا سمع شيئًا مما خالف سبيل المؤمنين صرف سمعه

عنه ، ولم يشغل نفسه بفهمه ، ومعرفة وجه بطلانه - وهو بمنزلة من سلمت نفسه من إرادة الشهوات فلم تخطر بقلبه ولم تدعه إليها نفسه ، بخلاف الفرقة الأولى ، فإنهم يعرفونها وتميل إليها نفوسهم ويجاهدونها على تركها لله.

وقد كتبوا إلى عمر بن الخطاب يسألونه عن هذه المسألة أيهما أفضل :

رجل لم تخطر له الشهوات ولم تمر بباله ، أو رجل نازعته إليها نفسه فتركها لله؟.

فكتب عمر : إن الذى تشتهى نفسه المعاصى ويتركها لله عز وجل من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم.

وهكذا من عرف البدع والشرك والباطل وطرقه فأبغضها لله وحذر منها ودفعها عن نفسه ولم يدعها تخدش وجه إيمانه ولا تورثه شبهة ولا شكا، بل يزداد بمعرفتها بصيرة فى الحق ومحبة له ، وكراهة لها ونفرة عنها ، أفضل ممن لا تخطر بباله ولا تمر بقلبه ، فإنه كلما مرت بقلبه وتصورت له ازداد محبة للحق ومعرفة بقدره وسرورًا به ، فيقوى إيمانه به ، كما أن صاحب خواطر الشهوات والمعاصى كلما مرت به فرغب عنها إلى ضدها : ازداد محبة لضدها ورغبة فيه ، وطلبًا له وحرصًا عليه.

٥٣٩ - فما ابتلى الله سبحانه عبده المؤمن بمحبة الشهوات والمعاصى وميل نفسه إليها إلا ليسوقه بها إلى محبة ما هو أفضل منها وخير له وأنفع وأدوم ، وليجاهد نفسه على تركها له سبحانه فتورثه تلك المجاهدة الوصول إلى المحبوب الأعلى.

فكلما نازعته نفسه إلى تلك الشهوات واشتدت إرادته لها وشوقه إليها صرف ذلك الشوق والإرادة والمحبة إلى النوع العالى الدائم ، فكان طلبه له أشد ، وحرصه عليه أتم ، بخلاف النفس الباردة الخالية من ذلك ، فإنها وإن كانت طالبة للأعلى لكن بين الطلبين فرق عظيم ، ألا ترى أن من مشى إلى محبوبه على الجمر والشوك أعظم ممن مشى إليه راكبا على النجائب ، فليس من آثر محبوبه مع منازعة نفسه كمن آثره مع عدم منازعتها إلى غيره ، فهو سبحانه يبتلى عبده بالشهوات إمّا حجابًا له عنه، أو حجابًا له يوصله إلى رضاه وقربه وكرامته.

٥٤٠ - **الفرقة الرابعة :** فرقة عرفت سبيل الشر والبدع والكفر مفصلة، وسبيل المؤمنين مجملة ، وهذا حال كثير ممن اعتنى بمقالات الأمم ومقالات أهل البدع ، فعرفها على التفصيل ، ولم يعرف ما جاء به الرسول ﷺ كذلك ، بل عرفه معرفة مجملة وإن تفصلت له فى بعض الأشياء ، ومن تأمل كتبهم رأى ذلك عيانًا، وكذلك من كان عارفًا بطرق الشر والظلم والفساد على التفصيل سالكًا لها إذا تاب ورجع عنها إلى سبيل الأبرار يكون علمه بها مجملاً غير عارف بها على التفصيل معرفة من أفنى عمره فى تصرفها وسلوكها.

والمقصود: أن الله سبحانه يحب أن تُعرف سبيل أعدائه لِتُجْتَنَب وتُبْغَض، كما يحب أن تعرف سبيل أوليائه لتُحب وتُسلك ، وفى هذه المعرفة من الفوائد والأسرار ما لا يعلمه إلا الله من معرفة عموم ربوبيته سبحانه وحكمته وكمال أسمائه وصفاته وتعلقها بمتعلقاتها واقتفائها لآثارها وموجباتها ، وذلك من أعظم الدلالة على ربوبيته وملكه وإلهيته وحبه وبغضه وثوابه وعقابه ، والله أعلم.

٥٤١/٢ - تكرر فى القرآن جعل الأعمال القائمة بالقلب والجوارح سبب الهداية والإضلال ، فيقوم بالقلب والجوارح أعمال تقتضى الهدى اقتضاء السبب لمسببه ، والمؤثر لأثره.

وكذلك الضلال ، فأعمال البر تثمر الهدى ، وكلما ازداد منها ازداد هدى، وأعمال الفجور بالضد ، وذلك أن الله سبحانه يحب أعمال البر فيجازى عليها بالهدى والفلاح ، ويبغض أعمال الفجور ويجازى عليها بالإضلال والشقاء.

٥٤٢ - وأيضًا فإنه البَر (سبحانه) ويحب أهل البر ، فيقرب قلوبهم منه بحسب ما قاموا به من البر ، ويبغض الفجور وأهله ، فيبعد قلوبهم منه بحسب ما اتصفوا به من الفجور.

٥٤٣ - فمن الأصل الأول[1] قوله تعالى : ﴿ آلم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ «البقرة : ١ ، ٢». وهذا يتضمن أمرين:

---

(١) الأصل الأول : وهو ما تقدم من قول المصنف : إن أعمال البر تُثمِر الهُدى.

أحدهما : أنه يهدى بـه من اتقى مساخطه قبل نزول الكـتاب ، فإن الناس على اختلاف ملـلهم ونحلهم قـد استقر عندهم أن الله سبـحانه يكره الظلـم والفواحش والفـساد فى الأرض ، ويـمقت فـاعل ذلـك ، ويحب الـعدل والإحسـان والجود والصدق والإصلاح فى الأرض، ويحب فاعل ذلك، فلما نزل الكتاب أثاب سبحانه أهل البر بأن وفقهم للإيمان به جزاء لهـم على برهم وطاعتهم، وخذل أهل الفجور والفحش والظلم بأن حال بينهم وبين الاهتداء به.

والثانى : أن الـعبد إذا آمن بالكتـاب واهتدى به مجملاً ، وقَـبِل أوامره وصدَّق بأخباره كان ذلك سببًا لهداية أخرى تحصل لـه على التفصيل ، فإن الهداية لا نهاية لها ، ولو بلغ العبـد فيها ما بلغ ، ففوق هدايته هداية أخـرى، وفوق تلك الهداية هداية أخرى إلى غير غاية.

فكلما اتقى الـعبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى ، فهو فـى مزيد هداية ما دام فى مزيد من التقوى ، وكلما فوَّت حظا من التقوى فاته حظ من الهداية بحسبه، فكلما اتقى زاد هداه ، وكلما اهتدى زادت تقواه قال تعالى:

﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ «المائدة: ١٥- ١٦».

وقال : ﴿اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ «الشورى: ١٣».

وقال : ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى﴾ «الأعـلى: ١٠»، وقـال: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ «غافر : ١٣». وقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ «يونس : ٩».

٥٤٤ – فهداهـم أولاً للإيمان ، فلمـا آمنوا هداهم لـلإيمان هداية بعـد هداية، ونظير هذا قـوله تعالى : ﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ «مريم : ٧٦». وقـوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ «الأنفال: ٢٩».

ومن الفرقان : ما يعطيهم من النور الذى يفرقون به بين الحق والباطل ، والنصر والعز الذى يتمكنون به من إقامة الحق وكسر الباطل، فُسِّر القرآن بهذا وبهذا.

٥٤٥ - وقال تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ «سبأ: ٩».

وقال : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فى سور : لقمان، وإبراهيم، وسبأ، والشورى.

فأخبر عن آياته المشهودة العيانية أنها إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر ، كما أخبر عن آياته الإيمانية القرآنية أنها ينتفع بها أهل التقوى والخشية والإنابة ، ومن كان قصده اتباع رضوانه، وأنها إنما يتذكر بها من يخشاه سبحانه كما قال تعالى: ﴿ طَهَ * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ «طه: ١، ٣»، وقال فى الساعة : ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ «النازعات : ٤٥».

وأمّا من لا يؤمن بها ولا يرجوها ولا يخشاها فلا تنفعه الآيات العيانية ولا القرآنية ، لهذا لـمّا ذكر سبحانه فى سورة هود عقوبات الأمم المكذبين للرسل وما حل بهم فى الدنيا من الخزى ، قال بعد ذلك : ﴿إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة﴾«هود:١٠٣» فأخبر أن فى عقوباته للمكذبين عبرة لمن خاف عذاب الآخرة.

وأمّا من لا يؤمن بها ولا يخاف عذابها فلا يكون ذلك عبرة وآية فى حقه ، وإذا سمع ذلك قال : لم يزل فى الدهر الخير والشر ، والنعيم والبؤس ، والسعادة والشقاوة وربما أحال ذلك على أسباب فلكية وقوى نفسانية.

٥٤٦ - وإنما كان الصبر والشكر سببًا لانتفاع صاحبهما بالآيات ، لأن الإيمان ينبنى على الصبر والشكر ، فنصفه صبر ونصفه شكر ، فعلى حسب صبر العبد وشكره تكون قوة إيمانه ، وآيات الله إنما ينتفع بها من آمن بالله وآياته ، ولا يتم له الإيمان إلا بالصبر والشكر ، فإن رأس الشكر التوحيد ، ورأس الصبر ترك إجابة داعى الهوى ، فإذا كان مشركًا متبعًا هواه ، لم يكن صابرًا ولا شكورًا ، فلا تكون الآيات نافعة له ، ولا مؤثرة فيه إيمانًا.

٥٤٧ - وأما الأصل الثانى[1]: وهو اقتضاء الفجور والكبر والكذب للضلال فكثير أيضًا فى القرآن كقوله تعالى : ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ «البقرة : ٢٦ ، ٢٧».

وقال تعالى : ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ﴾ «إبراهيم : ٢٧». وقال تعالى : ﴿فَمَا لَكُمْ فِى الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ «النساء :٨٨». وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ «البقرة : ٨٨». وقال تعالى : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ «الأنعام : ١١٠».

فأخبر (سبحانه) أنه عاقبهم على تخلفهم عن الإيمان لمَّا جاءهم وعرفوه وأعرضوا عنه ، بأن قَلَّب أفئدتهم وأبصارهم وحال بينهم وبين الإيمان ، كما قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ «الأنفال: ٢٤».

فأمرهم بالاستجابة له ولرسوله حين يدعوهم إلى ما فيه حياتهم ، ثم حذرهم من التخلف والتأخر عن الاستجابة الذى يكون سببًا لأن يحول بينهم وبين قلوبهم.

وقال تعالى : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ «الصف : ٥». وقال تعالى : ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ «المطففين : ١٤».

فأخبر سبحانه أن كسبهم غطى على قلوبهم ، وحال بينها وبين الإيمان بآياته فقالوا: أساطير الأولين .

وقال تعالى فى المنافقين : ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ «التوبة : ٦٧»، فجازاهم على

(١) الأصل الثانى : هو قوله : إن أعمال الفجور تثمر الضلال والشقاء.

نسيانهم له أن نسيهم ، فلم يذكرهم بالهُدى والرحمة، وأخبر أنه أنساهم أنفسهم فلم يطلبوا كمالها بالعلم النافع والعمل الصالح، وهما الهدى ودين الحق ، فأنساهم طلب ذلك ومحبته ومعرفته والحرص عليه عقوبة لنسيانهم له ، وقال تعالى فى حقهم : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ * وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ «محمد : ١٦ ، ١٧».

٥٤٨ - وكما يقرن سبحانه بين الهُدى والتُّقى ، والضلال والغى، فكذلك يقرن بين الهُدى والرحمة ، والضلال والشقاء :

فمن الأول قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى من رَّبِّهِم وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ «البقرة : ٥». وقال : ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ من رَّبِّهِم وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ «البقرة : ١٥٧»، وقال عن المؤمنين : ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا من لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ «آل عمران : ٨».

وقال أهل الكهف : ﴿رَبَّنَا آتِنَا من لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ «الكهف : ١٠». وقال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِى الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ «يوسف : ١١١». وقال : ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ «النحل : ٦٤». وقال : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ «النحل : ٨٩». وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ من رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِى الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ «يونس : ٥٧».

ثم أعاد سبحانه ذكرهما فقال : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ «يونس : ٥٨». وقد تنوعت عبارات السلف فى تفسير الفضل والرحمة ، والصحيح أنهما : الهدى والنعمة ، ففضله : هداه ، ورحمته : نعمته ، ولذلك يقرن بين الهدى والنعمة كقوله فى سورة الفاتحة : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ «الفاتحة: ٦ ، ٧».

ومن ذلك قوله لنبيه (ﷺ) يذكره بنعمه عليه : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ «الضحى: ٦ ، ٧». فجمع له بين هدايته له وإنعامه عليه : بإيوائه وإغنائه.

ومن ذلك قول نوح : ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ «هود : ٢٨»، وقول شعيب : ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ «هود : ٨٨»، وقال عن الخضر : ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ «الكهف: ٦٥». وقال لرسوله ﷺ : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ «الفتح : ١ ، ٣». وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ «النساء : ١١٣».

وقال : ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ «النور: ٢١» ففضله : هدايته ، ورحمته : إنعامه وإحسانه إليهم وبره بهم.

وقال : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى ﴾ «طه: ١٢٣». والهدى : منعُه من الضلال ، والرحمة : منعُه من الشقاء.

وهذا هو الذى ذكره فى أول السورة فى قوله ﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ فجمع له بين إنزال القرآن عليه ، ونفى الشقاء عنه ، كما قال فى آخرها فى حق أتباعه : ﴿ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى ﴾.

فالهدى والفضل والنعمة والرحمة متلازمات ، لا ينفك بعضها عن بعض ، كما أن الضلال والشقاء متلازمان ، لا ينفك أحدهما عن الآخر، قال تعالى : ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ﴾ «القمر : ٤٧». والسُّعر: جمع « سعير » ، وهو : العذاب الذى هو غاية الشقاء .

وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ «الأعراف: ١٧٩» ، وقال تعالى عنهم : ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ «الملك : ١٠».

٥٤٩ - ومن هذا أنه سبحانه يجمع بين الهدى وانشراح الصدر والحياة الطيبة ، وبين الضلال وضيق الصدر والمعيشة الضنك .

قال تعالى : ﴿فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ «الأنعام : ١٢٥».

وقال : ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ من رَّبِّهِ﴾ «الزمر: ٢٢».

وكذلك يجمع بين الهدى والإنابة ، وبين الضلال وقسوة القلب ، قال تعالى : ﴿اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ «الشورى : ١٣».

وقال : ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم من ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ «الزمر: ٢٢».

٥٥٠ - والهدى الرحمة وتوابعهما من الفضل والإنعام كله من صفة العطاء. والإضلال والعذاب وتوابعهما من صفة المنع.

وهو سبحانه يصرف خلقه بين عطائه ومنعه ، وذلك كله صادر عن حكمة بالغة، وملك تام فلا إله إلا الله.

٣/ ٥٥١ - إذا بلغ العبد أعطى عهده الذى عهده إليه خالقه ومالكه.

فإذا أخذ عهده بقوة وقبول ، وعَزم على تنفيذ ما فيه ، صلُح للمراتب والمناصب التى يصلح لها الموفون بعهودهم ، فإذا هز نفسه عند أخذ العهد وانتحى لها وقال: قد أُهِّلت لعهد ربى ، فَمَن أولى بقبوله وفهمه وتنفيذه منى؟! فحرص أولاً على فهم عهده وتدبره ، وتعرفه وصايا سيده له ، ثم وطَّن نفسه على امتثال ما فى عهده

والعمل به وتنفيذه حسبما تضمنه عهده، فأبصر بقلبه حقيقة العهد وما تضمنه ، فاستحدث همة أخرى ، وعزيمة غير العزيمة التى كان فيها وقت الصِّبا ، قبل وصول العهد.

فاستقال من ظلمة غرة الصِّبا والانقياد للعادة والمنشأ ، وصبر على شرف الهمة ، وهتك ستر الظلمة إلى نور اليقين ، فأدرك بقدر صبره وصدق اجتهاده ما وهبه الله له من فضله.

٥٥٢ - فأول مراتب سعادته أن تكون له أذن واعية ، وقلب يعقل ما تعيه الأذن، فإذا سمع وعقل استبانت له الجادة ، ورأى عليها تلك الأعلام ، ورأى أكثر الناس منحرفين عنها يمينًا وشمالاً ، فلزمها ولم ينحرف مع المنحرفين الذين كان سبب انحرافهم عدم قبول العهد، أو قبلوه بِكُرهٍ، ولم يأخذوه بقوة ولا عزيمة ولا حدَّثوا أنفسهم بفهمه وتدبره ، والعمل بما فيه ، وتنفيذ وصاياه ، بل عرض عليهم العهد ومعهم ضراوة الصبا ودين العادة وما ألفوا عليه الآباء والأمهات ، فتلقوا العهد تلقى من هو مُكتّف بما وجد عليه آباءه وسلفه، وعادتهم لا تكفى من يجمع همه وقلبه على فهم العهد والعمل به ، حتى كأن ذلك العهد أتاه وحده وقيل له : تأمل ما فيه ثم اعمل بموجبه.

٥٥٣ - فإذا لم يتلق عهده هذا التلقي أخلد إلى سيرة القرابة وما استمرت عليه عادة أهله وأصحابه وجيرانه وأهل بلده ، فإن علت همته أخلد إلى ما عليه سلفه ومن تقدمه من غير التفات إلى تدبر العهد وفهمه، فرضى لنفسه أن يكون دينه دين العادة .

فإذا شامه الشيطان ، ورأى هذا مبلغ همته وعزيمته ، رماه بالعصبية والحمية للآباء وسلفِه ، وزيَّن له أن هذا هو الحق وما خالفه باطل ، ومثَّل له الهدى فى صورة الضلال ، والضلال فى صورة الهدى ، بتلك العصبية والحمية التى أُسِّست على غير علم ، فرضاه أن يكون مع عشيرته وقومه ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم، فخُذِل عن الهُدى وولاه الله ما تولى ، فلو جاءه كل هُدًى يُخالف قومه وعشيرته لم يره إلا ضلالة .

وإذا كانت همته أعلى من ذلك ، ونفسه أشرف ، وقدره أعلى ، أقبل على حفظ عهده (سبحانه) وفهمه وتدبره ، وعلم أن لصاحب العهد شأنًا ليس كشأن غيره ، فأخذ نفسه بمعرفته من نفس العهد ، فوجده قد تعرّف إليه وعرّفه نفسه وصفاته وأسماءه وأفعاله وأحكامه.

٥٥٤ - فعُرِف من ذلك العهد : قيومًا بنفسه ، مقيمًا لغيره ، غنيا عن كل ما سواه ، وكل ما سواه فقير إليه ، مستو على عرشه ، فوق جميع خلقه ، يرى ويسمع ويرضَى ويغضب ، ويحب ويبغض ، ويدبر أمر مملكته ، وهو فوق عرشه مُتكَلِّم ، آمرٌ ناهٍ ، يرسل رسله إلى أقطار مملكته بكلامه الذى يُسْمِعه من يشاء من خلقه.

وأنه قائم بالقسط ، مجازٍ بالإحسان والإساءة ، وأنه حليمٌ غفورٌ شكورٌ جوادٌ محسنٌ موصوف بكل كمال ، منزه عن كل عيب ونقص ، وأنه لا مثل له.

ويشهد حكمته فى تدبير مملكته ، وكيف يقدر مقاديره بمشيئته ، غير مضادة لعدله وحكمته ، وتظاهر عنده العقل والشرع والفطرة ، فصدق كل منهما صاحبيه ، وفهم عن الله سبحانه ما وصف به نفسه فى كتابه ، من حقائق أسمائه التى بها نزل الكتاب ، وبها نطق ، ولها أثبت وحقق ، وبها تعرف إلى عباده حتى أقرت به العقول ، وشهدت به الفطر.

٥٥٥ - فإذا عرف بقلبه وتيقن صفات صاحب العهد ؛ أشرقت أنوارها على قلبه فصارت له كالمعاينة ، فرأى حينئذ تعلقها بالخلق والأمر ، وارتباطهما بها ، وسريان آثارها فى العالم الحسى والعالم الروحى ، ورأى تصرفها فى الخلائق ، كيف عمَّت وخصت ، وقرَّبت وأبعدت ، وأعطت ومنعت ، فشاهد بقلبه مواقع عدله سبحانه وقسطه وفضله ورحمته ، واجتمع له الإيمان بلزوم حجته مع نفوذ أقضيته ، وكمال قدرته مع كمال عدله وحكمته، ونهاية علوه على جميع خلقه مع إحاطته ومعيته ، وعظمته ، وجلاله ، وكبريائه ، وبطشه ، وانتقامه مع رحمته ، وبره ، ولطفه ، وجوده ، وعفوه ، وحلمه.

ورأى لزوم الحُجة مع قهر المقادير التى لا خروج لمخلوق عنها ، وكيف اصطحاب الصفات ، وتوافقها ، وشهادة بعضها لبعض، وانعطاف الحكمة التى هى نهاية وغاية على المقادير التى هى أول وبداية ، ورجوع فروعها إلى أصولها ، ومبادئها إلى غاياتها ، حتى كأنه مشاهد مبادئ الحكمة ، وتأسيس القضايا على وفق الحكمة والعدل والمصلحة والرحمة والإحسان ، لا تخرج قضية عن ذلك إلى انقضاء الأكوان ، وانفصال الأحكام يوم الفصل بين العباد ، وظهور عدله وحكمته، وصدق رسله وما أخبرت به عنه لجميع الخليقة ، إنسها وجِنها ، مؤمنها وكافرها.

وحينئذٍ يتبين من صفات جلاله ، ونعوت كماله للخلق ، ما لم يكونوا يعرفونه قبل ذلك ، حتى إنَّ أعرف خلقه به فى الدنيا يثنى عليه يومئذٍ من صفات كماله ، ونعوت جلاله ، ما لم يكن يحسنه فى الدنيا ، وكما يظهر ذلك لخلقه تظهر لهم الأسباب التى بها زاغ الزائغون ، وضل الضالون، وانقطع المنقطعون ، فيكون الفرق بين العلم يومئذ بحقائق الأسماء والصفات والعلم بها فى الدنيا كالفرق بين العلم بالجنة والنار ومشاهدتهما وأعظم من ذلك.

٥٥٦ - وكذلك يفهم من العهد كيف اقتضت أسماؤه وصفاته لوجود النبوة والشرائع وأن لا يترك خلقه سُدًى ، وكيف اقتضت ما تضمنته من الأوامر والنواهى، وكيف اقتضت وقوع الثواب والعقاب والمعاد ، وأن ذلك من موجبات أسمائه وصفاته ، بحيث يُنزه عما زعم أعداؤه من إنكار ذلك.

ويرى شمول القدرة وإحاطتها بجميع الكائنات حتى لا يشذ عنها مثقال ذرة ، ويرى أنه لو كان معه إله آخر لفسد هذا العالم فكانت تفسد السماوات والأرض ومن فيهن ، وأنه سبحانه لو جاز عليه النوم أو الموت لتدكدك هذا العالم بأسره ولم يثبت طرفة عين.

ويرى مع ذلك الإسلام والإيمان اللذين تعبد الله بهما جميع عباده ، كيف انبعاثهما من الصفات المقدسة ، وكيف اقتضيا الثواب والعقاب عاجلاً وآجلاً.

ويرى مع ذلك أنه لا يستقيم قبول هذا العهد والتزامه لمن جحد صفاته وأنكر علوه على خلقه ، وتكلمه بكتبه وعهوده ، كما لا يستقيم قبوله لمن أنكر حقيقة سمعه وبصره وحياته وإرادته وقدرته ، وأن هؤلاء هم الذين ردوا عهده وأبوا قبوله، وأن من قَبِلَه منهم لم يقبله بجميع ما فيه ، وبالله التوفيق.

٥٥٧/٤ - خُلِق بدن ابن آدم من الأرض ، وروحه من ملكوت السماء، وقرن بينهما ، فإذا أجاع بدنه وأسهره ، وأقامه فى الخدمة : وجدت روحه خفة وراحة ، فتاقت إلى الموضع الذى خُلِقت منه ، واشتاقت إلى عالمها العلوى، وإذا أشبعه ونعمه ونومه ، واشتغل بخدمته وراحته ، أخلد البدن إلى الموضع الذى خُلِق منه ، فانجذبت الروح معه فصارت فى السجن ، فلولا أنها ألفت السجن لاستغاثت من ألم مفارقتها وانقطاعها عن عالمها الذى خلقت منه ، كما يستغيث المعَذَّب.

وبالجملة: فكلما خف البدن لطفت الروح وخفت وطلبت عالمها العلوى، وكلما ثقل وأخلد إلى الشهوات والراحة ثقلت الروح ، وهبطت من عالمها وصارت أرضية سفلية ، فترى الرجل روحه فى الرفيق الأعلى وبدنه عندك ، فيكون نائمًا على فراشه وروحه عند سدرة المنتهى ، تجول حول العرش، وآخر واقف فى الخدمة ببدنه وروحه فى السفل تجول حول السفليات.

٥٥٨ - فإذا فارقت الروح البدن التحقت برفيقها الأعلى أو الأدنى ، فعند الرفيق الأعلى كل قرة عين ، وكل نعيم وسرور وبهجة ولذة وحياة طيبة ، وعند الرفيق الأسفل كل همٍّ وغم ، وضيق ، وحزن ، وحياة نكدة ، ومعيشة ضنك ، قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ «طه : ١٢٤»، فذِكْرُه : كلامُه الذى أنزله على رسولَه ، والإعراض عنه : ترك تدبره والعمل به ، والمعيشة الضنك : فأكثر ما جاء فى التفسير أنها عذاب القبر ، قاله ابن مسعود وأبو هريرة وأبو سعيد الخدرى وابن عباس، وفيه حديث مرفوع.

وأصل الضنك فى اللغة : الضيق والشدة ، وكل ما ضاق فهو ضنك ، يقال: ضنك وعيش ضنك ، فهذه المعيشة الضنك ، فى مقابلة التوسيع على النفس والبدن

بالشهوات والـلذات والراحة ، فإن النفس كلمـا وسعت عليها ضيقت عـلى القلب حتى تصيـر معيشة ضنكًا، وكـلما ضيقت عليهـا وسعت على القلب حـتى ينشرح وينفسح.

٥٥٩ - فضنك المعـيشة فى الدنيا بموجـب التقوى سعتها فـى البرزخ والآخرة ، وسعة المعيشة فى الدنيا بحكم الهوى ضنكها فى البرزخ والآخرة.

فآثِر أحسن المـعيشتين وأطيبهمـا وأدومهما ، واشق البدن بنعـيم الروح ولا تشق الروح بنعيم البدن ، فإن نعيم الروح وشـقاءها أعظم وأدوم ، ونعيم البدن وشقاؤه أقصر وأهون ، والله المستعان.

وانظر الفائدة رقم :

(٥٢٦).



الفصل الثامن
فـــوائد متنوعة

حدود الأخلاق :

١/ ٥٦٠ - للأخلاق حدٌّ متى جاوزته صارت عُدوانًا ، ومتى قصرت عنه كان نقصًا ومهانة : فللغضب حدٌّ : وهو الشجاعة المحمودة ، والأنفة من الرذائل والنقائص ، وهذا كماله فإذا جاوز حده تعدَّى صاحبه وجار ، وإن نقص عنه جبن ولم يأنف من الرذائل.

٥٦١ - وللحرص حدٌّ : وهو الكفاية فى أمور الدنيا وحصول البلاغ منها ، فمتى نقص من ذلك كان مهانة وإضاعة ، ومتى زاد عليه كان شَرهًا ورغبةً فيما لا تُحمد الرغبة فيه.

٥٦٢ - وللحسد حدٌّ : وهو المنافسة فى طلب الكمال، والأنفة أن يتقدم عليه نظيره ، فمتى تعدى ذلك صار بغيًا وظلمًا يتمنى معه زوال النِّعمة عن المحسود ، ويحرص على إيذائه ، ومتى نقص عن ذلك كان دناءَة وضعف هِمة ، وصغر نفس.

قال النبى ﷺ : «لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها الناس»[1].

فهذا حسد منافسة يطالب الحاسد به نفسه أن يكون مثل المحسود ، لا حسد مهانة يتمنى به زوال النعمة عن المحسود.

٥٦٣ - وللشهوة حدٌّ : وهو راحة القلب والعقل من كدِّ الطاعة واكتساب الفضائل والاستعانة بقضائها على ذلك ، فمتى زادت على ذلك صارت نَهمة وشبقًا والتحق صاحبها بدرجة الحيوانات ومتى نقصت عنه ولم يكن فراغًا فى طلب

---

(١) أخرجه البخارى (٧٣ - ١٤٠٩) عن ابن مسعود يرفعه ، وأخرجه مسلم كتاب «صلاة المسافرين» باب (٤٧ - حديث/ ٢٦٧)، وأحمد (١/ ٣٨٥ ، ٤٣٢، ٢/ ٣٦ ، ٨٨) وغيرهم.

الكمال والفضل كانت ضعفًا وعجزًا ومهانة .

٥٦٤ - وللراحة حدٌّ : وهو إجمام النفس والقوى المدركة والفعالة للاستعداد للطاعة واكتساب الفضائل ، وتوفرها على ذلك بحيث لا يضعفها الكد والتعب ويضعف أثرها ، فمتى زاد على ذلك صار توانيًا وكسلاً وإضاعة ، وفات به أكثر مصالح العبد ، ومتى نقص عنه صار مُضرا بالقوى مُوهِنًا لها وربما انقطع به كالمنْبَتِّ الذى لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى .

٥٦٥ - والجود له حدٌّ : بين طرفين ، فمتى جاوز حده صار إسرافًا وتبذيرًا ، ومتى نقص عنه كان بخلاً وتقتيرًا.

٥٦٦ - وللشجاعة حدٌّ : متى جاوزته صارت تهورًا ، ومتى نقصت عنه صارت جبنًا وخورًا ، وحدُّها الإقدام فى مواضع الإقدام ، والإحجام فى مواضع الإحجام ، كما قال معاوية لعمرو بن العاص : أعيانى أن أعرف أشُجاعًا أنت أم جبانًا تَقْدُم حتى أقولَ مِن أشجع الناس، وتَجبُن حتى أقولَ مِن أجبن الناس ، فقال:

شجاعٌ إذا أمكنتنى فرصة فإن لم تكن لى فرصة فجبان

٥٦٧ - والغيرة لها حدٌّ : إذا جاوزته صارت تُهمة وظنا سيئًا بالبرىء ، وإذا قصرت عنه كانت تغافلاً ومبادئ دياثة.

٥٦٨ - وللتواضع حدٌّ : إذا جاوزه كان ذلا ومهانة ومتى قصر عنه انحرف إلى الكبر والفخر.

٥٦٩ - وللعز حدٌّ : إذا جاوزه كان كبرًا وخُلقًا مذمومًا ، وإن قصر عنه انحرف إلى الذُّل والمهانة.

٥٧٠ - وضابط هذا كله : «العدل» وهو الأخذ بالوسط الموضوع بين طرفى الإفراط والتفريط ، وعليه بناء مصالح الدنيا والآخرة ، بل لا تقوم مصلحة البدن إلا به فإنه متى خرج بعض أخلاطه عن العدل وجاوزه أو نقص عنه ذهب من صحته وقوته بحسب ذلك ، وكذلك الأفعال الطبيعية كالنوم والسهر والأكل والشرب والجماع والحركة والرياضة والخلوة والمخالطة وغير ذلك ، إذا كانت وسطًا

بين الطرفين المذمومين كانت عدلا وإن انحرفت إلى أحدهما كانت نقصًا وأثمرت نقصًا.

٥٧١ - فمن أشرف العلوم وأنفعها علم الحدود ، ولا سيما حدود المشروع المأمور والمنهى ، فأعلم الناس أعلمهم بتلك الحدود ، حتى لا يدخل فيها ما ليس منها ولا يخرج منها ما هو داخل فيها ، قال تعالى: ﴿**الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ**﴾ «التوبة : ٩٧». فأعدل الناس من قام بحدود الأخلاق والأعمال والمشروعات معرفة وفعلا ، وبالله التوفيق.

٢/ ٥٧٢ - للعبد بين يدى الله موقفان :

موقف بين يديه فى الصلاة ، وموقف بين يديه يوم لقائه.

فمن قام بحق الموقف الأول هون عليه الموقف الآخر ، ومن استهان بهذا الموقف ولم يوفه حقه ، شدَّد عليه ذلك الموقف ، قال تعالى: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً * إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً**﴾ «الإنسان : ٢٦ ، ٢٧».

٣/ ٥٧٣ - الطلب لقاح الإيمان : فإذا اجتمع الإيمان والطلب أثمرا العمل الصالح.

٥٧٤ - وحسن الظن بالله لقاح الافتقار والاضطرار إليه : فإذا اجتمعا أثمرا إجابة الدعاء.

٥٧٥ - والخشية لقاح المحبة : فإذا اجتمعا أثمرا امتثال الأوامر واجتناب المناهى.

٥٧٦ - والصبر لقاح اليقين : فإذا اجتمعا أورثا الإمامة فى الدين ، قال تعالى : ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾ «السجدة: ٢٤».

٥٧٧ - وصحة الاقتداء بالرسول ﷺ لقاح الإخلاص : فإذا اجتمعا أثمرا قبول العمل والاعتداد به .

٥٧٨ - والعمل لقاح العلم : فإذا اجتمعا كان الفلاح والسعادة ، وإن انفرد أحدهما عن الآخر لم يفد شيئًا.

٥٧٩ - والحلم لقاح العلم : فإذا اجتمعا حصلت سيادة الدنيا والآخرة أو أعقبت ألما حصوله أعظم من ألم فواتها ، فهاهنا يظهر الفرق بيّنًا للعاقل الفطن.

٥٨٠ - والعزيمة لقاح البصيرة : فإذا اجتمعا نال صاحبهما خير الدنيا والآخرة، وبلغت به همته من العلياء كل مكان ، فتخلُّف الكمالات إمًّا من عدم البصيرة وإمًّا من عدم العزيمة.

٥٨١ - وحسن القصد لقاح لصحة الذهن : فإذا فُقِدا فُقِدَ الخير كله، وإذا اجتمعا أثمرا أنواع الخيرات.

٥٨٢ - وصحة الرأى لقاح الشجاعة : فإذا اجتمعا كان النصر والظفر، وإن فقدا فالخذلان والخيبة ، وإن وجد الرأى بلا شجاعة فالجبن والعجز، وإن حصلت الشجاعة بلا رأى فالتهور والعطب.

٥٨٣ - والصبر لقاح البصيرة : فإذا اجتمعا فالخير فى اجتماعهما .

قال الحسن : إذا شئت أن ترى بصيراً لا صبر له رأيته ، وإذا شئت أن ترى صابراً لا بصيرة له رأيته ، فإذا رأيت صابراً بصيراً فذاك.

٥٨٤ - والنصيحة لقاح العقل : فكلما قويت النصيحة قوى العقل واستنار.

٥٨٥ - والتذكر والتفكر : كل منهما لقاح الآخر ، إذا اجتمعا أنتجا الزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة.

٥٨٦ - والتقوى لقاح التوكل : فإذا اجتمعا استقام القلب.

٥٨٧ - ولقاح أخذ أهبة الاستعداد للّقاء قِصَرُ الأمل ، فإذا اجتمعا فالخير كله فى اجتماعهما والشر فى فرقتهما.

٥٨٨ - ولقاح الهمة العالية : النية الصحيحة : فإذا اجتمعا بلغ العبد غاية المراد.

وانظر الفائدة رقم : (٥٣٠).



الفصل التاسع
فوائد تنفع كخطب منبرية

٥٨٩/١ - لما خرج رسول الله ﷺ من حصر العدو دخل فى حصر النصر، فعبثت أيدى سراياه بالنصر فى الأطراف فطار ذكره فى الآفاق ، فصار الخَلق معه ثلاثة أقسام : مؤمن به ، ومسالم له ، وخائف منه.

ألقى بذر الصبر فى مزرعة : ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ «الأحقاف : ٣٥». فإذا أغصان النبات تهتز بخزامى: ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ «البقرة : ١٩٤». فدخل مكة دخولاً ما دخله أحد قبله ولا بعده، حوله المهاجرون والأنصار ، لا يبين منه إلا الحدق.

والصحابة على مراتبهم ، والملائكة فوق رءوسهم ، وجبريل يتردد بينه وبين ربه وقد أباح له حَرَمَه الذى لم يحله لأحد سواه.

٥٩٠ - فلما قايس بين هذا اليوم وبين يوم : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ «الأنفال : ٣٠». فأخرجوه ثانى اثنين ، دخل وذقنه تمس قربوس سرجه خضوعًا وذلا لمن ألبسه ثوب هذا العز الذى رفعت إليه فيه الخليقة رءوسها ومدت إليه الملوك أعناقها.

فدخل مكة مالكًا مؤيداً منصوراً ، وعلا كعب بلال فوق الكعبة بعد أن كان يُجَر فى الرمضاء على جمر الفتنة ، فنشر بزًا[1] طوى عن القوم من يوم قوله : «أحد أحد» ورفع صوته بالأذان ، فأجابته القبائل من كل ناحية ، فأقبلوا يؤمون الصوت، فدخلوا فى دين الله أفواجًا ، وكانوا قبل ذلك يأتون آحادا.

فلما جلس الرسول ﷺ على منبر العز - وما نزل عنه قط - مدت الملوك

---

(١) البزُّ : نوع من الثياب (الوجيز).

أعناقها بالخضوع إليه ، فمنهم من سلَّم إليه مفاتيح البلاد ، ومنهم من سأله الموادعة والصلح ، ومنهم من أقر بالجزية والصَّغار ، ومنهم من أخذ فى الجمع والتأهب للحرب ولم يدرِ أنه لم يزِد على جمع الغنائم وسوق الأسارى إليه ﷺ .

فلما تكامل نصره وبلَّغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وجاءه منشور : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ «الفتح: ١- ٣»، وبعده توقيع : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا﴾ «النصر : ١-٢» .

جاءه رسول ربه يخيره بين المقام فى الدنيا وبين لقائه ، فاختار لقاء ربه شوقًا إليه ، فتزينت الجنان ليوم قدوم روحه الكريمة ، لا كزينة المدينة يوم قدوم الملِك.

إذا كان عرش الرحمن قد اهتز لموت بعض أتباعه[1] فرحًا واستبشاراً بقدوم روحه فكيف بقدوم روح سيد الخلائق؟

فيا مُنتَسبًا إلى غير هذا الجناب، ويا واقفًا بغير هذا الباب ، ستعلم يوم الحشر أى سريرة تكون عليها : ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ «الطارق : ٩».

٢/ ٥٩١ - كان أول المخلوقات «القلم» ، ليكتب المقادير قبل كونها ، وجُعِل آدمُ آخر المخلوقات ، وفى ذلك حِكَم :

أحدها : تمهيد الدار قبل الساكن .

الثانية : أنه الغاية التى خلق لأجلها ما سواه من السماوات والأرض، والشمس والقمر ، والبر والبحر.

الثالثة: أن أحذق الصناع يختم عمله بأحسنه وغايته ، كما يبدؤه بأساسه ومبادئه.

---

(١) هو سعد بن معاذ رضى الله عنه سيد الأنصار ، وورد فى صحيح البخارى (٥/ ٤٤) ومسلم (١٢٣، ١٢٤ ، ١٢٥/ فضائل الصحابة) وغيرهما قوله ﷺ : «اهتز العرش لموت سعد بن معاذ ، من فرح الرب» وانظر كتابنا الكبير « موسوعة الصحابة ».

الرابعة : أن النفوس متطلعة إلى النهايات والأواخر دائمًا ، ولهذا قال موسى للسحرة أولاً : ﴿أَلْقُوا مَا أَنتُم ملقُونَ﴾ «الشعراء: ٤٣» فلما رأى الناس فعلهم تطلعوا إلى ما يأتى بعده.

الخامسة : أن الله سبحانه أخَّر أفضل الكتب والأنبياء والأمم ، إلى آخر الزمان ، وجعل الآخرة خيراً من الأولى ، والنهايات أكمل من البدايات ، فكم بين قول المَلك للرسول ﷺ : اقرأ ! فيقول : «ما أنا بقارئ[1]» وبين قوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ «المائدة : ٣».

السادسة : أنه سبحانه جمع ما فرَّقهُ فى العالم فى آدم ، فهو العالم الصغير، وفيه ما فى العالم الكبير.

السابعة : أنه خلاصة الوجود وثمرته ، فناسب أن يكون خلقه بعد الموجودات.

الثامنة : أن من كرامته على خالقه أنه هيأ مصالحه وحوائجه ، وآلات معيشته ، وأسباب حياته ، فما رفع رأسه إلا وذلك كله حاضر عتيد.

التاسعة : أنه سبحانه أراد أن يظهر شرفه وفضله على سائر المخلوقات، فقدمها عليه فى الخلق.

٥٩٢ - ولهذا قالت الملائكة : ليخلق ربنا ما شاء فلن يخلق خلقًا أكرم عليه منَّا فلما خلق آدم وأمرهم بالسجود له ، ظهر فضله وشرفه عليهم بالعلم والمعرفة ، فلما وقع فى الذنب ظنت الملائكة أن ذلك الفضل قد نسخ ، ولم تطلع على عبودية التوبة الكامنة ، فلما تاب إلى ربه وأتى بتلك العبودية علمت الملائكة أن لله فى خلقه سرا لا يعلمه سواه.

العاشرة : أنه سبحانه لما افتتح خلق هذا العالم بالقلم كان من أحسن المناسبة أن

---

(١) أخرجه البخارى برقم (٣) عن عائشة مطولاً فى باب : كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ من كتاب : «بدء الوحى» ، والحديث له أطراف أخرى ذكرها البخارى فى عدة أبواب من «صحيحه» وانظر «أسباب النزول» للواحدي بتحقيقي ، الباب الأول.

يختمه بخلق الإنسان ، فإن القلم آلة العلم ، والإنسان هو العالم، ولهذا أظهر سبحانه فضل آدم على الملائكة بالعِلم الذى خُصَّ به دونهم.

٥٩٣ - وتأمل كيف كتب سبحانه عذر آدم قبل هبوطه إلى الأرض ونبه الملائكة على فضله وشرفه، ونوه باسمه قبل إيجاده بقوله : ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ «البقرة : ٣٠» وتأمل كيف وسمه بالخلافة ، وتلك ولاية له قبل وجوده ، وأقام عذره قبل الهبوط بقوله: ﴿فِى الأَرْضِ﴾.

٥٩٤ - والمحب يقيم عذر المحبوب قبل جنايته ، فلمَّا صوره ألقاه على باب الجنة أربعين سنة لأن دأب المحب الوقوف على باب الحبيب.

٥٩٥ - ورمى به فى ذل : ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا﴾ لِئلا يُعجبَ يوم ﴿اسْجُدُوا﴾.

٥٩٦ - وكان إبليس يمر على جسده فَيعجب منه ويقول : لأمرٍ قد خُلقت! ثم يدخل من فيه ، ويخرج من دُبره ويقول : لئن سُلِّطت عليك لأهلكنَّك، ولئن سُلِّطت علىَّ لأعصينك . ولم يعلم أن هلاكه على يده.

(*) رأى طينًا مجموعًا فاحتقره ، فلمَّا صُوِّرَ الطين صورة ، دب فيه داء الحسد فلَما نُفِخ فيه الروح مات الحاسد.

٥٩٧ - فلَما بُسِط له بساط العز ، عُرِضت عليه المخلوقات ، فاستحضر مُدَّعى ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ إلى حاكم ﴿أَنبِئُونِى﴾ ، وقد أخفى الوكيل عنه بينة ﴿وَعَلَّمَ﴾ فنكسوا رءوس الدعاوى على صدور الإقرار ، فقام مُنادى التفضيل فى أندية الملائكة يُنادى ﴿اسْجُدُوا﴾ فتطهروا من حَدَث دعوى ﴿وَنَحْنُ﴾ بماء العُذر ، فى آنية ﴿لا عِلْمَ لَنَا﴾، فسجدوا على طهارة التسليم.

وقام إبليس ناحية لم يسجُد ، لأنه خبُث ، وقد تلوَّن بنجاسة الاعتراض وما كانت نجاسته تُتلافى بالتطهير ، لأنها عينية.

٥٩٨ - فلما تم كمال آدم قيل : لابد من خال جمال ، على وجه ﴿اسْجُدُوا﴾، فجرى القدر بالذنب ليتبين أثر العبودية فى الذُّل.

٥٩٩ - يا آدم : لو عُفى لك عن تلك اللُّقـمة لقال الحاسدون : كيف فضل ذو شَره لم يصبر على شجرة؟ ولولا نزولـك لما تصاعدت صعداء الأنفاس، ولا نزلت رسائل «هل من سائل؟» ولا فاحت روائح «لخلوف فم الصائم» فتبين حينئذٍ أن ذلك التنازل لم يكن عن شره.

٦٠٠ - يا آدم ضحكك فى الجنة لك ، وبكاؤك فى دار التكليف لنا.

٦٠١ - ما ضر من كسره عـزى ، إذا جبره فضلى ، إنَّما تليق خُلـعة العز ببدن الانكسار : «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى»[1].

٦٠٢ - ما زالت تلك الأكلة تعاده حتى استولى داؤه على أولاده ، فأرسل إليهم اللطيف الخبير الدواء على أيدى أطباء الوجود : ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلاَ يَضِـلُّ وَلا يَشْقَى﴾ «طه : ١٢٣». فحمـاهم الطبيب بالمنـاهى ، وحفظ القوة بالأوامر ، واستفرغ أخلاطهم الرديئة بالتوبة فجاءت العافية من كل ناحية.

٦٠٣ - فيا من ضـيع القوة ولم يحفظـها ، وخلَّط فى مرضه ومـا احتمى، ولا صبر على مرارة الاستفراغ : لا تُنكِر قُرب الهلاك ، فالداء مترام إلى الفساد.

٦٠٤ - لو ساعد القـدر فأعَنتَ الطبيب على نـفسك بالحمية من شهـوة خسيسة ظفرت بأنواع اللذات وأصناف المشتهيات ، ولكن بخار الشهوة غطى عين البصيرة ، فظننت أن الحزم بَيع الوعد بالنقد.

---

(١) ذكره العجلونى فى «كشف الخفا» (١/ ٢٣٤)، وقال: وتمامه : وأنا عند المندرسة قلوبهم لأجلى، ولا أصل لهما فى المرفوع . ا. هـ.

وقال صاحب «المقاصد» : ذكـره فى «البداية» للغزالى وقال القارى عقـبه : ولا يخفى أن الكلام فى هذا المقام لم يبلغ الغاية. اهـ، وورد فى «الإحياء» عن موسى قال : إلهى أين أبغيك؟ قال: «ابغنى عـند المنكسرة قلوبـهم»، وعزاه الزبيدى لأبى نـعيم فى « الحلية » ثم سـاق سنده وقال: وكأنه من الإسرائيليات ، ولم يثبت رفعه عند أئمة الحديث. ا هـ. وورد بنحوه عن داود - عليه السلام - رواه الـبيهقى فى «الـزهد» (٣٦٨). قال الشيـخ عمرو: وإسناده صحـيح إن شاء الله (الذل والانكسار ، لابن رجب).

٦٠٥ - يا لها بصيرة عمياء، جزعت من صبر ساعة واحتملت ذل الأبد، سافرت فى طلب الدنيا وهى عنها زائلة ، وقعدت عن السفر إلى الآخرة وهى إليها راحلة.

٦٠٦ - إذا رأيت الرجل يشترى الخسيس بالنفيس ، ويبيع العظيم بالحقير، فاعلم أنه سفيه.

٦٠٧ - لما سلِم لآدم أصل العبودية ، لم يقدح فيه الذنب.

٦٠٨ - ابن آدم ، لو لقيتنى بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئًا لقيتك بقرابها مغفرة.

٦٠٩ - لما علم السيد (سبحانه) أن ذنب عبده لم يكن قصدًا لمخالفته، ولا قدحًا فى حكمته علّمه كيف يعتذر إليه : ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ «البقرة: ٣٧».

وانظر الفوائد رقم :

(١٨٣ - ٤٨٤ - ٤٨٥ - ٤٨٦ - ٥٥١ - ٦١٤ - ٦٣٠ - ٦٤٩ - ٦٥٠ - ٦٥١ - ٦٥٢ - ٦٥٣ - ٦٥٤ - ٦٥٥ - ٦٥٦).



الباب الرابع
روضة القرآن

١ - من قواعد فهم القرآن .
٢ - دعوة القرآن إلى التفكر.
٣ - من صفات أهل النار فى سورة : ق.
٤ - من صفات أهل الجنة فى سورة : ق.
٥ - شمول سورة الفاتحة على أسباب فلاح الإنسان.
٦ - معنى «اللهو» فى قوله تعالى: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ .
٧ - تجليات الله سبحانه فى القرآن بصفاته.
٨ - من كنوز القرآن.
٩ - أنواع هجر القرآن.
١٠ - الذين فى قلوبهم حرج من القرآن.
١١ - دعاء من القرآن يكشف البلوى والضر.
١٢ - الحياة الطيبة - فى الدنيا والبرزخ والآخرة - فى اتباع القرآن والجهاد من أجله.
١٣ - المكروهات المقدرة على المؤمن قد تكون محبوباته ولسعادته وبيان ذلك من القرآن.



الفصل الأول

من قواعد فهم القرآن

١/ ٦١٠ - إذا أردت الانتفاع بالقرآن ، فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، والق سمعك ، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه ، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ «ق : ٣٧».

وذلك أن تمام التأثير لمَّا كان موقوفًا على مؤثر مُقتضٍ ، ومحل قابل، وشرط لحصول الأثر ، وانتفاء المانع الذى يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ ، وأبينه ، وأدله على المراد:

أ - فقوله تعالى :﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ : إشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى هاهنا (وهذا هو المؤثر).

ب - وقوله : ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ : فهذا هو (المحل القابل) ، والمراد به «القلب الحى» الذى يعقل عن الله ، كما قال تعالى : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ * لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ «يس : ٦٩ ، ٧٠». أى : حى القلب.

جـ - وقوله : ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ : أى وجه سمعه ، وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له، وهذا : (شرط التأثر بالكلام).

د - وقوله : ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ : أى شاهد القلب ، حاضر غير غائب.

قال ابن قتيبة : استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم ، ليس بغافلٍ ولا ساهٍ.

وهو إشارة إلى (المانع من حصول التأثير) : وهو سهو القلب ، وغيبته عن تعقل ما يقال له ، والنظر فيه وتأمله.

فإذا حصل المؤثر : وهو «القرآن»، والمحل القابل : وهو «القلب الحى»، ووجد الشرط: وهو «الإصغاء» ، وانتفى المانع: وهو «اشتغال القلب» وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شىء آخر ، حصل الأثر : وهو الانتفاع والتذكر.

٢/ ٦١١ - فإن قيل : إذا كان التأثير إنما يتم بمجموع هذه ، فما وجه دخول أداة «أو» فى قوله : ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾. والموضع موضع واو الجماعة، لا موضع «أو» التى هى لأحد الشيئين؟!

قيل : هذا سؤال جيد ! والجواب عنه أن يقال : خرج الكلام بأو باعتبار حال المخاطب المدعو ، فإن من الناس من يكون حى القلب واعيه، تام الفطرة ، فإذا فكر بقلبه وجال بفكره ، دله قلبه وعقله على صحة القرآن وأنه الحق ، وشهد قلبه بما أخبر به القرآن ، فكان ورود القرآن على قلبه نورًا على نور الفطرة ، وهذا وصف الذين قيل فيهم : ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ «سبأ : ٦» ، وقال فى حقهم : ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِى اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ «النور : ٣٥». فهذا نور الفطرة على نور الوحى، وهذا حال صاحب القلب الحى الواعى.

قال ابن القيم: وقد ذكرنا ما تضمنت هذه الآية من الأسرار والعِبر فى كتاب : «اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية»(١).

٣/ ٦١٢ - فصاحب القلب (الحى) ، يجمع بين قلبه وبين معانى القرآن، فيجدها كأنها قد كتبت فيه ، فهو يقرؤها عن ظهر قلب.

ومن الناس من لا يكون تام الاستعداد ، واعى القلب ، كامل الحياة ، فيحتاج إلى شاهد يميز له بين الحق والباطل ، ولم تبلغ حياة قلبه ونوره ، وزكاء فطرته

---

(١) انظره بتحقيقي (ص ١٨ - وما بعدها) طبعة نزار الباز - مكة المكرمة.

مبلغ صاحب القلب الحى الواعى ، فطريق حصول هدايته أن يفرغ سمعه للكلام ، وقلبه لتأمله والتفكير فيه ، وتعقل معانيه ، فيعلم حينئذ أنه الحق.

٤/ ٦١٣ - فعين اليقين نوعان : نوع فى الدنيا ، ونوع فى الآخرة :

فالحاصل فى الدنيا ، نسبته إلى القلب كنسبة الشاهد إلى العين ، وما أخبرت به الرسل من الغيب يُعاين فى الآخرة بالأبصار ، وفى الدنيا بالبصائر، فهو عين يقين فى المرتبتين.

٥/ ٦١٤ - وقد جمعت هذه السورة[1] من أصول الإيمان، ما يكفى ويشفى ويغنى عن كلام أهل الكلام ، ومعقول أهل المعقول ، فإنها تضمنت تقرير المبدأ والمعاد ، والتوحيد والنبوة ، والإيمان بالملائكة، وانقسام الناس إلى هالك شقى ، وفائز سعيد وأوصاف هؤلاء وهؤلاء ، وتضمنت إثبات صفات الكمال لله ، وتنزيهه عما يضاد كماله من النقائص والعيوب ، وذكر فيها القيامتين : الصغرى والكبرى ، والعالَمَين : الأكبر وهو عالم الآخرة، والأصغر وهو عالم الدنيا.

وذكر فيها : خلق الإنسان ووفاته ، وإعادته ، وحاله عند وفاته ، ويوم معاده وإحاطته - سبحانه - به من كل وجه ، حتى علمه بوساوس نفسه، وإقامة الحفظة عليه ، يحصون عليه كل لفظة يتكلم بها ، وأنه يوافيه يوم القيامة ومعه سائق يسوقه إليه ، وشاهد يشهد عليه ، فإذا أحضره السائق قال : **﴿هذا ما لدى عتيد﴾** أى هذا الذى أُمرت بإحضاره قد أحضرته، فيقال عند إحضاره : **﴿ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد﴾** ، كما يحضر الجانى إلى حضرة السلطان ، فيقال : هذا فلان قد أحضرته ، فيقول : اذهبوا به إلى السجن وعاقبوه بما يستحقه.

وتأمل كيف دلت السورة صريحًا على أن الله سبحانه يعيد هذا الجسد بعينه الذى أطاع وعصى، فينعمه ويعذبه، كما ينعم الروح التى آمنت بعينها، ويعذب التى كفرت بعينها ، لا أنه سبحانه يخلق روحًا أخرى غير هذه فينعمها ويعذبها كما قاله من لم يعرف المعاد الذى أخبرت به الرسل، حين زعم أن الله سبحانه يخلق بدنًا

---

(١) يعني سورة (ق).

غير هذا البدن من كل وجه ، عليه يقع النعيم والعذاب، والروح عنده عرض من أعراض البدن ، فيخلق روحًا غير هذه الروح ، وبدنًا غير هذا البدن ، وهذا غير ما اتفقت عليه الرسل ، ودل عليه القرآن والسنة ، وسائر كتب الله تعالى، وهذا فى الحقيقة إنكار للمعاد ، وموافقة لقول من أنكره من المكذبين، فإنهم لم ينكروا قدرة الله على خلق أجسام أخر غير هذه الأجسام يعذبها وينعمها ، كيف وهم يشهدون النوع الإنسانى يُخلق شيئًا بعد شيء.

فكل وقت يخلق الله سبحانه أجسامًا وأرواحًا غير الأجسام التى فنيت، فكيف يتعجبون من شيء يشاهدونه عيانًا؟! وإنما تعجبوا من عودهم بأعيانهم، بعد أن مزقهم البلى، وصاروا عظامًا ورفاتًا، فتعجبوا أن يكونوا هم بأعيانهم مبعوثين للجزاء، ولهذا قالوا: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ «الصافات: ١٦»، وقالوا: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ «ق: ٣».

ولو كان الجزاء إنما هو لأجسام غير هذه ، لم يكن ذلك بعثًا ولا رجعًا، بل يكون ابتداء ولم يكن قوله : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ «ق: ٤»، كبير معنى ، فإنه سبحانه جعل هذا جوابًا لسؤال مقدر، وهو : أنه يميز تلك الأجزاء التى اختلطت بالأرض، واستحالت[1] إلى العناصر ، بحيث لا تتميز ، فأخبر - سبحانه - أنه قد عَلِم ما تنقصه الأرض من لحومهم وعظامهم وأشعارهم وأنه كما هو عالم بتلك الأجزاء، فهو قادرٌ على تحصيلها وجمعها بعد تفرقها ، وتأليفها خلقًا جديدًا ، وهو سبحانه يقرر المعاد بذكر كمال علمه ، وكمال قدرته وكمال حكمته.

٦/ ٦١٥ - فإن شبه المنكرين له[2] كلها تعود إلى ثلاثة أنواع:

أحدها : اختلاط أجزائهم بأجزاء الأرض على وجه لا يتميز ولا يحصل معه تميز شخص عن شخص.

والثانى : أن القدرة لا تتعلق بذلك.

---

(١) استحالت : أى تحولت.

(٢) أى المنكرين للمعاد والبعث.

الثالث : أن ذلك أمر لا فائدة فيه ، أو إنما الحكمة اقتضت دوام هذا النوع الإنسانى شيئًا بعد شىء ، هكذا أبدًا، كلما مات جيل خلفه جيل آخر، فأما أن يميت النوع الإنسانى كله ثم يحييه بعد ذلك فلا حكمة فى ذلك.

فجاءت براهين المعاد فى القرآن مبنية على ثلاثة أصول :

أحدها : تقرير كمال علم الرب سبحانه كما قال فى جواب من قال: ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ «يس : ٧٨ ، ٧٩» ، وقال سبحانه : ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ «الحجر : ٨٥، ٨٦»، وقال : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ «ق : ٤».

والثانى : تقرير كمال قدرته ، كقوله : ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ «يس: ٨١»، وقوله: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ «القيامة: ٤»، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ «الحج: ٦»، ويجمع سبحانه بين الأمرين كما فى قوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ «يس: ٨١».

الثالث : كمال حكمته ، كقوله : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ «الدخان : ٣٨»، وقوله : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ «ص : ٢٧»، وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ «القيامة : ٣٦»، وقوله : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ «المؤمنون: ١١٥ ، ١١٦» ، وقوله : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ «الجاثية : ٢١».

الفصل الثانى
دعوة القرآن إلى التفكر

ولهذا كان الصواب : أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع ، وأن كمال الرب تعالى وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه ، وأنه منزه عما يقوله منكروه ، كما ينزه كماله عن سائر العيوب والنقائص.

٦١٦/١ - ثم أخبر سبحانه أن المنكرين لذلك لـمَّا كذبوا بالحق اختلط عليهم أمرهم : ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ «ق : ٥» : مختلط ، لا يحصلون منه على شيء، ثم دعاهم إلى النظر فى العالَم العلوى وبنائه وارتفاعه واستوائه وحسنه والتئامه ، ثم إلى العالم السفلى وهو الأرض ، وكيف بسطها وهيَّأها بالبسط لما يراد منها ، وثبتها بالجبال ، وأودع فيها المنافع ، وأنبت فيها من كل صنف حسن من أصناف النبات على اختلاف أشكاله وألوانه ومقاديره ، ومنافعه وصفاته ، وأن ذلك تبصرة إذا تأملها العبد المنيب وتبصر بها ، تذكر ما دلت عليه مما أخبرت به الرسل من التوحيد والمعاد ، فالنظر فيها بتبصر أولاً ، ثم يتذكر ثانيًا ، وأن هذا لا يحصل إلا لعبد منيب إلى الله بقلبه وجوارحه.

ثم دعاهم إلى التفكر فى مادة أرزاقهم وأقواتهم ، وملابسهم ومراكبهم، وجناتهم : وهو الماء الذى أنزله من السماء وبارك فيه ، حتى أنبت به جنات مختلفة الثمار والفواكه ما بين أبيض وأسود ، وأحمر وأصفر ، وحلو وحامض، وبين ذلك، مع اختلاف منابعها وتنوع أجناسها ، وأنبت به الحبوب كلها على تنوعها ، واختلاف منافعها وصفاتها وأشكالها ومقاديرها ، ثم أفرد النخل لما فيه من موضع العبرة والدلالة التى لا تخفى على المتأمل ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ «البقرة: ١٦٤»[1]، ثم قال: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ «ق: ١١».

---

(١) والتى فى سورة ق : ﴿وأحيينا به بلدة ميتًا كذلك الخروج﴾.

أى مثل هذا الإخراج من الأرض الفواكه والثمار والأقوات والحبوب ، خروجكم من الأرض بعد ما غُيبتم فيها.

وقد ذكرنا هذا القياس وأمثاله من المقاييس الواقعة فى القرآن فى كتابنا «المعالم»، وبينا بعض ما فيها من الأسرار والعبر.

٢/٦١٧ - ثم انتقل سبحانه إلى تقرير النبوة بأحسن تقرير ، وأوجز لفظ ، وأبعده عن كل شبهة وشك ، فأخبر أنه أرسل إلى قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم لوط ، وقوم فرعون ، رسلاً فكذبوهم ، فأهلكهم بأنواع الهلاك، وصدق فيهم وعيده الذى أوعدتهم به رسله إن لم يؤمنوا، وهذا تقرير لنبوَّتهم ولنبوة من أخبر بذلك عنهم ، من غير أن يتعلم ذلك من معلم ولا قراه فى كتاب، بل أُخبر به إخبارًا مفصلاً مطابقًا لما عند أهل الكتاب ، ولا يرد على هذا إلا سؤال البهت والمكابرة على جحد الضروريات بأنه لم يكن شىء من ذلك ، أو أن حوادث الدهر ونكباته أصابتهم كما أصابت غيرهم ، وصاحب هذا السؤال يعلم من نفسه أنه باهت مباهت ، جاحد لما شهد به العيان ، وتناقلته القرون قرنًا بعد قرن، فإنكاره بمنزلة إنكار وجود المشهورين من الملوك والعلماء والبلاد النائية.

٣/٦١٨ - ثم عاد سبحانه إلى تقرير المعاد بقوله : ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ﴾ «ق: ١٥»، يقال لكل من عجز عن شىء : عيى به ، وعيى فلان بهذا الأمر ، قال الشاعر :

عيوا بأمرهم كما عييت ببيضتها الحمامة

ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ «الأحقاف : ٣٣». قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد أفعجزنا ، وكذلك قال مقاتل، قلت : هذا تفسير بلازم اللفظة ، وحقيقتها أعمّ من ذلك ، فإن العرب تقول : أعيانى أن أعرف كذا ، وعييت به ، إذا لم تهتد لوجهه ، ولم تقدر على معرفته وتحصيله ، فتقول : أعيانى دواؤك إذا لم تهتد له ، ولم تقف عليه ، ولازم هذا المعنى العجز عنه ، والبيت الذى استشهدوا به شاهد لهذا المعنى، فإن الحمامة لم تعجز عن بيضتها ولكن أعياها إذا

أرادت أن تبيض أين ترمى بالبيضة ، فهى تدور وتجول حتى ترمى بها ، فإذا باضت أعياها أين تحفظها وتودعها حتى لا تنـال ، فهى تنقلها من مكان إلى مكان ، وتحار أين تجعل مقرها ، كما هو حال من عيى بأمره فلم يدر من أين يقصد له؟ ومن أين يأتيه؟! وليـس المراد بالإعياء فى هذه الآية التعـب ، كما يظنه من لم يعـرف تفسير القرآن ، بل هـذا المعنى هو الذى نـفاه سبحانه عن نـفسه فى آخر السـورة بقوله : ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ «ق: ٣٨».

٤/ ٦١٩ - ثم أخبر سبحانه أنهم : ﴿فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ «ق : ١٥»، أى أنهم التبس عليهم إعادة الخلق خلقًا جـديدًا ، ثمَّ نبههم عَلَى مَا هو من أعظم آيات قدرته وشواهـد ربوبيته، وأدلة المعاد ، وهـو خلق الإنسان ، فإنه مـن أعظم الأدلة على التوحيد والمعاد.

وأى دليل أوضح من تركيب هذه الصورة الآدمية بأعضائها ، وقواها، وصفاتها، وما فيهـا من اللحم والعظـم ، والعروق ، والأعصاب ، والرباطـات ، والمنافذ ، والآلات ، والعلوم والإرادات ، والصناعات ؛ كل ذلك من نطفة ماء ، فلو أنصف العبد ربه لاكتفى بفكره فى نفسه، واستدل بوجوده على جميع ما أخبرت به الرسل عن الله وأسمائه وصفاته.

ثم أخبر سبحانه عن إحاطة علمه به ، حتى علم وساوس نفسه[1]، ثم أخبر عن قربه إليه بالـعلم والإحاطة ، وأن ذلك أدنى من العرق الذى هـو داخل بدنه ، فهو أقرب إليه بالقدرة عليه والعلم به من ذلك العرق[2].

وقال شيخـنا : المراد بقوله: «نـحن» : أى ملائكتنـا ، كما قال : ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ «القيامة : ١٨»، أى إذا قرأه عليك رسولـنا جبريل ، قال: ويدل عليه قوله : ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ «ق: ١٧»، فقيد القرب المذكور بتلقى الملكين .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾ «ق: ١٦».

(١) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ «ق : ١٦».

ولو كان المراد به قرب الذات لم يتقيد بوقت تلقى الملكين ، فلا حجة فى الآية لحلولى ولا معطل.

٥/ ٦٢٠ - ثم أخبر سبحانه أن على يمينه وشماله ملكين يكتبان أعماله وأقواله، ونبه بإحصاء الأقوال وكتابتها ، على كتابة الأعمال التى هى أقل وقوعًا ، وأعظم أثرًا من الأقوال ، وهى غايات الأقوال ونهايتها.

٦/ ٦٢١ - ثم أخبر عن «القيامة الصغرى» وهى سكرة الموت ، وأنها تجىء بالحق، وهو لقاؤه سبحانه والقدوم عليه ، وعرض الروح عليه ، والثواب والعقاب الذى تعجل لها قبل القيامة الكبرى.

ثم ذكر «القيامة الكبرى» يقول : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ «ق: ٢٠». ثم أخبر عن أحوال الخلق فى هذا اليوم ، وأن كل أحد يأتى الله سبحانه ذلك اليوم ومعه سائق يسوقه ، وشهيد يشهد عليه ، وهذا غير شهادة جوارحه ، وغير شهادة الأرض التى كان عليها ، له وعليه، وغير شهادة رسوله والمؤمنين ، فإن الله سبحانه يستشهد على العبد : الحفظة، والأنبياء، والأمكنة التى عملوا عليها الخير والشر ، والجلود التى عصوه بها ، ولا يحكم بينهم بمجرد علمه ، وهو أعدل العادلين ، وأحكم الحاكمين ، ولهذا أخبر نبيه ﷺ أنه يحكم بين الناس بما سمعه من إقرارهم وشهادة البينة لا بمجرد علمه ، فكيف يسوغ لحاكم أن يحكم بمجرد علمه من غير بينة ولا إقرار؟!.

ثم أخبر سبحانه أن الإنسان فى غفلة من هذا الشأن الذى هو حقيق بأن لا يغفل عنه ، وأن لا يزال على ذكره وباله ، وقال: ﴿فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ «ق:٢٢» ، ولم يقل: «عنه» كما قال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ «هود: ١١٠ و فصلت:٤٥»، ولم يقل: فى شك فيه ، وجاء فى المصدر وإن لم يجىء فى الفعل ، فلا يقال : غفلت منه ، ولا شككت منه ، كأن غفلته وشكه ابتداء منه ، فهو مبدأ غفلته وشكه ، وهذا أبلغ من أن يقال فى غفلة عنه ، وشك فيه ، فإنه جعل ما ينبغى أن يكون مبدأ التذكرة واليقين، ومنشأهما مبدأ للغفلة والشك ، ثم أخبر أن غطاء

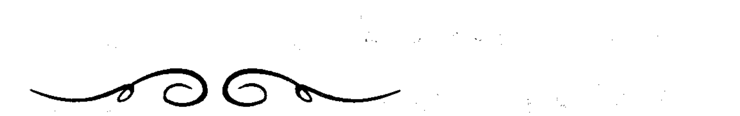
الغفلة والذهول يكشف عنه ذلك اليوم كما يكشف غطاء النوم عن القلب فيستيقظ، وعن العين فتفتح ، فنسبة كشف هذا الغطاء عن العبد عند المعاينة كنسبة كشف غطاء النوم عنه عند الانتباه.

ثم أخبر سبحانه أن قرينه ، وهو الذى قرن به فى الدنيا من الملائكة ، يكتب عمله وقوله ، يقول لما يُحضِرهُ : هذا الذى كنت وكلتنى به فى الدنيا قد أحضرته وأتيتك به ، هذا قول مجاهد.

وقال ابن قتيبة : المعنى: هذا ما كتبته عليه ، وأحصيته من قوله وعمله حاضر عندى.

والتحقيق : أن الآية تتضمن الأمرين ، أى هذا الشخص الذى وكلت به، وهذا عمله الذى أحصيته عليه ، فحينئذ يقال : ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ «ق: ٢٤».

وهذا إمَّا أن يكون خطابًا للسائق والشهيد ، أو خطابًا للمَلك الموكل بعذابه وإن كان واحدًا ، وهو مذهب معروف من مذاهب العرب فى خطابها أو تكون «الألف» مُنقلبة عن «نون التوكيد» الخفيفة، ثم أُجرى الوصل مجرى الوقف.



الفصل الثالث

من صفات أهل النار

١/ ٦٢٢ - ثم ذكر صفات هذا الملقى[1] فذكر له ست صفات:

أحدها : أنه كفَّارٌ لنعم الله وحقوقه ، كفار بدينه وتوحيده ، وأسمائه وصفاته ، كفار برسله وملائكته ، كفار بكتبه ولقائه.

الثانية : أنه معاند للحق بدفعه جحدًا وعنادًا.

الثالثة : أنه مناع للخير ، وهذا يعم منعه للخير - الذى هو : إحسان إلى نفسه من الطاعات ، والقرب إلى الله - والخير الذى هو : إحسان إلى الناس، فليس فيه خير لنفسه ولا لبنى جنسه ، كما هو حال أكثر الخلق.

الرابعة : أنه مع منعه للخير ، معتدٍ على الناس ، ظلوم غشوم ، معتد عليهم بيده ولسانه.

الخامسة : أنه مريب - أى صاحب ريب وشك - ومع هذا فهو آت لكل ريبة ، يقال : فلان مريب ، إذا كان صاحب ريبة.

٢/ ٦٢٣ - السادسة : أنه مع ذلك : مشرك بالله ، قد اتخذ مع الله إلهًا آخر ، يعبده ويحبه ، ويغضب له ، ويرضى له ، ويحلف باسمه ، وينذر له ، ويوالى فيه، ويعادى فيه ، فيختصم هو وقرينه من الشياطين، ويحيل الأمر عليه ، وأنه هو الذى أطغاه وأضله ، فيقول قرينه : لم يكن لى قوة أن أضله وأطغيه ، ولكن كان فى ضلال بعيد ، اختاره لنفسه وآثره على الحق كما قال إبليس لأهل النار: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ «إبراهيم: ٢٢».

---

(١) أى الملقى فى جهنم .

وعلى هذا فالـقرين هنا هو شيطانــه ، يختصمان عند الله ، وقالـت طائفة: بل قرينة هاهنا الملك، فـيدَّعى عليه أنه زاد عليه فيما كتبه علـيه وطغى ، وأنه لم يفعل ذلك كله ، وأنه أعجله بالكتابة عن التوبة، ولم يمهله حتى يتوب ، فيقول الملك : مازدت فى الكتاب على ما عمل ، ولا أعجلته عن التوبة : ﴿وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ فيقول الرب تعالى: ﴿لاَ تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾، وقد أخبر سبحـانه عن اختصام الكَفَّار والشياطين بـين يديه فى سورة الصَافات[١] والأعراف[٢]، وأخبر عن اختصام الناس بين يديـه فى سورة الزمر[٣]، وأخبر عن اخـتصام أهل النار فيـها فى سورة الشعراء[٤]، وسورة ص[٥].

٣/ ٦٢٤ - ثم أخبر سبحانه أنه لا يبدل القول لديه ، فقيل : المراد بذلك قوله : ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّم مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ «هود : ١١٩»، ووعده لأهل الإيمان بالجنة ، وأن هذا لا يبدَل ولا يخلف.

قال ابن عباس : يريد ما لوعدى خلف لأهل طاعتى ولا أهل معصيتى.

قال مجاهد : قد قضيت ما أنا قاضٍ ، وهذا أصح القولين فى الآية.

وفيها قول آخر : أن المعنـى ما يغير القول عندى بالكذب والتلـبيس ، كما يغير عند الملوك والحكام ، فيكون المراد بالقول : قول المختصمين ، وهو اختيار الفراء ، وابن قتيبة.

قال الفراء : المعنى : ما يُكذب عندى لعلمى بالغيب.

وقال ابن قتيبة : ما يحرف القول عندى ، ولا يزاد فيه ، ولا ينقص منه ، قال: لأنه قال : القول عندى ولم يقل قولى ، وهذا كما يقال : لا يكذب عندى.

---

(١) الصافات : الآيات من ٢٧ : ٣٣.

(٢) الأعراف : الآيات من ٣٧ : ٤١.

(٣) الزمر : الآيات من ٦٩ : ٧٤.

(٤) الشعراء : الآيات من ٩١ : ١٠٢.

(٥) ص : الآيات من ٥٥ : ٦١.

فعلى القول الأول[1]: يكون قوله : ﴿وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ «ق: ٢٩»، من تمام قوله : ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ فى المعنى ، أى : ما قلته ووعدت به لابد من فعله، ومع هذا فهو عدل لا ظلم فيه ولا جور.

وعلى الثانى : يكون قد وصف نفسه بأمرين:

أحدهما : أن كمال علمه واطلاعه يمنع من تبديل القول بين يديه وترويج الباطل عليه.

والثانى : أن كمال عدله وغناه يمنع من ظلمه لعبيده.

ثم أخبر عن سعة جهنم وأنها كلما ألقيا فيها : ﴿تَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ «ق: ٣٠». وأخطأ من قال: إن ذلك للنفى ، أى ليس مـن مزيد ، والحديث الصحيح يرد هذا التأويل.



(١) القول الأول : قول ابن عباس وقول مجاهد ، والقول الآخر قول الفراء وابن قتيبة.

الفصل الرابع
من صفات أهل الجنة

١/ ٦٢٥ - ثم أخبر عن تقريب الجنة من المتقين ، وأن أهلها هم الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع :

إحداها : أن يكون أوَّابًا ، أى رجَّاعًا إلى الله من معصيته إلى طاعته ، ومن الغفلة عنه إلى ذكره ، قال عبيد بن عمير : الأواب الذى يتذكر ذنوبه ثم يستغفر منها.

وقال مجاهد : هو الذى إذا ذكر ذنبه فى الخلاء استغفر منه.

وقال سعيد بن المسيب : هو الذى يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب.

الثانية : أن يكون حفيظًا ، قال ابن عباس : لما ائتمنه الله عليه وافترضه.

وقال قتادة : حافظ لما استودعه الله من حقه ونعمته.

ولما كانت النفس لها قوتان : قوة الطلب ، وقوة الإمساك ، كان الأواب مستعملاً لقوة الطلب فى رجوعه إلى الله ومرضاته وطاعته، والحفيظ مستعملاً لقوة الحفظ فى الإمساك عن معاصيه ونواهيه، فالحفيظ: الممسك نفسه عما حرم عليه ، والأواب : المقبل على الله بطاعته.

٢/ ٦٢٦ - الثالثة : قوله ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ «ق : ٣٣» .

يتضمن الإقرار بوجوده ، وربوبيته ، وقدرته وعلمه ، واطلاعه على تفاصيل أحوال العبد ، ويتضمن الإقرار بكتبه ورسله ، وأمره ونهيه ، ويتضمن الإقرار بوعده ووعيده ولقائه ، فلا تصح خشية الرحمن بالغيب إلا بعد هذا كله.

٣/ ٦٢٧ - الرابعة : قوله : ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ «ق: ٣٣» .

قال ابن عباس: راجع عن معاصى الله ، مقبل على طاعة الله .

وحقيقة الإنابة: «عكوف القلب على طاعة الله ومحبته والإقبال عليه».

ثم ذكر سبحانه جزاء من قامت به هذه الأوصاف بقوله: ﴿ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود * لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد﴾ «ق: ٣٤، ٣٥».

٤/٦٢٨ - ثم خوفهم بأن يصيبهم من الهلاك ما أصاب مَن قبلهم ، وأنهم كانوا أشد منهم بطشًا، ولم يدفع عنهم الهلاك شدة بطشهم ، وأنهم عند الهلاك تقلبوا وطافوا فى البلاد[1]، وهل يجدون محيصًا ومنجى من عذاب الله؟!

قال قتادة : حاص أعداء الله فوجدوا أمر الله لهم مُدركًا.

وقال الزجاج : طوفوا وفتشوا فلم يروا محيصًا من الموت.

وحقيقة ذلك أنهم طلبوا المهرب من الموت فلم يجدوه.

٥/٦٢٩ - ثم أخبر سبحانه أن فى هذا الذى ذكره : ﴿لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ «ق : ٣٧».

ثم أخبر أنه خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ولم يمسه من تعب ولا إعياء[2]، تكذيبًا لأعدائه من اليهود ، حيث قالوا : إنه استراح فى اليوم السابع ، ثم أمر نبيه ﷺ بالتأسى به سبحانه فى الصبر على ما يقول أعداؤه فيه، كما أنه سبحانه صبر على قول اليهود أنه استراح « سبحانه وتعالى » ، ولا أحد أصبر على أذى يسمعه منه.

ثم أمره بما يستعين به على الصبر ، وهو التسبيح بحمد ربه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وبالليل وأدبار السجود[3]، فقيل: هو الوتر ، وقيل: الركعتان بعد

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشًا فنقبوا فى البلاد هل من محيص﴾ «ق : ٣٦».

(٢) يشير إلى قوله : ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾ «ق : ٣٨».

(٣) فى قوله تعالى : ﴿فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك. . .﴾ الآيات «ق: ٣٩، ٤٠».

المغرب ، والأول قول ابن عباس ، والثانى قول عمر وعلى وأبى هريرة والحسن بن على ، وإحدى الروايتين عن ابن عباس ، وعن ابـن عباس رواية ثالثة: أنه التسبيح باللسان أدبار الصلوات المكتوبات.

ثم ختم السورة بذكر المعاد ، ونداء المنادى برجوع الأرواح إلى أجسادها للحشر ، وأخبر أن هـذا النداء من مكان قـريب يسمعـه كل أحد : ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ «ق: ٤٢»، بالبعث ولقاء الله ، ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ «ق : ٤٤» : كما تشقق عن النـبات ، فيخرجون سراعًا من غير مهلة ولا بـطء ذلك حشر يسير» عليه سبحانه.

ثم أخـبر سبحـانه أنه عـالم بما يقـول أعداؤه[1]، وذلك يتـضمن مجازاتـه لهم بقولهم، إذ لم يخف عليه ، وهو سبحانه يذكر علمه وقدرته لتحقيق الجزاء.

ثم أخبره أنه ليس بمسلط عليهم ولا قهار[1]، ولم يبعث ليجبرهم على الإسلام ، ويكرههم عليه.

وأمره أن يُذكّر بكلامه من يخاف وعيده[1]، فهو الذى ينتفع بالتذكير، وأما من لا يؤمن بلقائه ولا يخاف وعيده ، ولا يرجو ثوابه، فلا ينتفع بالتذكير.



(١) وهو قوله تعالى : ﴿نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ «ق: ٤٥».

الفصل الخامس
شمول سورة الفاتحة على أسباب فلاح الإنسان

٦٣٠ - للإنسان قوتان : «قوة علمية نظرية ، وقوة عملية إرادية».

وسعادته التامة موقوفة على استكمال قـوتيه العلمية والإرادية ، واستكمال القوة العلمية إنمـا يكون بمعرفة فاطره وبارئه، ومـعرفة أسمائه وصفاته ، ومعـرفة الطريق التى توصل إليه ومعرفة آفاتها ، ومعرفة نفسه ، ومعرفة عيوبها.

فبهذه المعارف الخمس يـحصل كمال قوته العلمية ، وأعلم الـناس أعرفهم بها ، وأفقههم فيها.

واستكمال القوة العملية الإرادية لا يحصل إلا بمراعاة حقوقه سبحانه على العبد، والقيام بها إخلاصـًا ، وصدقًا ، ونصحًا ، وإحسانًا ، ومتابعة، وشهـودًا لمنته عليه وتقصيره هو فى أداء حقـه، فهو مستحى من مواجهته بتلك الخـدمة لعلمه أنها دون ما يستحقه عـليه ، ودون دون ذلك، وأنه لا سبيل له إلى استكمال هـاتين القوتين إلا بمعونـته ، فهو مضـطر إلى أن يهديه الـصراط المستقـيم الذى هدى إليـه أولياءه وخاصته وأن يجنبه الخروج عن ذلك الصراط ، إمًا بفساد فى قوته العلمية فيقع فى الضلال ، وإمّا فى قوته العملية فيوجب له الغضب.

فكمال الإنـسان وسعادته لا تتم إلا بمجـموع هذه الأمور ، وقد تضمنـتها سورة الفاتحة وانتـظمتها أكمل انتـظام ، فإن قوله : ﴿الحَمْدُ لله رَبِّ العَـالَمينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ «الفـاتحة: ٢: ٤» يتـضمن الأصـل الأول ، وهو : معرفة الرب تعالى ، ومعـرفة أسمائه وصفاته وأفعاله ، والأسـماء المذكورة فى هذه السورة هـى أصول الأسماء الحسـنى ، وهى اسم : (الله ، والرب، والـرحمن) ، فاسم «الله» متضمن لصفات الألوهية ، واسم «الـرب» متضمن لصـفات الربوبية ،

واسم «الرحمن» متضمن لصفات الإحسان والجود والبر ، ومعانى أسمائه تدور على هذا.

وقوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ «الفاتحة : ٥» يتضمن معرفة الطريق الموصلة إليه ، وأنها ليست إلا عبادته وحده بما يحبه ويرضاه ، واستعانته على عبادته.

وقوله : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ «الفاتحة : ٦» يتضمن بيان أن العبد لا سبيل له إلى سعادته إلا باستقامته على الصراط المستقيم ، وأنه لا سبيل له إلى الاستقامة إلا بهداية ربه له كما لا سبيل له إلى عبادته إلا بمعونته ، فلا سبيل له إلى الاستقامة على الصراط إلا بهدايته.

وقوله : ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ «الفاتحة : ٧» يتضمن بيان طرفى الانحراف عن الصراط المستقيم ، وأن الانحراف إلى أحد الطرفين انحراف إلى الضلال: الذى هو فساد العلم والاعتقاد، والانحراف إلى الطرف الآخر انحراف إلى الغضب: الذى سببه فساد القصد والعمل.

فأول السورة رحمة ، وأوسطها هداية ، وآخرها نعمة ، وحظ العبد من النعمة على قدر حظه من الهداية ، وحظه منها على قدر حظه من الرحمة ، فعاد الأمر كله إلى نعمته ورحمته ، والنعمة والرحمة من لوازم ربوبيته ، فلا يكون إلا رحيمًا منعمًا ، وذلك من موجبات إلهيته ، فهو الإله الحق ، وإن جحده الجاحدون وعدل به المشركون ، فمن تحقق بمعانى الفاتحة علمًا ، ومعرفة ، وعملاً ، وحالاً فقد فاز من كماله بأوفر نصيب، وصارت عبوديته عبودية الخاصة الذين ارتفعت درجتهم عن عوام المتعبدين، والله المستعان.

الفصل السادس
معنى «اللهو» فى قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾

٦٣١ - قوله تعالى : ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ . . . إلى آخرها.

أخلصت هذه السورة للوعد والوعيد والتهديد ، وكفى بها موعظة لمن عقلها.

فقوله تعالى : ﴿أَلْهَاكُمُ﴾ أى : شغلكم على وجه لا تعذرون فيه ، فإن الإلهاء عن الشيء هو الاشتغال عنه ، فإن كان بقصد فهو محل التكليف ، وإن كان بغير قصد كقوله ﷺ فى الخميصة : «إنها ألهتنى عن صلاتى»[1] ، كان صاحبه معذوراً وهو نوع من النسيان.

وفى الحديث : «فلها ﷺ عن الصبى...» أى : ذهل عنه ، ويقال: لها بالشيء ، أى : اشتغل به ، ولها عنه : إذا انصرف عنه ، واللهو للقلب ، واللعب للجوارح ، ولهذا يجمع بينهم ، ولهذا كان قوله: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ أبلغ فى الذم من «شغلكم» ، فإن العامل قد يستعمل جوارحه بما يعمل ، وقلبه غير لاهٍ به ، فاللهو هو ذهول وإعراض، والتكاثر تفاعل من الكثرة أى : مكاثرة بعضكم لبعض، وأعرض عن ذكر المتكاثر به ، إرادة لإطلاقه وعمومه ، وأن كل ما يكاثر به العبد غيره ، سوى طاعة الله ورسوله ﷺ ، وما يعود عليه بنفع معاده ، فهو داخل فى هذا التكاثر ، فالتكاثر فى كل شيء من مال ، أو جاه ، أو رياسة ، أو نسوة ، أو حديث ، أو علم ولا سيما إذا لم يحتج إليه، والتكاثر فى الكتب والتصانيف وكثرة المسائل وتفريعها وتوليدها ، والتكاثر أن يطلب الرجل أن يكون أكثر من غيره، وهذا مذموم إلا فيما يقرب إلى الله، فالتكاثر فيه منافسة فى الخيرات ومسابقة إليها.

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٧٣) وفي مواطن أخرى من «صحيحه» من حديث عائشة رضي الله عنها .

وفى «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن الشخير أنه «انتهى إلى النبى ﷺ وهو يقرأ : ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، قال: يقول ابن آدم : مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت»(١).

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٣) ، وأحمد (٤/ ٢٤ ، ٢٦)، والترمذى (٢٣٤٢ ، ٣٣٥٤) وغيرهم.

الفصل السابع
تجلى الله فى القرآن بصفاته

١/ ٦٣٢ - القرآن كلام الله ، وقد تجلّى الله فيه لعباده بصفاته :

فتارة يتجلّى فى جلباب الهيبة والعظمة والجلال ، فتخضع الأعناق، وتنكسر النفوس وتخشع الأصوات ، ويذوب الكبر كما يذوب الملح فى الماء.

٦٣٣ - وتارة يتجلّى فى صفات الجمال والكمال ، وهو كمال الأسماء، وجمال الصفات ، وجمال الأفعال الدال على كمال الذات ، فيستنفد حبه من قلب العبد قوة الحب كلها ، بحسب ما عرفه من صفات جماله ، ونعوت كماله فيصبح فؤاد عبده فارغًا إلا من محبته ، فإذا أراد منه الغير أن يعلق تلك المحبة به أبَى قلبه وأحشاؤه ذلك كل الإباء، كما قيل:

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

فتبقى المحبة له طبعًا لا تكلفًا.

٦٣٤ - وإذا تجلّى بصفات الرحمة والبر واللطف والإحسان ، انبعثت قوة الرجاء من العبد وانبسط أمله ، وقوى طمعه ، وسار إلى ربه ، وحادى الرجاء يحدو ركاب سيره . وكلما قوى الرجاء جد فى العمل ، كما أن الباذر كلما قوى طمعه فى المغل غلق أرضه بالبذر ، وإذا ضعف رجاؤه قصر فى البذر.

٦٣٥ - وإذا تجلّى بصفات العدل والانتقام ، والغضب ، والسخط ، والعقوبة ، انقمعت النفس الأمارة ، وبطلت ، أو ضعفت قواها من الشهوة ، والغضب ، واللهو ، واللعب ، والحرص على المحرمات وانقبضت أعنة رعوناتها ، فأحضرت المطية حظها من الخوف والخشية والحذر.

٦٣٦ - وإذا تجلى بصفات الأمر والنهى ، والعهد ، والوصية ، وإرسال الرسل،

وإنزال الكتب وشرع الشرائع ، انبعثت منها قوة الامتثال والتنفيذ لأوامره ، والتبليغ لها ، والتواصى بها وذكرها وتذكرها ، والتصديق بالخبر ، والامتثال للطلب ، والاجتناب للنهى.

٦٣٧ - وإذا تجلّى بصفات السمع والبصر والعلم ، انبعثت من العبد قوة الحياء ، فيستحى من ربه أن يراه على ما يكره ، أو يسمع منه ما يكره، أو يخفى فى سريرته ما يمقته عليه فتبقى حركاته وأقواله وخواطره موزونة بميزان الشرع ، غير مهملة ولا مرسلة تحت حكم الطبيعة والهوى.

٦٣٨ - وإذا تجلى بصفات الكفاية والحسب ، والقيام بمصالح العباد ، وسوق أرزاقهم إليهم ودفع المصائب عنهم ، ونصره لأوليائه ، وحمايته لهم ، ومعيته الخاصة لهم ، انبعثت من العبد قوة التوكل عليه ، والتفويض إليه ، والرضا به ، ويكل ما يجريه على عبده ، ويقيمه فيه مما يَرضى به هو سبحانه .

والتوكل معنى يلتئم من علم العبد بكفاية الله وحسن اختياره لعبده ، وثقته به ، ورضاه بما يفعله به ويختاره له.

٦٣٩ - وإذا تجلّى بصفات العز والكبرياء ، أعطت نفسه المطمئنة ما وصلت إليه من الذل لعظمته والانكسار لعزته ، والخضوع لكبريائه، وخشوع القلب والجوارح له، فتعلوه السكينة والوقار فى قلبه ولسانه وجوارحه وسمته ، ويذهب طيشه وقوته وحدته .

٦٤٠ - وجماع ذلك : أنه سبحانه يتعرف إلى العبد بصفات إلهيته تارة، وبصفات ربوبيته تارة ، فيوجب له شهود صفات الإلهية المحبة الخاصة ، والشوق إلى لقائه والأنس والفرح به ، والسرور بخدمته ، والمنافسة فى قربه ، والتودد إليه بطاعته ، واللهج بذكره ، والفرار من الخلق إليه ، ويصير هو وحده همه دون ما سواه ، ويوجب له شهود صفات الربوبية التوكل عليه والافتقار إليه والاستعانة به ، والذل والخضوع والانكسار له.

٦٤١ - وكمال ذلك أن يشهد ربوبيته فى إلهيته ، وإلهيته فى ربوبيته ، وحمده

في ملكه وعزه في عفوه ، وحكمته في قضائه وقدره ، ونعمته في بلائه ، وعطاءه في منعه ، وبره ولطفه وإحسانه ورحمته في قيوميته، وعدله في انتقامه ، وجوده وكرمه في مغفرته وستره وتجاوزه ، ويشهد حكمته ونعمته في أمره ونهيه ، وعزه في رضاه وغضبه وحلمه في إمهاله، وكرمه في إقباله ، وغناه في إعراضه.

٢/ ٦٤٢ - وأنت إذا تدبرت القرآن ، وأجرته من التحريف ، وأن تقضى عليه بآراء المتكلمين وأفكار المتكلفين ، أشهدك ملكًا قيومًا فوق سمواته على عرشه يدبر أمر عباده يأمر وينهى ، ويرسل الرسل ، وينزل الكتب ، ويرضى ويغضب ، ويثيب ويعاقب ويعطي ويمنع ، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع ، يرى من فوق سبع ويسمع ، ويعلم السر والعلانية فعّال لما يريد ، وموصوف بكل كمال ، منزه عن كل عيب ، لا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه ، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه ، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، ليس لعباده من دونه وليٌّ ولا شفيع.



الفصل الثامن
من كنوز القرآن: «من صفات حزب الله»

١/ ٦٤٣ - قوله تعالى : ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ «الفرقان: ٥٥».

هذا من ألطف خطاب القرآن وأشرف معانيه ، وأن المؤمن دائمًا مع الله على نفسه وهواه وشيطانه وعدو ربه ، وهذا معنى كونه من حزب الله وجنده وأوليائه ، فهو مع الله على عدوه الداخل فيه والخارج عنه ، يحاربهم ويعاديهم ويغضبهم له سبحانه ، كما يكون خواص الملك معه على حرب أعدائه ، والبعيدون منه فارغون من ذلك ، غير مهتمين به.

والكافر مع شيطانه ونفسه وهواه على ربه ، وعبارات السلف على هذا تدور:

ذكر ابن أبى حاتم عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال : عونًا للشيطان على ربه بالعداوة والشرك ، وقال ليث عن مجاهد قال : يظاهر الشيطان على معصية الله يعينه عليها.

وقال زيد بن أسلم : ظهيرًا أى مواليًا ، والمعنى : أنه يوالى عدوه على معصيته والشرك به فيكون مع عدوه معينًا له على مساخط ربه.

فالمعية الخاصة التى للمؤمن مع ربه وإلهه قد صارت لهذا الكافر والفاجر مع الشيطان ومع نفسه وهواه وقربانه ، ولهذا صدر الآية بقوله :

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لا يَنفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ﴾ «الفرقان : ٥٥»، وهذه العبادة هى الموالاة والمحبة والرضا المتضمنة لمعيتهم الخاصة ، فظاهروا أعداء الله على معاداته ومخالفته ومساخطه بخلاف وليه سبحانه ، فإنه معه على نفسه وشيطانه وهواه . وهذا المعنى من كنوز القرآن لمن فهمه وعقله، وبالله التوفيق.

٢/ ٦٤٤ - قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًا وَعُمْيَانًا﴾ «الفرقان : ٧٣»، قال مقاتل : إذا وعظوا بالقرآن لم يقعوا عليه صما لم يسمعوه ، وعميانًا لم يبصروه ولكنهم سمعوا وأبصروا وأيقنوا به.

وقال ابن عباس : لم يكونوا عليها صما وعميانًا ؛ بل كانوا خائفين خاشعين.

وقال الكلبي : يخرون عليها سمعًا وبصراً.

وقال الفراء : وإذا تلى عليهم القرآن لم يقعدوا على حالهم الأولى كأنهم لم يسمعوه فذلك الخرور ، وسمعت العرب تقول : قعد يشتمنى ، كقولك : قام يشتمنى، وأقبل يشتمنى ، والمعنى على ما ذكر : لم يصيروا عندها صما وعميانًا.

وقال الزجاج : المعنى : إذا تليت عليهم خروا سجدًا وبكيا سامعين ومبصرين كما أمروا به.

وقال ابن قتيبة : أى لم يتغافلوا عنها كأنهم صم لم يسمعوها ، وعمى لم يروها.

قلت : ها هنا أمران : ذكر الخرور ، وتسليط النفى عليه .

وهل هو خرور القلب ؟ أم خرور البدن للسجود ؟

وهل المعنى : لم يكن خرورهم عن صمم وعمه فلهم عليها خرور بالقلب خضوعًا أو بالبدن سجودًا ؟ أو ليس هناك خرور وعبّر به عن القعود؟!



الفصل التاسع

أنواع هجر القرآن

٦٤٥ - هجر القرآن أنواع :

أحدها : هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

والثاني : هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به.

والثالث : هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه واعتقاد أنه لا يفيد اليقين، وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم .

والرابع : هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس : هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها ، فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به ، وكل هذا داخل في قوله : ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ «الفرقان: ٣٠» .

وإن كان بعض الهجر أهون من بعض.



الفصل العاشر
الذين فى قلوبهم حرج من القرآن

٦٤٦ ـ وكذلك الحرج الذى فى الصدور منه ، فإنه تارة يكون حرجًا من إنزاله وكونه حقا من عند الله، وتارة يكون من جهة المتكلم به أو كونه مخلوقًا من بعض مخلوقاته ألهم غيره أن يتكلم به ، وتارة يكون من جهة كفايته وعدمها وأنه لا يكفى العباد ، بل هم محتاجون معه إلى المعقولات والأقيسة أو الآراء أو السياسات، وتارة يكون من جهة دلالته وما أريد به حقائقه المفهومة منه عند الخطاب، أو أريد به تأويلها وإخراجها عن حقائقها إلى تأويلات مستكرهة مشتركة، وتارة يكون من جهة كون تلك الحقائق وإن كانت مرادة ، فهى ثابتة فى نفس الأمر أو أوهم أنها لضربٍ من المصلحة.

فكل هؤلاء فى صدورهم حرج من القرآن ، وهم يعلمون ذلك من نفوسهم ويجدونه فى صدورهم، ولا تجد مبتدعًا فى دينه قط إلا وفى قلبه حرج من الآيات التى تخالف بدعته ، كما أنك لا تجد ظالمًا فاجرًا إلا وفى صدره حرج من الآيات التى تحول بينه وبين إرادته ، فتدبر هذا المعنى ثم ارض لنفسك بما تشاء.



الفصل الحادي عشر
دعاء من القرآن يكشف البلوى والضر

١/ ٦٤٧ - قوله تعالى : ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ «الأنبياء : ٨٣». جمع فى هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد ، وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه ووجود طعم المحبة فى التملق له، والإقرار له بصفة الرحمة وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته سبحانه، وشدة حاجته هو وفقره.

ومتى وجد المُبتلى هذا كشفت عنه بلواه ، وقد جُرب أنه من قالها سبع مرات ولا سيما مع هذه المعرفة كشف الله ضره [١].

٢/ ٦٤٨ - قوله تعالى عن يوسف نبيه أنه قال : ﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ «يوسف: ١٠١».

جمعت هذه الدعوة : الإقرار بالتوحيد ، والاستسلام للرب ، وإظهار الافتقار إليه ، والبراءة من موالاة غيره سبحانه ، وكون الوفاة على الإسلام أجلّ غايات العبد ، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد ، والاعتراف بالمعاد ، وطلب مرافقة السعداء.



(١) أي الدعاء بقول : « رب أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين » . وانظر كتابنا «الحرز الرباني».

الفصل الثانى عشر
الحياة الطيبة فى الدنيا والبرزخ والآخرة
فى اتباع القرآن والجهاد

١/ ٦٤٩ - قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ «الأنفال : ٢٤».

فتضمنت هذه الآية أموراً :

أحدها : أن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله ﷺ ، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له ، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات.

٢/ ٦٥٠ - فالحياة الحقيقية الطيبة هى حياة من استجاب لله والرسول ﷺ ، ظاهراً وباطنًا ، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا ، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان ، ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول ﷺ ، فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة ، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة ، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول ﷺ .

قال مجاهد : ﴿لِما يُحْيِيكُمْ﴾ يعنى : الحق.

وقال قتادة : هو هذا القرآن فيه الحياة والثقة ، والنجاة والعصمة فى الدنيا والآخرة.

وقال السدى : هو الإسلام ، أحياهم به بعد موتهم بالكفر.

وقال ابن إسحاق وعروة بن الزبير : واللفظ له ﴿لِما يُحْيِيكُمْ﴾ يعنى للحرب التى أعزكم الله بها بعد الذل ، وقواكم بعد الضعف ، ومنعكم بها من عدوكم بعد القهر منهم لكم.

وكل هذه عبارات عن حقيقة واحدة هى القيام بما جاء به الرسول ﷺ ظاهرًا وباطنًا.

وقال الواحدى والأكثرون على أن معنى قوله: ﴿لِما يُحْيِيكُمْ﴾ هو الجهاد، وهو قول ابن إسحاق واختيار أكثر أهل المعانى.

قال الفراء: إذا دعاكم إلى إحياء أمركم بجهاد عدوكم، يريد أن أمرهم إنما يقوى بالحرب والجهاد، فلو تركوا الجهاد ضعف أمرهم واجترأ عليهم عدوهم.

قلت: الجهاد من أعظم ما يحييهم به فى الدنيا، وفى البرزخ، وفى الآخرة.

أما فى الدنيا: فإن قوتهم وقهرهم لعدوهم بالجهاد، وأما فى البرزخ: فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ «آل عمران: ١٦٩». وأما فى الآخرة: فإن حظ المجاهدين والشهداء من حياتها ونعيمها أعظم من حظ غيرهم.

ولهذا قال ابن قتيبة: ﴿لِما يُحْيِيكُمْ﴾ يعنى: الشهادة.

وقال بعض المفسرين: ﴿لِما يُحْيِيكُمْ﴾ يعنى: الجنة، فإنها دار الحيوان وفيها الحياة الدائمة الطيبة - حكاه أبو على الجرجانى.

والآية تتناول هذا كله، فإن الإيمان والإسلام، والقرآن، والجهاد تحيى القلوب الحياة الطيبة، وكمال الحياة فى الجنة، والرسول ﷺ داعٍ إلى الإيمان وإلى الجنة، فهو داعٍ إلى الحياة فى الدنيا والآخرة.

٣/ ٦٥١ - والإنسان مضطر إلى نوعين من الحياة:

حياة بدنه التى بها يدرك النافع والضار، ويؤثر ما ينفعه على ما يضره، ومتى نقصت فيه هذه الحياة ناله من الألم والضعف بحسب ذلك، ولذلك كانت حياة المريض والمحزون وصاحب الهم والغم والخوف والفقر والذل دون حياة من هو معافى من ذلك. وحياة قلبه وروحه التى بها يميز بين الحق والباطل والغى والرشاد، والهوى والضلال، فيختار الحق على ضده، فتفيده هذه الحياة قوة التمييز بين

النافع والضار فى العلوم والإرادات والأعمال ، وتفيده قوة الإيمان والإرادة والحب للحق ، وقوة البغض والكراهة للباطل.

فشعوره وتمييزه وحبه ونفرته بحسب نصيبه من هذه الحياة ، كما أن البدن الحى يكون شعوره وإحساسه بالنافع والمؤلم أتم ، ويكون ميله إلى النافع ونفرته عن المؤلم أعظم ، فهذا بحسب حياة البدن ، وذاك بحسب حياة القلب ، فإذا بطلت حياته بطل تمييزه ، وإن كان له نوع تمييز لم يكن فيه قوة يؤثر بها النافع على الضار.

كما أن الإنسان لا حياة له حتى ينفخ فيه الملك الذى هو رسول الله ، من روحه، فيصير حيا بذلك النفخ ، وكان قبل ذلك من جملة الأموات، وكذلك لا حياة لروحه وقلبه حتى ينفخ فيه الرسول ﷺ من الروح الذى ألقى إليه ، قال تعالى : ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ «النحل: ٢» ، وقال : ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ «غافر : ١٥»، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ «الشورى : ٥٢». فأخبر أن وحيه روح ونور ، فالحياة والاستنارة موقوفة على نفخ الرسول الملكى ، فمن أصابه نفخ الرسول الملكى ، ونفخ الرسول البشرى حصلت له الحياتان ، ومن حصل له نفخ الملك دون نفخ الرسول ، حصلت له إحدى الحياتين وفاتته الأخرى.

٤/٦٥٢ - قال تعالى : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ «الأنعام: ١٢٢».

فجمع له بين النور والحياة ، كما جمع لمن أعرض عن كتابه بين الموت والظلمة.

قال ابن عباس - وجميع المفسرين : كان كافراً ضالا فهديناه.

وقوله : ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ ، يتضمن أموراً :

أحدها : أنه يمشى فى الناس بالنور وهم فى الظلمة ، فمثله ومثلهم كمثل قوم

أظلم عليهم الليـل فضلوا ولم يهتدوا للطريق، وآخر معه نور يـمشى به فى الطريق ويراها ويرى ما يحذره فيها.

وثانيها : أنه يمشى فيهم بنوره فهم يقتبسون منه لحاجتهم إلى النور.

وثالثهـا : أنه يمشى فيهـم بنوره يوم القيـامة على الصراط إذا بقـى أهل الشرك والنفاق فى ظلمات شركهم ونفاقهم.

٥/ ٦٥٣ - قوله : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾.

المشهور فى الآية أنه يحول بين المؤمن وبين الكفر ، وبين الكافر وبين الإيمان ، ويحول بين أهل طاعتـه وبين معصيته ، وبين أهل معصيتـه وبين طاعته وهذا قول ابن عباس وجمهور المفسرين.

وفى الآية قول آخر : أن المعنى أنه سبحانه قريب من قلبه لا تخفى عليه خافية ، فهو بينـه وبين قلبه ، ذكره الواحـدى عن قتادة ، وكان هذا أنسب بـالسياق ، لأن الاستجابة أصلها بـالقلب فلا تنفع الاستجابة بالبدن دون الـقلب ، فإن الله سبحانه بين الـعبد وبين قلـبه ، فيعلم هـل استجاب له قـلبه؟ وهل أضمر ذلـك أو أضمر خلافه ؟

وعلى القول الأول : فوجه المناسبة أنكم إن تثـاقلتم عن الاستجابة وأبطأتم عنها فلا تأمنوا أن الله يحول بينكم وبين قلوبكـم ، فلا يمكنكم بعد ذلك من الاستجابة عقوبـة لكم على تـركها بعد وضـوح الحق واستبانـته، فيكون كـقوله : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُم كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ «الأنعام : ١١٠». وقوله : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ﴾ «الصف: ٥»، وقوله : ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِـنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ «الأعراف: ١٠١»، ففى الآية تحذير من ترك الاستجابة بالقلب وإن استجاب بالجوارح، وفـى الآية سر آخر : وهو أنـه جمع لهـم بين الشرع والأمـر به ، وهو الاستجابة ، وبين القدر والإيمان به ، فهى كقوله: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إلا أَن يَشَاءَ الله رَبُّ العَالَمِينَ﴾ «التكوير : ٢٨، ٢٩». وقوله : ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إلا أَن يَشَاءَ الله﴾ «المدثر: ٥٥، ٥٦». والله أعلم.

الفصل الثالث عشر
محبوبات المؤمن في المكروهات المقدرة عليه

١/ ٦٥٤ - قوله تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ «البقرة : ٢١٦».

وقوله عز وجل : ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ «النساء : ١٩».

فالآية الأولى فى الجهاد الذى هو كمال القوة الغضبية ، والثانية فى النكاح الذى هو كمال القوة الشهوانية ، فالعبد يكره مواجهة عدوه بقوته الغضبية خشية على نفسه منه ، وهذا المكروه خير له فى معاشه ومعاده ، ويحب الموادعة والمتاركة ، وهذا المحبوب شر له فى معاشه ومعاده.

وكذلك يكره المرأة لوصف من أوصافها وله فى إمساكها خير كثير لا يعرفه ، ويحب المرأة لوصف من أوصافها ، وله فى إمساكها شر كثير لا يعرفه ، فالإنسان كما وصفه به خالقه «ظلوم جهول» ، فلا ينبغى أن يجعل المعيار على ما يضره وينفعه، ميله وحبه ، ونفرته وغضبه ، بل المعيار على ذلك: ما اختاره الله له بأمره ونهيه.

٢/ ٦٥٥ - فأنفع الأشياء له على الإطلاق: طاعة ربه - بظاهره وباطنه وأضر الأشياء عليه على الإطلاق : معصيته بظاهره وباطنه .

فإذا قام بطاعته وعبوديته ، مخلصًا له ، فكل ما يجرى عليه مما يكرهه يكون خيرًا له ، وإذا تخلّى عن طاعته وعبوديته ، فكل ما هو فيه من محبوب هو شر له، فمن صحت له معرفة ربه ، والفقه فى أسمائه وصفاته ، علم يقينًا أن

المكروهات التى تصيبه ، والمحن التى تنزل به ، فيها ضروب من المصالح والمنافع التى لا يحصيها علمه ولا فكرته، بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب.

٣/٦٥٦ - فعامة مصالح النفوس فى مكروهاتها ، كما أن عامة مضارها وأسباب هلكتها فى محبوباتها ، فانظر إلى غارس جنة من الجنات، خبير بالفلاحة ، غرس جنة وتعاهدها بالسقى والإصلاح حتى أثمرت أشجارها ، فأقبل عليها يفصل أوصالها ، ويقطع أغصانها لعلمه أنها لو خليت على حالها لم تطب ثمرتها ، فيطعمها من شجرة طيبة الثمرة ، حتى إذا التحمت بها واتحدت وأعطت ثمرتها أقبل يقلمها ، ويقطع أغصانها الضعيفة التى تذهب قوتها ، ويذيقها ألم القطع والحديد لمصلحتها وكمالها ، لتصلح ثمرتها أن تكون بحضرة الملوك، ثم لا يدعها ودواعى طبعها من الشرب كل وقت ، بل يعطشها وقتًا ويسقيها وقتًا ، ولا يترك الماء عليها دائمًا ، وإن كان ذلك أنضر لورقها وأسرع لنباتها.

ثم يعمد إلى تلك الزينة التى زينت بها من الأوراق فيلقى عنها كثيرًا منها ، لأن تلك الزينة تحول بين ثمرتها وبين كمال نضجها واستوائها كما فى شجر العنب ونحوه ، فهو يقطع أعضاءها بالحديد ، ويلقى عنها كثيرًا من زينتها، وذلك عين مصلحتها ، فلو أنها ذات تمييز وإدراك كالحيوان ، لتوهمت أن ذلك إفساد لها ، وإضرار بها ، وإنما هو عين مصلحتها.

وكذلك الأب الشفيق على ولده، العالم بمصلحته، إذا رأى مصلحته فى إخراج الدم الفاسد عنه، بَضَع جلده ، وقَطَع عروقه، وأذاقه الألم الشديد، وإن رأى شفاءه فى قطع عضو من أعضائه أبانه عنه، كل ذلك رحمة به، وشفقة عليه، وإن رأى مصلحته فى أن يمسك عنه العطاء، ولم يعطه ولم يوسع عليه، لعلمه أن ذلك أكبر الأسباب إلى فساده وهلاكه، وكذلك يمنعه كثيرًا من شهواته حمية له، ومصلحة لا بخلاً عليه.

فأحكم الحاكمين ، وأرحم الراحمين ، وأعلم العالمين ، الذى هو أرحم بعباده

منهم بأنفسهم ومن آبائهم وأمهاتهم ، إذا أنزل بهم ما يكرهون كان خيرًا لهم من أن لا ينزله بهم نظرًا منه لهم ، وإحسانًا إليهم، ولطفًا بهم، ولو مكنوا من الاختيار لأنفسهم لعجزوا عن القيام بمصالحهم ، علمًا وإرادة وعملاً ، لكنه سبحانه تولى تدبير أمورهم بموجب علمه وحكمته ورحمته ، أحبوا أم كرهوا ، فعرف ذلك الموقنون بأسمائه وصفاته ، فلم يتهموه في شيء من أحكامه ، وخفي ذلك على الجهال به وبأسمائه وصفاته فنازعوه تدبيره ، وقدحوا فى حكمته ، ولم ينقادوا لحكمه، وعارضوا حكمه بعقولهم الفاسدة ، وآرائهم الباطلة ، وسياستهم الجائرة، فلا لربهم عرفوا ولا لمصالحهم حصلوا، والله الموفق.

٦٥٧/٤ - ومتى ظفر العبد بهذه المعرفة ، سكن فى الدنيا قبل الآخرة فى جنة لا يشبه نعيمها إلا نعيم جنة الآخرة ، فإنه لا يزال راضيًا عن ربه، والرضا جنة الدنيا ومستراح العارفين ، فإنه طيب النفس بما يجرى عليه من المقادير ، التى هى عين اختيار الله له وطمأنينتها إلى أحكامه الدينية ، وهذا هو الرضا بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولاً ، وما ذاق طعم الإيمان من لم يحصل له ذلك.

وهذا الرضا هو بحسب معرفته بعدل الله ، وحكمته ، ورحمته ، وحسن اختياره، فكلما كان بذلك أعرف ، كان به أرضى ، فقضاء الرب سبحانه فى عبده دائر بين العدل والمصلحة ، والحكمة والرحمة ، لا يخرج عن ذلك البتة ، كما قال ﷺ فى الدعاء المشهور : «اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتى بيدك، ماضٍ فىَّ حكمك ، عدل فىَّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدًا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى وغمى ، ما قالها أحد قط إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرجًا ، قالوا: أفلا نتعلمهن يا رسول الله ؟! قال: بلى ينبغى لمن يسمعهن أن يتعلمهن»[1].

٦٥٨/٥ - والمقصود قوله : «عدلٌ فىَّ قضاؤك» وهذا يتناول كل قضاء يقضيه

---

(١) (صحيح) تقدم تخريجه فى الفقرة رقم ١٦٧ .

على عبده ، من عقوبة أو ألم وسبب ذلك ، فهو الذى قضى بالسبب وقضى بالمسبب وهو عدل فى هذا القضاء ، وهذا القضاء خير للمؤمن كما قال ﷺ : «والذى نفسى بيده لا يقضى الله قضاء إلا كان خيراً له ، وليس ذلك إلا للمؤمن»(١).

قال العلامة ابن القيم : فسألت شيخنا : هل يدخل فى ذلك قضاء الذنب؟! فقال : نعم ، بشرطه!.

فأجمل فى لفظة «بشرطه» ما يترتب على الذنب من الآثار المحبوبة لله من : التوبة ، والانكسار ، والندم ، والخضوع ، والذل ، والبكاء ، وغير ذلك .

٦/ ٦٥٩ - فى قوله تعالى : ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ «البقرة : ٢١٦».

فى هذه الآية عدة حكم وأسرار ، ومصالح للعبد ، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتى بالمحبوب ، والمحبوب قد يأتى بالمكروه ، لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة ، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة، لعدم علمه بالعواقب ، فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد ، وأوجب له ذلك أموراً :

منها : أنه لا أنفع له من امتثال الأمر ، وإن شق عليه فى الابتداء ، لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ، ولذات وأفراح ، وإن كرهته نفسه فهو خير لها وأنفع ، وكذلك لا شىء أضر عليه من ارتكاب النهى ، وإن هويته نفسه ومالت إليه ، فإن عواقبه كلها آلام وأحزان وشرور ومصائب، وخاصة العقل تحمل الألم اليسير لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير، واجتناب اللذة اليسيرة لما يعقبها من الألم العظيم والشر الطويل.

---

(١) أخرجه مسلم (الزهد / ٦٤ ، ٢٩٩٩) من حديث صهيب رضي الله عنه يرفعه بلفظ : «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» تفرد به مسلم، وأخرجه أحمد والنسائى بنحوه.

٧/ ٦٦٠ - فنظر الجاهل لا يجاوز المبادئ إلى غاياتها ، والعاقل الكيس دائمًا ينظر إلى الغايات من وراء ستور مبادئها ، فيرى ما وراء تلك الستور من الغايات المحمودة والمذمومة ، فيرى المناهى كطعام لذيذ قد خلط فيه سم قاتل ، فكلما دعته لذته إلى تناوله نهاه ما فيه من السم ، ويرى الأوامر كدواء كريه المذاق مفضى إلى العافية والشفاء ، وكلما نهاه كرهه مذاقه عن تناوله أمره نفعه بالتناول ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم تدرك به الغايات من مبادئها، وقوة صبر يوطن به نفسه على تحمل مشقة الطريق لما يؤمل عند الغاية ، فإذا فقد اليقين والصبر تعذر عليه ذلك ، وإذا قوى يقينه وصبره هان عليه كل مشقة يتحملها فى طلب الخير الدائم واللذة الدائمة.

ومن أسرار هذه الآية: أنها تقتضى من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور، والرضا بما يختاره له ويقضيه له لما يرجو فيه من حسن العاقبة .

ومنها : أنه لا يقترح على ربه ، ولا يختار عليه ، ولا يسأله ما ليس له به علم، فلعل مضرته وهلاكه فيه وهو لا يعلم ، فلا يختار على ربه شيئًا ، بل يسأله حسن الاختيار له ، وأن يرضيه بما يختاره ، فلا أنفع له من ذلك.

ومنها : أنه إذا فوض إلى ربه ، ورضى بما يختاره له ، أمده فيما يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر ، وصرف عنه الآفات التى هى عرضة اختيار العبد لنفسه ، وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه ، بما يختاره هو لنفسه .

ومنها : أنه يريحه من الأفكار المتعبة فى أنواع الاختيارات ، ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات التى يصعد منها فى عقبة ، وينزل فى أخرى ، ومع هذا فلا خروج له عما قدر عليه ، فلو رضى باختيار الله أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه ، وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم غير ملطوف به فيه ، لأنه مع اختياره لنفسه ، ومتى صح تفويضه ورضاه، اكتنفه فى المقدور العطف عليه ، واللطف به فيصير بين عطفه ولطفه ، فعطفه يقيه ما يحذره ، ولطفه يهون عليه ما قدره .

٨/ ٦٦١ - إذا نفذ القدر فى العبد كان من أعظم أسباب نفوذه تحيّله فى رده ، فلا أنفع له من الاستسلام وإلقاء نفسه بين يدى القدر طريحًا كالميتة، فإن السبع لا يرضى بأكل الجيف.

٩/ ٦٦٢ - قال شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية :

قال تعالى : ﴿ الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ * وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ «العنكبوت : ١ - ١١».

وقال تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ «البقرة : ٢١٤».

وقال الله تعالى لما ذكر المرتد والمكره بقوله : ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ «النحل : ١٠٦» ، قال بعد ذلك : ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ «النحل: ١١٠».

فالناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين : إما أن يقول أحدهم : آمنا، وإما أن

لا يقول آمنا ، بل يستمر على عمل السيئات ، فمن قال آمنا امتحنه الرب - عز وجل - وابتلاه وألبسه الابتلاء والاختبار ليبين الصادق من الكاذب ، ومن لم يقل آمنا فلا يحسب أنه يسبق الرب لتجربته ، فإن أحدًا لن يعجز الله تعالى ، هذه سنته تعالى ؛ يرسل الرسل إلى الخلق فيكذبهم الناس ويؤذونهم ، قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًا شَيَاطِينَ الإنسِ وَالْجِنِّ﴾ «الأنعام : ١١٢»، وقال تعالى : ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ «الذاريات : ٥٢»، وقال تعالى : ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ «فصلت : ٤٣»، ومن آمن بالرسل وأطاعهم عادوه وآذوه فابتلى بما يؤلمه ، وإن لم يؤمن بهم عوقب فحصل ما يؤلمه أعظم وأدوم.

فلابد من حصول الألم لكل نفس سواء آمنت أم كفرت ، لكن المؤمن يحصل له الألم فى الدنيا ابتداء ثم تكون له العاقبة فى الدنيا والآخرة ، والكافر تحصل له النعمة ابتداء ثم يصير فى الألم.

* * * * *

سأل رجل الشافعى ﷺ فقال : يا أبا عبد الله ، أيما أفضل للرجل ، أن يُمكّن أو يبتلى ؟!

فقال الشافعى ﷺ : لا يُمَكَّن حتى يُبتلى ، فإن الله ابتلى نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - فلما صبروا مكنهم ، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة.

وهذا أصل عظيم: فينبغى للعاقل أن يعرفه ، وهذا يحصل لكل أحد ، فإن الإنسان مدنى بالطبع ، لابد له من أن يعيش مع الناس ، والناس لهم إرادات وتصورات ، يطلبون منه أن يوافقهم عليها ، وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه ، وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب تارة منهم ، وتارة من غيرهم.

ومن اختبر أحواله وأحوال الناس ، وجد من هذا شيئا كثيرًا ، كقوم يريدون الفواحش والظلم ، ولهم أقوال باطلة فى الدين أو شرك ، فهم مرتكبون بعض ما

ذكره الله من المحرمات فى قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغىَ بِغَيْرِ الحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ «الأعراف : ٣٣» ، وهم فى مكان مشترك كدار جامعة ، أو خان ، أو قيسرية ، أو مدرسة ، أو رباط ، أو قرية ، أو درب ، أو مدينة فيها غيرهم ، هم لا يتمكنون مما يريدون إلا بموافقة أولئك ، أو بسكوتهم عن الإنكار عليهم ، فيطلبون من أولئك الموافقة أو السكوت ، فإن وافقوهم أو سكتوا سلموا من شرهم فى الابتلاء ، ثم قد يتسلطون هم أنفسهم على أولئك يهينونهم ويعاقبونهم أضعاف ما كان أولئك يخافونه ابتداء كمن يطلب منه شهادة الزور أو الكلام فى الدين بالباطل ، إما فى الخبر وإما فى الأمر أو المعاونة على الفاحشة والظلم ، فإن لم يجبهم آذوه وعادوه ، وإن أجابهم فهم أنفسهم يتسلطون عليه فيهينونه ويؤذونه أضعاف ما كان يخافه وإلا عُذِّب بغيرهم.

فالواجب ما فى حديث عائشة الذى بعثت به إلى معاوية ، ويروى موقوفًا ومرفوعًا : «من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مئونة الناس» وفى لفظ «رضى الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئًا» ، وفى لفظ «عاد حامده من الناس ذاما»[1].

وهذا يجرى فيمن يعين الملوك والرؤساء على أغراضهم الفاسدة، وفيمن يعين أهل البدع المنتسبين إلى العلم والدين على بدعهم ، فمن هداه الله وأرشده ، امتنع من فعل المحرم ، وصبر على أذاهم وعداوتهم ، ثم تكون له العاقبة فى الدنيا والآخرة كما جرى للرسل وأتباعهم مع من آذاهم وعاداهم ، مثل المهاجرين فى هذه الأمة ومن ابتلى من علمائها وعبادها وتجارها وولاتها.

وقد يجوز فى بعض الأمور إظهار الموافقة وإبطان المخالفة كالمكره على الكفر ، كما هو مبسوط فى غير هذا الموضع ، إذ المقصود هنا : أنه لابد من الابتلاء بما

---

(١) (صحيح لغيره) أخرجه الترمذى (٢٤١٤) ، وابن حبان (٢٧٦/ إحسان) وصححه الألبانى فى «صحيح الترمذى» (٢٥٤٠) ، وانظر «الصحيحة» (٢٣١١).

يؤذى النـاس ، فلا خلاص لأحد مما يـؤذيه البتة ، ولهـذا ذكر الله تعالى فـى غير موضع أنه لابد أن يبتلى الناس.

والابتلاء يكون بالسراء والضراء ، ولابد أن يُـبتلى الإنسان بما يسره وما يسوؤه ، فهو محتاج إلى أن يكون صـابرًا شكورًا ، قال تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لهَـا لِنَبْلُوَهُم أَيُّهُم أَحْـسَنُ عَمَلاً﴾ «الكـهف : ٧»، وقال تعـالى : ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَـاتِ لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ﴾ «الأعراف: ١٦٨» ، وقـال تعـالى : ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنَ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلاَ يَضِلُّ وَلا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْـشُرُهُ يَومَ القِيَامَةِ أَعْمَى﴾ «طه : ١٢٣ ، ١٢٤»، وقال تـعالى : ﴿أَم حَسِبْتُم أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَـمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُم وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ «آل عمران : ١٤٢» ، هـذا فى آل عمران ، وقد قال قـبل ذلك فى البـقرة ، فإن البقرة نزل أكثـرها قبل آل عمران : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَـدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِـكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِـكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّـى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ «البقرة : ٢١٤».

وذلك أن النفس لا تزكو وتصلح حتى تمحص بالبلاء ، كالذهب الذى لا يخلص جيده من رديئـه حتى يفتن فى كير الامتـحان ، إذ كانت النفس جاهـلة ظالمة وهى منشأ كل شر يحصل للعبد ، فلا يحصل له شر إلا منها، قال تعالى : ﴿مَّا أَصَابَكَ مِن حَسَـنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَـا أَصَابَكَ مِن سَيِّـئَةٍ فَمِن نَّـفْسِكَ﴾ «النساء : ٧٩» ، وقـال تعالى: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَـابَتْكُم مُّصِـيبَةٌ قَدْ أَصَبْـتُم مِّثْلَـيْهَا قُلْتُـمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِـنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ «آل عـمران: ١٦٥»، وقـال : ﴿وَمَا أَصَابَـكُم مِّن مُّصِيبَـةٍ فَبِمَا كَـسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ «الشورى: ٣٠» ، وقال تـعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَـمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْـعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَـا بِأَنفُسِهِمْ﴾ «الأنفـال : ٥٣»، وقال : ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَومٍ سوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُـم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ «الرعد : ١١».

وقد ذكر عقوبات الأمم من آدم إلى آخر وقت، وفى كل ذلك يقول إنهم ظلموا أنفسهم ، فهم الظالمون لا المظلومون ، وأول من اعترف بذلك أبوهم : ﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ «الأعراف: ٢٣» ، وقال لإبليس : ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ «ص: ٨٥» ، وإبليس إنما اتبعه الغواة منهم كما قال: ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ «الحجر : ٣٩ ، ٤٠» .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ «الحجر : ٤٢»، والغى : اتباع هوى النفس ، ومازال السلف معترفين بذلك ، كقول أبى بكر وعمر وابن مسعود : أقول فيها برأى ، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان ، والله ورسوله ﷺ بريئان منه.

وفى الحديث الإلهى - حديث أبى ذر الذى يرويه الرسول عن ربه عز وجل -: «يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرًا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[(١)].

وفى الحديث الصحيح - حديث سيد الاستغفار - أن يقول العبد : «اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىَّ ، وأبوء بذنبى ، فاغفر لى ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت - من قالها إذا أصبح موقنًا بها فمات فى يومه دخل الجنة ، ومن قالها إذا أمسى موقنًا بها فمات فى ليلته دخل الجنة»[(٢)].

وفى حديث أبى بكر الصديق من طريق أبى هريرة وعبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ علمه ما يقوله إذا أصبح وإذا أمسى ، وإذا أخذ مضجعه : «اللهم

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٥٧٧) ، والترمذى (٢٤٩٥) بنحوه ، والحاكم (٤/ ٢٤١) وغيرهم من حديث أبي ذر مطولاً.

(٢) حديث سيد الاستغفار أخرجه البخارى (٦٣٠٦ ، ٦٣٢٣) عن شداد بن أوس يرفعه، ورواه أحمد (٤/ ١٢٢ ، ١٢٥) والترمذي (٣٣٩٠) ، والنسائي (٨/ ٢٧٩).

فاطر السموات والأرض ، عـالم الغيب والشهادة ، رب كل شيء ومـليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أعوذ بـك من شر نفسى وشـر الشيطان وشركـه ، وأن أقترف على نفسى سوءًا أو أجره إلى مسلـم - قله إذا أصبحت وإذا أمسيت ، وإذا أخذت مضجعك»(١).

وكان النبى ﷺ يقول فى خطبته : «الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا»(٢).

وقد قال الـنبى ﷺ : «إنى آخذ بـحجزكم عن الـنار وأنتم تـتهافتون تـهافت الفراش»(٣). شبههم بالفراش لجهله وخفة حركته ، وهى صغيرة النفس فإنها جاهلة سريعة الحركة.

وفى الحديث : «مَثَل القلب ، مَثَل ريشة ملقاة بأرض فلاة»(٤).

وفى حديث آخر : «للقلب أشد تقلبًا من القِدر إذا استجمعت غليانًا»(٥).

ومعلوم سرعة حركة الريشة والقِدر مع الجهل ، ولهذا يقال لمن أطاع من يغويه :

---

(١) (صحيح) أخرجه الترمذي (٣٣٨٩) ، وأبو داود (٥٠٦٧) ، والحاكم (١/ ٥١٣) وصحـحه من حديث أبي هريرة.

(٢) (صحيح) أخرجه أبو داود (٢١١٨) ، والنسائي (٣/ ١٠٥).

(٣) أخرجه البخـاري : كتاب الأنبياء ، باب قوله تـعالى : ﴿ووهبنا لداود سليـمان﴾ وفي الرقاق ، باب الانتهاء عن المعاصي ، ومسلم برقم (٢٢٨٤) وغيرهما.

(٤) (صحيح) أخرجـه ابن مـاجه (٨٨) ، والـبغوى (١/ ١٦٤) ، وابـن أبى عـاصم فـى «الـسنة» (١/ ١٠٢ ، ١٠٣) عن أبى موسى يـرفعه بلفظ : «مثل القـلب كمثل ريشة بأرض فلاة تـقلبها الريح ظهرًا لبطن» قال الألبانى فى «ظلال الجنة»: إسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات على شرط مسلم ، والحديث أخرجه أحمد (٤/ ٤١٩)، ولـه عنده (٤/ ٤٠٨) إسناد آخر صحيح . ا. هـ. بتصرف.

(٥) (صحيح) أخرجه الإمـام أحمد (٦/ ٢٤) من حديث المـقداد بن الأسود قال: لا أقـول فى رجل خيرًا ولا شرًا ، حتى أنظر ما يختم له - يعنـى - بعد شيء سمعته من النبى ﷺ قيل : وما سمعت؟. قال: سـمعت رسول الله ﷺ يقول. . فذكره، وأخـرجه الحاكم (٢/ ٢٨٩) وقال: هذا حديث على شرط البخارى ووافقه الذهبى. وصححه الألبانى فى «الصحيحة» (١٧٧٢).

إنه استخفه ، قال عن فرعون : إنه استخف قومه فأطاعوه ، وقال تعالى : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ «الروم : ٦٠» فإن الخفيف لا يثبت بل يطيش وصاحب اليقين ثابت ، يقال: أيقن إذا كان مستقرا .

واليقين : استقرار الإيمان فى القلب علمًا وعملاً ، فقد يكون علم العبد جيدًا لكن نفسه لا تصبر عند المصائب بل تطيش.

قال الحسن البصرى : إذا شئت أن ترى بصيرًا لا صبر له رأيته ، وإذا شئت أن ترى صابرًا لا بصيرة له رأيته ، فإذا رأيت بصيرًا صابرًا فذاك ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنهُم أَئِمَّةً يَهدُونَ بِأَمرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ «السجدة : ٢٤».

ولهذا تُشبه النفس بالنار فى سرعة حركتها وإفسادها وغضبها ، وشهوتها من النار ، والشيطان من النار.

وفى «السنن» عن النبى ﷺ أنه قال : «الغضب من الشيطان والشيطان من النار، وإنما تطفأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ»[1].

وفى الحديث الآخر : «الغضب جمرة توقد فى جوف ابن آدم ألا ترى إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه»[2] ، وهو غليان دم القلب لطلب الانتقام.

وفى الحديث المتفق على صحته : «الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم»[3].

---

(١) (ضعيف الإسناد) أخرجه أبو داود (٤٧٨٤) ، والإمام أحمد (٤/ ٢٢٦) بسند ضعيف، والبخارى فى «تاريخه» والطبرانى فى «الكبير» (١٧/ ١٦٧) ، والبغوى (٣٥٨٣). قال العراقى : فيه أبو وائل القاص واسمه عبد الله بن يحيى ، قال ابن حبان : يروى العجائب ، ووثقه ابن معين . اهـ. والحديث ضعفه الألبانى فى «ضعيف أبى داود» ، و «ضعيف الجامع».

(٢) (حسن لغيره) أخرجه أحمد (٣/ ١٩ ، ٦١) ، والترمذي (٢١٩٢) مطولاً ، وفي إسناده : علي ابن زيد ، وهو ضعيف ، والحديث حسنه الترمذي.

(٣) أخرجه البخارى فى «صحيحه» (٢٠٣٥ ، ٢٠٣٨ ، ٢٠٣٩) من حديث صفية ﵂، ورواه مسلم فى (السلام/ ٢٤) ، والإمام أحمد (٦/ ٣٣٧) وغيرهم.

وفى «الصحيحين» : «أن رجلين استبَّا عند النبى ﷺ وقد اشتد غضب أحدهما ، فقال النبى ﷺ : إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»[(١)].

وقد قال تعالى : ﴿ادفَعْ بالَّتى هـىَ أحْسَنُ فَإذَا الَّذى بيْنَكَ وبيْنَهُ عداوةٌ كأنَّهُ ولىٌّ حَميمٌ * ومَا يُلَقَّاهَا إلا الَّذينَ صَبَرُوا ومَا يُلَقَّاهَا إلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وإمَّا ينزَغَنَّكَ من الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاستَعِذْ بالله إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَليمُ﴾ «فصلت: ٣٤ ، ٣٦».

وقال تعالى : ﴿خُذ العفْوَ وَأمُرْ بالعُرْف وأعرِض عَنِ الجَاهلينَ * وإمَّا ينزَغَنَّك منَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بالله إنَّه سَميعٌ عَليمٌ﴾ «الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠».

وقال تعالى : ﴿ادفَع بالَّتى هِىَ أحسَنُ السيِّئَةَ نَحْنُ أعْلَمُ بمَا يَصفُونَ * وَقُل رَّبِّ أعُوذُ بِكَ مِن هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأعُوذُ بِكَ رَبِّ أن يَحْضُرُونِ﴾ «المؤمنون : ٩٦ : ٩٨».

وانظر الفقرات والفوائد تحت هذه الأرقام :

(١٦٢ - ١٦٤ - ١٧٣ - ١٧٤ - ١٨٨ - ٢٠٥ - ٢٠٦ - ٢٣٧ - ٣٥٣ - ٤٨٧ - ٥١٤ - ٥١٨ - ٥١٩ - ٥٢٣ - ٥٣٦ - ٥٤٣ - ٥٤٥ - ٥٤٧ - ٥٤٨ - ٥٥٧).

---

(١) أخرجه البخارى (٣٢٨٢ - ٦٠٤٨ - ٦١١٥) من حديث سليمان بن صرد وأخرجه مسلم (٢٦١٠) ، وأبو داود (٤٧٨١) والترمذي (٣٤٤٨) وغيرهم.

(خاتمة) :

وهذا آخر ما وجدناه من الفوائد التي ذكرها الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - في كتابه القيم «الفوائد» . وقد رتبناها في أبواب وفصول خاصة تدل على المعنى المراد من كل فائدة - حسب ما عنَّ لنا - وكان عددها مجملة (٢٦٢ فائدة) .

(تنبيه) :

وقد أفرد المصنف أيضا في كتابه «بدائع الفوائد» عدة فصول جمع فيها حكم ومواعظ في فصول مستقلة على نمط ما ذكره في كتابه «الفوائد» ، وقد جعلنا لكل فصل وفائدة برقم خاص به في تحقيقنا له هناك ، ويمكن الرجوع إليه - لمن أراد التوسع - لما هو ملاءم لموضوع كتابنا هنا بالأرقام الآتية : بدائع الفوائد (٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦).

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وكتب

رضوان جامع رضوان

القاهرة في غرة رمضان المبارك ١٤١٢ هـ



فهرست لآيات القرآن التى ورد ذكرها بالكتاب وتكلم الشيخ ابن القيم عليها ببعض التفسير

آل عمران

الأعراف

رقم الآية | اسم السورة ونص الآية | رقم الفقرة

تم والحمد لله

* * *

الفهرس

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة